قصة وتاريخ الحضارات العربية

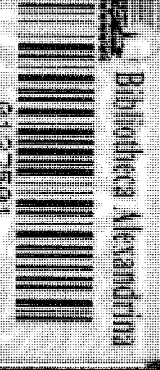
بين الامس واليوم

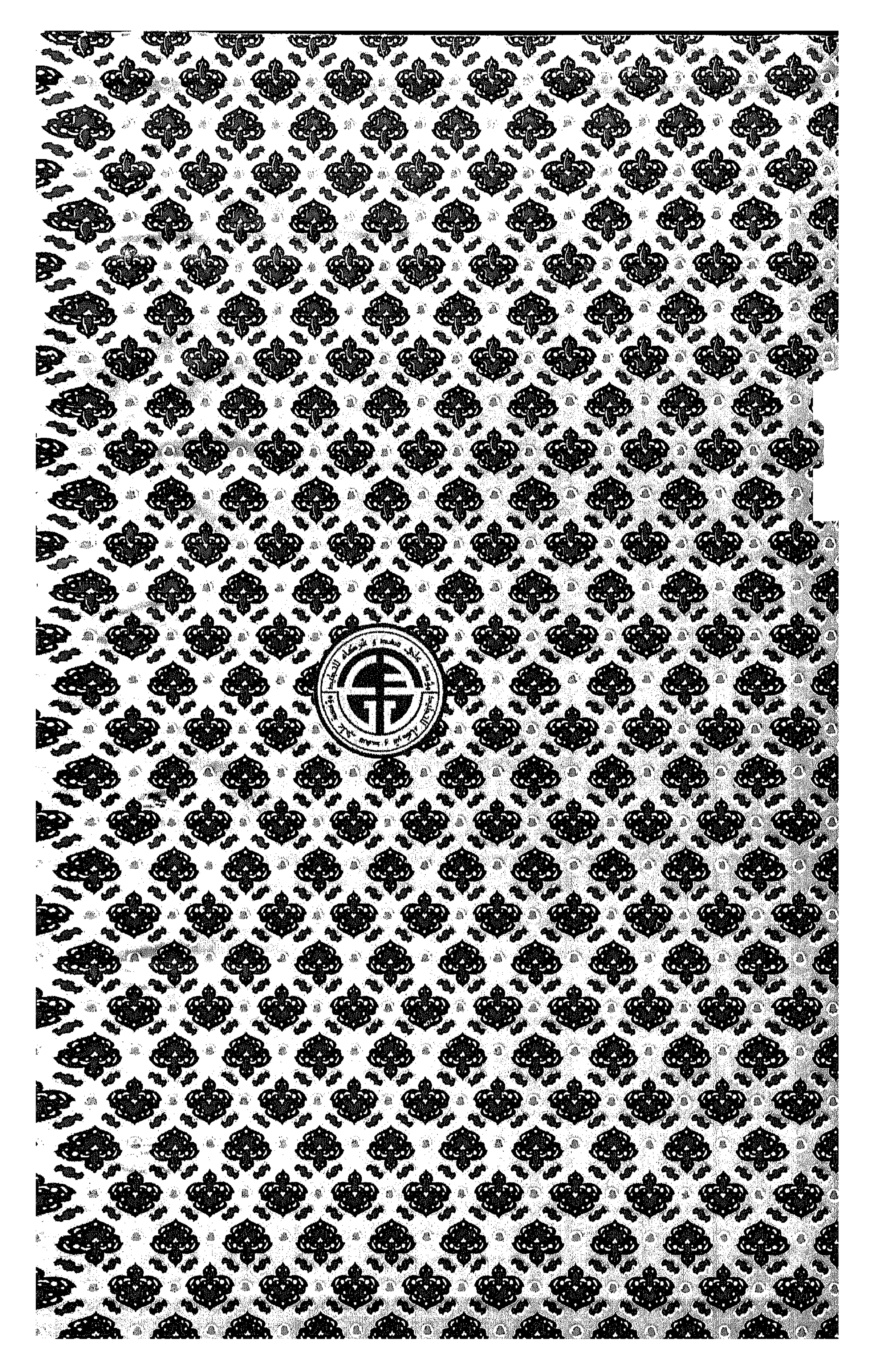
شعراء العرب وأدباؤهم

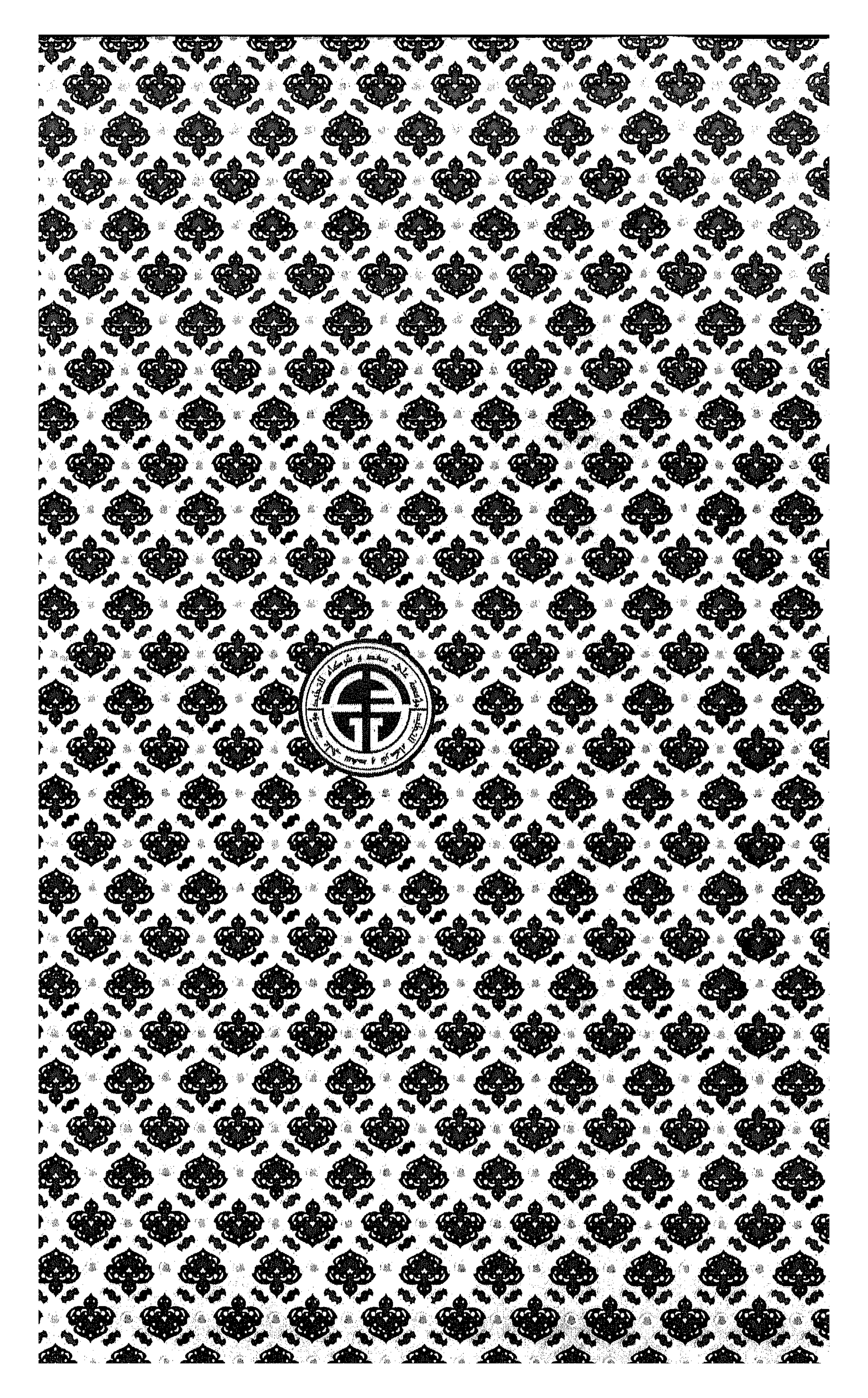
(من العصر الجاهلي

حتى العصر العباسي)









قصة
و
تاريخ
الحضارات العربية

٢٥ ـ ٢٦

قصة وتاريخ
الحضارات العربية

أول موسوعة من نوعها حديثة وبالالوان تعالج نشأة البلدان العربية واحداثها حتى ايامنا هذه

٢٥ ـ ٢٦

تاريخية ـ جغرافية ـ حضارية وادبية

شعراء العرب وأدباؤهم

(من العصر الجاهلي حتى العصر العباسي)

Edito Creps, INT- 1998 -1999

BEYROUTH ,TEL :01/586207 - 01/586219 - 03/240824 - FAX 009611584391



الفصل الاول

العصر الجاهلي

الشعراء الصعاليك

الشعراء الصعاليك هم جماعة من شذّاذ العرب الذين عاشوا بعيداً عن الحياة القبلية، في القفار ولا رفيق لهم سوى التشرّد والفقر. وكانوا يعتاشون من خلال الإغارة على قوافل البدو والحضر لسلبها ما تحمله من أشياء ثمينة، ثم يعودون إلى معاقلهم. ونادراً ما كانوا يلاحقون لأنهم كانوا سريعين في العدو ومضطلعين بأسرار الطرقات ومسالكها السهلة أو الوعرة.

كانوا أشدّاء، يتمتعون بالصبر والشجاعة والكرم؛ فهم، ولو كانوا يغيرون على قوافل الأغنياء، فإنهم كانوا يساعدون الفقراء والمحتاجين. كذلك، برع هؤلاء في نظم الشعر الذي تميّز بالصدق والعفويّة.

١ ـ **ثابت بن أوس الأزدي**: عُرف باسم «الشنفرى». عاش خلال القرن السادس للميلاد؛ إلاّ أن تاريخ ميلاده غير معروف.

نشأ في قبيلة الأزد، ولما تخلّى قومه عنه هجرهم. وكان أشهر عدّائي العرب، بحيث لم تكن الخيل تدركه. وقد ضرب المثل بسرعته، فقيل: «أعدى من الشنفرى».

عاش مع أصحابه الصعاليك العدائين، وامتهنوا النهب والسلب والغارات الليلية على النساء والأطفال والرجال.

عادى الشنفرى بني سلامان وأقسم على أن يقتل منهم مئة شخص. واستطاع رمي تسعة وتسعين منهم بسهامه وقتلهم. إلاّ أن بني سلامان استطاعوا، بمساعدة عدّاء يدعى أسيد بن جابر، الإمساك به وقتله. وقطعوا رأسه وطرحوه إهانة له. ويروى أن رجلاً منهم رفس جمجمته في أحد الأيام، فدخل عظم منها في رجله، فالتهبت ومات منها. وهكذا، استطاع

الشنفرى أن يفي بقسمه، حتى بعد موته. وقد رثاه الصعلوك تأبّط شرّاً بعد وفاته قرابة العام ٥٢٥.

٢ ـ **عروة بن الورد**: هو أبو نجدة عروة بن الورد العبسي، ولقّب بعروة الصعاليك لأنه جمعهم حوله واهتمّ بتأمين حاجاتهم عندما كان يصيبهم العوز. كان شجاعاً وجوّاداً وكريم النفس حتى أن الخليفة الأموي قال فيه: «من زعم أن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد». وكرمه هذا لم يتح له أن يحفظ لنفسه شيئاً مما كان يكسب؛ فكان متى أصابه العوز، قصد أحد الذين أحسن إليهم وعاد من عنده خائباً! ورغم ذلك، لم يكن يتوقف عن الإحسان إلى أشخاص جدد.

عاش عروة في بلاد نجد وأطراف الحجاز حيث كان ينفذ غاراته التي قتل في إحداها على يد رجل من طهيّة، قرابة العام ٦١٦.

شعر عروة تسجيل لوقائع حياته وتعبير عن طباعه وأخلاقه. وقال عنه أبو فرج الأصفهاني في كتابه «الأغاني»: «قيل إن عروة بلغه عن رجل من بني كنانة من خُزيمة أنه من أبخل الناس وأكثرهم مالاً. فبثّ عليه عيوناً فأتوه بخبره. فشدّ على إبله فاستاقها، ثم قسّمها على جماعته». وقال:

ما بالثراء يسود كلّ مسودٍ	مثرٍ، ولكن بالفعل يسودُ
فإذا غنيت فإن جاري نَيلُه	من نائلي، وميسّري معهودُ

ومن شعر عروة أيضاً، قوله:

دعيني للغنى أسعى فإني	رأيت الناس شرُّهمُ الفقيرُ

ومن أقواله أيضاً:

إذا المرء لم يطلب معاشاً لنفسه	شكا الفقرَ. أو لام الصديق فأكثرا
وما طالب الحاجات من كلّ وجهةٍ	من الناس، إلاّ من أجدَّ وشمّرا
فسِر في بلاد الله والتمس الغنى	تعش ذا يسارٍ أو تموت فتعذرا

شعر عروة يعكس الحياة البدوية العفوية وما تتميّز به من الكرم

والأخلاق الرفيعة والشهامة، ويكاد يخلو من البكاء على فراق الأحبّة والوقوف على الأطلال، وغيرها من الخصائص التي تميّز بها الشعر الجاهلي.

٣ ـ **تأبّط شرّاً:** هو ثابت بن سفيان الفهمي المضري. أما لقبه «تأبط شرّاً» فتدور حوله روايات مختلفة. فقد ذكر أنه رأى كبشاً في الصحراء، فحمله تحت إبطه، فأخذ يبول عليه، فلما قرب الحيّ ثقل عليه الكبش، فرمى به فإذا هو الغول، فقال له قومه: ما كنت متأبطاً يا ثابت؟ قال: الغول، قالوا: لقد تأبطت شرّاً، فسمّي بذلك.

٤ ـ **السُليك بن السُلَكَة:** هو السُلَيك بن عمرو بن الحارث من قبيلة تميم. كان من الصعاليك العدّائين، وكانت معظم غاراته تتركز على اليمن. كان أدلّ الناس بالأرض وأدراهم بمسالكها، وأشدّهم عدواً على رجليه، حتى أن الخيل لم تكن تستطيع إدراكه. ومن أقواله: «اللهمّ إنك تهيّىء ما تشاء إذا شئت، اللهمّ إني لو كنت ضعيفاً كنت عبداً، ولو كنت امرأة كنت أَمة، اللهمّ إني أعوذ بك من الخيبة، وأما الهيبة فلا هيبة».

مات قتلاً على يد رجل من خثعم يدعى أَنَس بن مدرك. وكانت حياته ومماته خلال القرن السادس للميلاد.

شعره عفويّ صادق، يتّسم بالخشونة أحياناً، نظراً إلى البيئة وظروف الحياة التي عاش فيها.

من أشعاره ما قاله في بني قومه:

يكذّبني العمرانِ عمرو بن جُندبٍ ... وعمرو بن سعدٍ والمكذّبُ أكذبُ
ثَكَلْتُكما إن لم أكن قد رأيتها ... كراديسَ يهديها إلى الحيّ موكبُ
كراديس فيها الحوفزانُ وقومُهُ ... فوارسُ همّامٍ متى يدعُ يركبوا
تفاقدتُمُ هل أنكرنَّ مغيرةً ... مع الصبح يهديهنَّ أشقرُ مُغربُ

شعـــراء المعلّقـــات

تعتبر المعلّقات الشعر الأرقى الذي وصل إلينا من عصر الجاهلية، ويبلغ عددها سبعاً. أما أصحابها فهم: امرؤ القيس، طرفة بن العبد، زهير بن أبي سلمى، عمرو بن كلثوم، الحَرَث بن حِلّزة، لبيد بن ربيعة وعنترة بن شداد. وقد جعل بعض الدارسين عددها عشراً، مضيفين إليها قصيدة لكلّ من النابغة الذبياني والأعشى وعبيد بن الأبرص.

ويختلف الباحثون في الأسباب التي من أجلها أطلقت تسمية المعلقات على هذه القصائد. فالبعض اعتبر ذلك إشارة إلى أن العرب قد تعدّها كعقود الدرّ المعلّقة في الرقاب. والبعض الآخر أعاد التسمية إلى أرباب الخبرة بالشعر الذين كانوا إذا سمعوا القصيدة منها قالوا: إنها من «المعلّقات»، أي أنها تستحق أن تعلّق في الأذهان.

أما الاعتقاد بأن «المعلّقات» هي التي كانت تكتب بماء الذهب على أقمشة نفيسة وتعلّق على أستار الكعبة، فهو أمر بات مشكوكاً بصحته.

١ ـ امرؤ القيس

هو امرؤ القيس بن حُجْر بن الحرث بن عمرو بن حجر آكل المرار، أحد ملوك بني كندة. ولد في مطلع القرن السادس في نجد، وعاش بداية حياته في الترف واللهو.

أحب نظم الشعر منذ نعومة أظافره، مما أثار غضب والده ودفعه إلى منعه من الاهتمام بالشعر. غير أن هذه التهديدات لم تكن لتقف في وجه نبوغ امرىء القيس، فراح يتنقل مع أصدقائه من مكان إلى آخر لاهين

وفرحين، بعد أن طرده والده من منزله. وظل على هذا المنوال من اللهو والمجون إلى أن بلغه مقتل والده على يد رجال من بني أسد وكان له من العمر حوالي ٣٠ سنة، فقال: «ضيعني أبي صغيراً، وحملني دمه كبيراً، لا صحو اليوم ولا سكر غداً، اليوم خمر وغداً أمر». فعقد العزم على الاستغناء عن حياة اللهو للانتقام لأبيه. وبما أنه لم يكن قادراً على تحقيق مبتغاه لوحده، طلب العون من بعض القبائل العربية وتحالف مع بكر، فانتصروا على بني أسد الذين التجأوا إلى المنذر الثالث ملك الحيرة.

أمام ذلك الوضع، لجأ امرؤ القيس إلى عمرو بن هند، غير أن قبيلة بني حمير رفضت أن تساعده لأن المنذر الثالث كان يبحث عنه. وتوجه في ما بعد إلى بيزنطية حيث وعده قيصرها بمده بيد العون لاسترجاع ملكه الضائع، لكنه لم يف بوعده. وكان قد ترك دروعه عند السموأل في طريق الذهاب إلى بيزنطية. ولاقى الشاعر حتفه حوالي سنة ٥٤٠م في أنقرة.

يعتبر امرؤ القيس «أول من وقف، واستوقف، وبكى، واستبكى». أما مناسبة نظم معلقته فهي حبه وعشقه لابنة عمه عنيزة.

٢ ـ طرفة بن العبد

هو عمرو بن العبد من بني بكر وائل، ولد في البحرين سنة ٥٤٣م. ولقب بطرفة، لأنه ذكر هذه الكلمة في بيت شعري اشتهر به. وهو ينتسب إلى عائلة من الشعراء العريقين، إذ كان المرقش الأصغر عمه، والمرقش الأكبر عم والده، وهما شاعران معروفان. وكذلك كان خاله المتلمس شاعراً.

فقد طرفة والده وهو صغير السن، فتولى أمر إعالة أمه وإخوته. وقد ثار هذا الشاعر الفتي على ظلم أعمامه الذين هضموا حقه وحق اخوته.

كان طرفة محباً للهجاء والتهكم، وسرعان ما اختار حياة اللهو والترف منفقاً كل ما كان يملكه من المال. وأصبح خليعاً فنفته قبيلته وتبرأت منه. فراح يتنقل بلا هدف بين الكهوف والمغاور وأطراف الجزيرة. غير أن الحاجة

دفعته إلى العودة إلى أهله، وعمل كراع لإبل أخيه معبد. وهنا، عاد اللهو ليبعد طرفة عن مسؤولياته فسرقت الإبل، ووعد أخيه بردها له عن طريق الشعر، وهكذا مدح سيدين أغدقا عليه المال فعوض خسارة أخيه وأنفق المال المتبقي على الخمرة.

وبعد نفاد ماله توجه إلى الملك عمرو بن هند وأخيه قابوس في الحيرة، فقربه الملك منه. غير أن خاله المتلمس وصهره عمرو بن بشار كانا قد شقا طريقهما قبله إلى بلاط الحيرة، فأضمرا له الشر وهجواه في أبيات شعرية وصلت إلى مسامع عمرو بن هند الذي عقد العزم على التخلص منهما في أقرب فرصة ممكنة، وسرعان ما غضب الملك منه بسبب سلاطة لسانه ودبر مقتله حوالي سنة ٥٦٩م، ولقب بـ «الغلام القتيل».

لقد تجاوز عدد أبيات معلقة طرفة المئة، وشرحها الزوزني. أما موضوعها فليس واحداً، بل مجموعة من التأملات في الكون ونظام الوجود ودعوة إلى اتخاذ اللهو والمرح سنة في الحياة. والبارز في هذه المعلقة سيطرة فكرة الموت والزوال عليها.

وقال طه حسين في كتابه الأدب الجاهلي: «في شعر طرفة شخصية بارزة ومذهب في الحياة واضح جلي، مذهب اللهو واللذة... وهذه الشخصية ظاهرة البداوة، واضحة الإلحاد، بينة الحزن واليأس والميل إلى الإباحة. وهو صادق في يأسه، صادق في حزنه، صادق في ميله إلى هذه اللذات التي يؤثرها... نحس حين نقرأه أننا نقرأ شعراً حقاً فيه قوة وحياة وروح».

٣ ـ لبيد بن ربيعة

هو أبو عقيل لبيد بن ربيعة العامري، ولد حوالي سنة ٦٥٠م في هوازن قيس. واستطاع بفضل الأبيات التي ألقاها بحضرة النعمان لهجاء الربيع بن زياد العبسي، أن ينقذ العامريين وينصرهم على أعدائهم العبسيين. وكان النابغة الذبياني حاضراً عندما ألقى هذه الأبيات، فقال له: «اذهب فأنت أشعر

من قيس كلها». وعندما انتشر الدين الإسلامي في المنطقة اعتنقه لبيد وقبيلة العامريين. وبعد ذلك توجه إلى البادية في الكوفة حيث مكث حتى وفاته سنة ٦٦١. وكان آخر بيت شعر قاله:

ولقد سئمت من الحياة وطولها، وسؤال هذا الناس: كيف لبيد

أما معلقته فهي تتألف من ٨٨ بيتاً، عالج فيها مثل سائر الجاهليين مواضيع عديدة. وكان لبيد ماراً بالكوفة في آخر حياته، «فسئل: من أشعر العرب؟ فقال: الملك الضليل. فقيل: ثم من؟ فقال: الغلام القتيل. وقيل: ثم من؟ فقال: الشيخ أبو عقيل»، ويعني نفسه.

٤ ـ زهير بن أبي سلمى

هو زهير بن أبي سلمى من بني مزينة، ولد سنة ٥٣٠م في قبيلة غطفان وترعرع فيها. نشأ زهير في بيت شاعري إذ كان والده شاعراً وكذلك خاله وزوج أمه. واشتهر في تنقيح شعره قبل إعلانه، وقيل إنه كان يظل لمدة أربعة أشهر ينظم في قصيدة، ومن ثم يُصلّحها لمدة أربعة أشهر أخرى، وفي ما بعد يعرضها لمدة أربعة أشهر على غيره من الشعراء، لذلك سمي بعض مطولاته بالحوليات. ومن أشهر الذين مدحهم هرم بن سنان الذي أغدق عليه بالمال، وزهير هرم بن سنان والحرث بن عوف. توفي زهير حوالي سنة ٦٢٧م.

نظم زهير معلقته لمدح هرم بن سنان والحرث بن عوف اللذين لعبا دور المصلحين في حرب داحس والغبراء بين قبيلتي عبس وذبيان.

وكان الخليفة عمر بن الخطاب شديد الإعجاب بشعر زهير، وقال يوماً لابنه: «ما فعلت بالحلل التي كساها هرم أباك؟» قال: «أبلاها الدهر»، فقال عمر: «لكن الحلل التي كساها أبوك هرماً لم يبلها الدهر».

وقال ابن سلام في وصفه لزهير: «ويجمع الكثير من المعاني في القليل من الألفاظ».

٥ ـ عمرو بن كلثوم

هو أبو عباد عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب، ولد في القرن السادس. وكان والده من أسياد قبيلة تغلب وأمه ليلى ابنة المهلهل. وكان عمرو شديد الفخر والإعجاب بقبيلة والده، حتى أنه ورد في «الأغاني» أنه حكم بني تغلب وهو في الخامسة عشرة من عمره. وفي ذلك الوقت، نشب خلاف بين قبيلتي بكر وتغلب فدخل عمرو بن هند كمصلح بين الطرفين، وانتدبت تغلب عمراً بن كلثوم كممثل لها. وتوجه إلى الحيرة حيث قال قسماً من معلقته الشهيرة. لكن منافسه الحرث بن حلزة توصل إلى استرضاء الملك الذي حكم لمصلحة بكر، فهجا عمرو الملك. واضطر بنو تغلب بعد أن قتل عمرو بن كلثوم عمراً بن هند إلى محاربة القبائل الموالية للمناذرة. فأخضع عمرو بني تميم وبني قيس البكريين أسياد البحرين، لكنه وقع في طريق العودة أسيراً بين يدي بني شحيم. وتوجه التغلبيون إلى الشام حيث انتصروا على الغساسنة، وأقاموا في تلك المنطقة عدة سنوات. ويقال أن عمراً بن كلثوم عاش حياة طويلة.

أما معلقة عمرو بن كلثوم فلقد وصل لنا منها حوالي المئة بيت. ونظمت أولى أبياتها دفاعاً عن بني تغلب أمام عمرو بن هند، وأكمل الباقي في ما بعد. وتعتبر معلقته سجلاً تاريخياً بارزاً يرسم لنا صورة واضحة عن عادات ذلك العصر والحروب التي خاضها العرب. وقال عيسى بن عمر في كتاب «الجمهرة» للقرشي: «لو وضعت أشعار العرب في كفة، وقصيدة عمرو بن كلثوم في كفة، لمالت بأكثرها».

٦ ـ الحارث بن حلزة

هو أبو ظليم الحرث بن حلزة من قبيلة بكر، ولد في القرن السادس. كان من أسياد قبيلته لذلك اختارته كممثل لها في الإحتكام أمام عمرو بن هند بشأن الخلاف مع قبيلة تغلب. وتمكن بفضل ذكائه الحاد أن يستميل الملك لمصلحة قبيلته. ولشدة فخره بنفسه وبقبيلته ضرب به المثل وأصبح يقال: «أفخر من الحرث بن حلزة».

أما معلقته فهي تتألف من ٨٥ بيتاً، رد فيها على عمرو بن كلثوم، وحاول دحض اتهامات التغلبيين. وتتميز معلقته بوصفه بدقة بالغة للمعارك التي دارت بين تغلب وكندة، وتغلب وبني عتيق وتغلب وقضاعة... وهو يلعب في ذلك كله دور المحامي البارع الذي يبذل قصارى جهده لتبرئة موكله وتجريم الطرف الآخر، وبالفعل حقق غايته في نهاية التحكيم.

٧ ـ عنترة بن شداد

ولد عنترة بن شداد في مخزوم سنة ٥٢٥م وهو ينتسب إلى قبيلة عبس. وكان أسود اللون ومشقوق الشفة السفلى، لأن والدته كانت أمة حبشية سباها والده في إحدى الغارات. وأطلق عليه لقب «عنترة الفلحاء» وكني «بأبي المغلس» أي الماشي في الظلام.

ألحقه والده بنسبه بعد أن أثبت عن شهامته وشجاعته في الدفاع عن قبيلته. وعلى الرغم من ذلك، ظل عرضة لسخرية أبناء القبيلة. وحارب القبائل المجاورة لهم مثل قبيلة طيء وغطفان وفزاره. واشتهر بحبه لابنه عمه عبلة.

توفي عنترة سنة ٦١٥م، لكن سبب وفاته لا يزال موضوع الكثير من النقاشات لأنه غير معروف تماماً. وألف القصاصون في ما بعد قصصاً حول شخصية عنترة بن شداد وأطلقوا عليها اسم «سيرة عنترة».

وتتألف معلقته من ٨٠ بيتاً وهو يورد فيها المعارك التي خاضها ويفتخر بشجاعته وخصاله الحميدة.

الشعــــراء الفرســـان

تعتبر الفروسية في العصر الجاهلي ميزة خلقية يختصّ بها الأفراد لا المجموعات. إذ ليس بالضروري أن يكون الفارس غنياً أو من الأشراف، فقد يكون العبد والصعلوك من الفرسان إذا امتلكا الفضائل التي تخوّلهما الحصول على هذه المرتبة المعنوية. والفارس هو من أجاد ركوب الخيل والتعاطي معها. وأحياناً، كان الفارس يفضّل فرسه على زوجته ويخصّها بعناية أفضل. ومن خصائص الفروسيّة أيضاً الشجاعة والصبر على المصاعب وفي المعارك. وكان يحق للفارس أن يفرّ من المعركة إذا كان ثباته فيها غير نافع، لا بل مميت. فقبيلة عبس، على سبيل المثال، كانت تقدم على القتال إذا أقدم عنترة عليه، وكانت تحجم عنه إذا ماهو أحجم.

والفارس أيضاً هو من ينجد المستغيث، ويسلك القفار الموحشة، ويغزو الأعداء ويعود ظافراً محمّلاً بالمغانم.

أما شعر الفروسيّة فهو الذي يحفل بذكر الحروب والأمجاد ووصف أهوال المعارك والاستبسال فيها، بالإضافة إلى الحديث عن القتلى والأسرى والسبايا والغنائم. ويتّسم هذا الشعر بالمغالاة النابعة في أغلب الأحيان من حماسة الشاعر التي تجعل من الموقعة الصغيرة ملحمة كبيرة، ومن الأنفار جيشاً جراراً...

أما أبرز الشعراء الفرسان فهم:

١ - المهلهل

هو أبو ليلى عديّ بن ربيعة التغلبي، عاش في القرن السادس بين شرق

نجد والعراق، وتوفي قرابة العام ٥٤١، أما لقبه «المهلهل» فقد حصل عليه لأنه كان أول من هلهل نسج الشعر، أي جعله رقيقاً. كما لقبه أخوه بـ «زير نساء» لأنه كان جميل الوجه ويقضي أيامه بمجالسة النساء واللهو والسكر والمقامرة. لكن حياته تغيّرت كليًا بعد مقتل أخيه كليب، فأشعل حرباً دامت أربعين سنة، وعرفت بحرب البسوس، بهدف الثأر لدماء أخيه الذي قتله شخص يدعى جسّاس بعدما عقر كليب ناقة خالته بسوس.

إن شعر المهلهل يكاد يرتبط بمقتل أخيه وحرب الثأر التي أشعلها، والتي كانت في الواقع تقتصر على بعض المعارك التي جرت خلال خمسة أيام وسقط فيها عدد من القتلى. ويحمل شعره عواطف مختلفة، تجمع بين الألم والشوق لأخيه والنقمة على قاتليه. ومن أبرز أشعاره ما قاله على قبر أخيه.

٢ ـ حاتم الطائي

هو حاتم بن عبدالله بن سعد بن الحَشْرَج. . . بن عديّ. . . . بن ثُعَل الطائي. عاش في القرن السادس وتوفي في أوائل القرن السابع الميلادي، قرابة العام ٦٠٥. اشتهر بالجود والشجاعة، وضرب المثل به لكرمه الذي لم يسبق له مثيل في تاريخ العرب. وفي المعارك، كان حاتم شجاعاً، «إذا قاتل غلب، وإذا غنم أنهب، وإذا سئل وهب، وإذا ضرب بالقداح فاز، وإذا سابق سبق، وإذا أَسر أَطلق، وكان يقسم بالله أن لا يقتل واحد أمّه».

نسجت حول كرمه الأخبار حتى غدت كالأساطير، وقد يكون ورث ذلك عن والدته عُتْبة بنت عفيف التي كانت تتمادى في تبذير أموال عائلتها، وهي في بيت أبيها، فاضطرّ أخوتها إلى الحجر عليها لئلاّ تقضي على الأموال.

وكان حاتم يوقد النار على مرتفع من الأرض خلال الليل، ليبصرها من ضلّ طريقه فيأوي إلى منزله وكان يحضّ غلامه على متابعة إيقاد النار ليلاً ويعده بالحرية إذا جلبت ناره ضيفاً. ويقول في ذلك:

أوقـد فـإنّ الـلـيـل مَـرُّ والـريـح يـا مـوقـدُ ريـحٌ صَـرُّ
عـسـى يـرى نـارك مـن لـيـل يـمـرُّ إن جَـلـبْـتَ ضـيـفـاً فـأنـت حـرُّ

شعر حاتم يتحدث عن شخصيته وطباعه وجوده اللامحدود، ويردّ فيه على لائميه على إسرافه في الكرم والشجاعة، ومنهم زوجته التي يقول لها:

مـهـلاً نَـوَارُ أقـلّـي الـلّـوم والـعـذلا ولا تـقـولـي لـشـيء فـات: مـا فـعـلا؟
ولا تـقـولـي لـمـال كـنـتُ مُـهْـلِـكَـهُ: مهلاً، وإن كنتُ أُعطي الأنس والخبلا
إن الـبـخـيـل إذا مـا مـات يـتـبـعـه سـوء الـثـنـاء ويـحـوي الـوارثُ الإبـلا

٣ ـ عمرو بن مَعْدي كرب

هو أبو ثور عمرو بن معدي كرب الزبيدي اليماني. عاش نحو مئة عام وشهد معركة القادسية بين العرب والفرس، وقتل في حصار نهاوند سنة ٦٤١.

كان أكولاً، شروباً، لاهياً، لكنه كان يسرع إلى نجدة المستغيث، ولا يتورع عن الهرب أثناء حملاته إذا شعر بخطر الموت. كان دائم التمرّد على قائد جيشه ولا يطيعه إلاّ أحياناً، ومرغماً. أسلم، لكنه ارتد لاحقاً عن الإسلام مع المرتدّين من أهل اليمن.

شعره قليل ويتميّز بالإيجاز وصراحة التعبير، مع شيء من الحكمة الفطريّة، ومن أبرز أشعاره قصيدة يصف فيها موقعة بين قومه وبني كعب ونهد.

٤ ـ دريد بن الصِّمَّة

هو دريد بن الصّمّة، واسم الصّمّة معاوية بن الحرث بن جُشَم بن بكر بن هوازن. قُتل أخوته الأربعة قبله، فرثاهم وسعى إلى الثأر لهم. خطب دريد الخنساء الشاعرة، وكان صديقاً لأخيها معاوية. ولمّا ردّته لكبر سنّه، هجاها.

تجاوز عمر دريد المئة عام، وأدرك الإسلام من دون أن يسلم. قتل في يوم حُنين، حين خرج مع قومه إلى الحرب تيمّناً بمشورته، وكُسر قومه في المعركة (٦٣٠م).

شعره رفيع، فخم التعبير، يتناول في مواضيعه الفخر والحماسة والحكمة، ولكن دون مستوى الطبقة الأولى من الشعراء الجاهليين. وفي قصيدة عن إحدى غزواته، يقول دريد:

دعوت الحيّ نصراً فاستهلّوا — بشبّان ذوي كَرَم وشيبِ
على جردٍ كأمثال السّعالي — ورَجْلٍ مثل أهْمِيَة الكثيبِ
فما جبنوا، ولكنّا نَصبنا — صدور الشَرعَبِيّة للقلوبِ
فكم غادرنا من كابٍ صريع — يمجّ نجيع جائفة ذَنوبِ
فأجْلَوا، والسّوام لنا مباحٌ — وكلّ كريمة خَوْدٍ عَروبِ
وقد تُرك ابن كعب في مَكَرٍ — حبيساً بين ضبعانٍ وذيبِ

سائر شعراء العصر الجاهلي

١ ـ النابغة الذبياني

هو زياد بن معاوية بن ضباب بن مرة، من بني ذبيان بن غطفان. عاش في القرن السادس وتوفي حوالي سنة ٦٠٤. لقب بالنابغة الذبياني، وإما لأنه استخدم لفظة «نبغ» في أبياته، إما لأنه لم يقل الشعر حتى نبغ أي أصبح رجلاً. كُني بأبي أمامة، وأبي ثمامة، وأبي عقرب. وروي أنه زاحم في شبابه حاتم الطائي ورجلاً آخر على «ماوية» لكنه فشل في ذلك.

اتصل حوالي سنة ٥٥٤ بالمنذر الثالث بن ماء السماء، وشهد تسلم عمرو بن هند ملك أبيه وهنأه بقصيدة مدحية، وذكر ابن قتيبة أن النابغة «كان مع النعمان بن المنذر ومع أبيه وجده، وكانوا له مكرمين». كان الهدف الأول للنابغة الذبياني أن يستمر حلف قومه الذبيانيين مع بني أسد وبني تميم للوقوف في وجه العبسيين وحلفائهم بني عامر. وهنا نرى أن العبسيين والعامريين راحوا يبذلون جهودهم لإفساد هذا الحلف الذي يهدد مصالحهم. وكان النابغة يعمد إلى هجاء أعدائه ومدح حلفائه. وكان أيضاً على صلة بالغسانيين قبل القطيعة التي وقعت بينه وبين النعمان بن المنذر.

وفي سنة ٥٨١ تربع النعمان الثالث أبو قابوس، ابن المنذر الرابع، على عرش الحيرة. وكان محباً لمظاهر الملك وراغباً في القضاء على الغسانيين. فزاره النابغة ومدحه وأصبح من المفضلين لديه. ووهبه النعمان العطايا من النوق «الأدم الفتل المشدودة برحال الحيرة الجدد» والجواري «الساحبات ذيول الريط» والمال الكثير. أثار هذا الجاه الذي حصل عليه النابغة حسد منافسيه وأبرزهم عبد القيس بن خفاف التميمي ومرّة بن سعد بن

قريع السعدي اللذان نظما هجاء في النعمان على لسان النابغة. غير أن هذه الحيلة لم تمر على النعمان. وظل الوضع على حاله حتى كانت مسألة «المتجردة». كان النعمان قد تزوج من امرأة أبيه «المتجردة» وهي امرأة فائقة الجمال. وفي أحد الأيام رآها النابغة فجأة فسقط حجابها، ثم عادت واستترت. فنظم قصيدة طويلة حولها، تخطى فيها حدود الأدب. ومن أبيات هذه القصيدة:

سقط النصيف، ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد

وسلم مرّة القريعي هذه القصيدة إلى النعمان الذي ثار غضبه، غير أن النابغة تمكن من الفرار إلى ملوك غسان حيث امتدحهم لفترة من الزمن. وبعد مقتل النعمان السادس أبي كرب، ابن عمرو بن الحرب، وتسلم حجر الثاني الحكم، عاد النابغة إلى الحيرة، حيث حسد على ثلاثة أمور: «على إدناء النعمان له بعد المباعدة ومسامرته له وإصغائه إليه، وعلى جودة شعره، وعلى مئة بعير من عصافيره أمر له بها». غير أن النابغة لم يمكث طويلاً في الحيرة، لأن قابوس نقم على النعمان وأرسل جيشاً يطلبه، واقتيد النعمان إلى المدائن حيث قُتل سنة ٦٠٢. فعاد الذبياني إلى قومه ومات سنة ٦٠٤.

ومن شعره المدحي بائيته المشهورة التي نظمها في مدح عمرو بن الحرث الغساني. وكان النابغة قد بلغ في تلك المرحلة الاستقرار الشعري، وتعتبر بائيته نموذجاً عن شعره السياسي:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب
تورثن من أزمان يوم حليمةٍ إلى اليوم قد جربن كل التجارب
تقدُّ السلوقي المضاعف نسجه وتوقد بالصفاح نار الحباحب

٢ ـ الأعشى

هو ميمون بن قيس بن جندل، من بكر بن وائل من ربيعة. لقّب بالأعشى لضعف بصره وعُرف باسم «صناجة العرب» بسبب وقع شعره البليغ في الأسماع وأثره البعيد في البلاد. نشأ الأعشى في قرية في اليمامة تدعى

منفوحة، وهناك التقى بهريرة التي شبب بها في مطلع لاميته المعروفة، واضطر في ما بعد إلى الطلاق من زوجته. وذكر في قصائده عدة نساء منهن هريرة وليلى وقتلى وتيا.

وكان يتنقل من منطقة إلى أخرى لكسب رزقه حيث يمتدح الأمراء والملوك مثل آل عبد المدان، وسلامة ذا فائش، والأسود العنسي وقيس بن معدي كرب والمناذرة.

عاش حياة طويلة إلى أن أدرك الإسلام، لكنه لم يسلم وتوفي في اليمامة. قال عنه أبو زيد القرشي في «الجمهرة»: «كان أمدح الشعراء للملوك، وأوصفهم للخمر، وأغزرهم شعراً، وأحسنهم قريضاً».

ومن أكثر قصائد الأعشى شهرة، قصيدة «وداع هريرة»:

ودع هريرة، إن الركب مرتحل ... وهل تطيق وداعاً أيها الرجل
غراء، فرعاء، مصقول عوارضها، ... تمشي الهوينا، كما يمشي الوجي الوحل
كأن مشيتها من بيت جارتها ... مر السحابة: لا ريث ولا عجل...
صدت هريرة عنا ما تكلمنا ... جهلاً بأم خليدٍ حبل من تصل
عُلقتها عرضاً، وعُلقت رجلاً ... غيري، وعُلق أخرى غيرها الرجل
وعُلِّقَته فتاةٌ ما يحاولها، ... ومن بني عمها ميتٌ بها وهِلُ
وعُلِّقتني أخيرى ما تلائمني، ... فاجتمع الحب حباً كله تَبِل...
وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني ... شاوٍ، مِشَلٌ، شلولٌ، شُلشُلٌ، شوِلُ...

٣ ـ السموأل

هو السموأل بن عادياء اليهودي، اليثربي الأصل، صاحب تيماء التي عرفت بتيماء اليهودي. نزل أبوه تيماء على طريق القوافل من الحجاز إلى الشام فامتلكها، وسور مزرعته وحفر بئراً وبنى منزلاً من الحجر بدا كالحصن المنيع في بيئة بدوية لم تتعود إلا بيوت الوبر والجلد. وكان بعض حجارته كلسياً أبيض فدعي باسم «الأبلق».

التجأ امرؤ القيس في القرن السادس إلى السموأل في الأبلق وهو في

طريقه إلى بيزنطية، وأودعه دروعه وأسلحته. وبعد موت الشاعر جاء الحرث بن أبي شمر الغساني مطالباً بالدروع، فرفض السموأل أن يسلم الوديعة. فأسر الحرث ابنه وهدده بقتله، إن لم يسلمُه الدروع. وضحّى السموأل بابنه في سبيل الأمانة وأعاد الدروع إلى أحد ورثة امرىء القيس، لذلك ضرب به المثل فقيل: «أوفى من السموأل».

وردت لامية السموأل في أمهات المجامع الأدبية، وهو يفتخر فيها برفعة المنزل وإغاثة الملهوف وحماية الجار وبالحصن «الأبلق».

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه	فكل رداءٍ يرتديه جميل
تعيرنا أنا قليلٌ عديدنا	فقلت لها إن الكرامَ قليلَ
وما ضرنا أنّا قليل وجارنا	عزيز وجار الأكثرين ذليل
لنا جبلٌ يحتله من نجيره	منيع يرد الطرف وهو كليل
هو الأبلق الفرد الذي شاع ذكره	يعز على من رامه ويطول...

٤ ـ الحطيئة

هو جَروَل بن أَوس بن مالك بن مخزوم، من بني عبس، من مُضر، لقّب باسم الحطيئة لقصر قامته ودمامته. واعتبره العرب مغموز النسب لأنه كان ابن أمة اسمها الضرّاء، وكان أبوه أوس قد تزوج امرأة حرة من بني شيبان، فرزق منها بولدين، ومن ثم لاقته المنية. وتزوج الضرّاء في ما بعد، رجل من عيس يدعى الكلب بن كنيس، فأنجبت منه ولدين.

وعندما كبر، طالب أخويه من أوس بميراثه، فقالا له: «أقم معنا فنحن نؤاسيك»، فهجاهما وذهب إلى اليمامة لاحقاً بأهل امرأة أبيه وطالب بالميراث وأحرجهم، فمنعوه وضربوه، فغضب وهجاهم.

عاش الحطيئة كل حياته متشرداً، ومتنقلاً من قبيلة إلى أخرى، يمدح من يغدق عليه بالمال ويهجو من لا يعطيه مبتغاه. وظل يهجو أمه وزوجها، فضلاً عن هجائه لنفسه. ومن الذين هجاهم ومدحهم قبل الإسلام علقمة بن علاثة وزيد الخيل وحاتم الطائي.

ويختلف المؤرخون حول زمن إسلام الحطيئة، فيرى ابن قتيبة أنه لم يسلم إلا بعد وفاة النبي لأنه «لم يجد له ذكراً فيمن وفد عليه من العرب»، بينما يرى ابن حجر أنه أسلم في عهد النبي، وقد كان «رقيق الإسلام»، فاسد الدين، منافقاً خبيثاً. وعندما توفي النبي وحدثت الثورة المعروفة باسم «الردة» كان الحطيئة من رجالها، وقال محرضاً عليها:

أطعنا رسول الله، إذ كان صادقاً ... فيا عجباً، ما بال دين أبي بكر

أيورثها بكراً، إذا مات بعده؟ ... فتلك، وبيت الله قاصمة الظهرِ

غير أن هذه الحركة باءت بالفشل، ووقع الحطيئة بالأسر سنة ١١هـ. فعاد الحطيئة إلى الدين وأخذ على نفسه نصرة الإسلام ودعوة المسلمين إلى الاستبسال ضد الفرس.

وبعد وفاة الخليفة عمر، عاد الحطيئة إلى هجو الناس. وكان قد اتصل بالوليد بن عقبة، أخو الخليفة عثمان بن عفان لأمه، كما اتصل بسعيد بن العاص والي المدينة وترك فيه مدائح جيدة. وقبيل وفاته سنة ٦٧٩ أوصى بأن يُحمل على أتان وجعلوا يذهبون به ويجيئون حتى مات.

كان الحطيئة قصيراً دميماً، بارز اللحي الأسفل، وهو خبيث الأصل والنسب، ودنيء الأخلاق ومنافق في الدين، وبخيل ومحتال. غير أنه على الرغم من ذلك، كان رقيق القلب وعطوفاً على زوجته وأولاده.

أما في ما يتعلق بشعره، فخرج الحطيئة يوماً، وكله رغبة في الهجاء، فراح يردد:

أبت شفتاي اليوم إلا تكلما ... بسوءٍ، فما أدري لمن أنا قائله

فلم يرَ أحداً، وبينما هو في الطريق أطلّ على بئرٍ فرأى صورته، فقال:

أرى لي وجهاً شوه الله خلقه ... فقبِّحَ من وجهٍ وقبح حامله

ومن الذين هجاهم صخر بن أعيى من بني أسد الذي بات عنده في أحد الأيام:

ولما رأيت أن ما يبتغي القِرى ... وأن ابن أعيى، لا محالة، فاضحي
شددت حيازيم ابن أعيى بشربةٍ ... على ظمأ سدت أصولَ الجوانحِ...

وهجا الحطيئة كذلك أمه قائلاً:

جزاك الله شراً من عجوزٍ ... ولقاك العقوق من البنينا
تنحي فاجلسي مني بعيداً ... أراح الله منك العالمينا
أغربالاً إذا استودعت سراً ... وكانوناً على المتحدثينا
حياتك، ما علمت، حياة سوء ... وموتك قد يسر الصالحينا

٥ ـ الخنساء

هي تُماضر بنت عمرو بن الحرث بن الشريد، من قيس عيلان، ولدت حوالي سنة ٥٧٥. لقبت بالخنساء لارتفاع بسيط في أرنبة الأنف، وهو من الصفات المستحبة. وكان والدها صاحب ثروة كبيرة ونفوذٍ واسع ومقام عالٍ، وكان يحترم مواقفها وآراءها. هكذا عندما رفضت الخطيب العجوز الذي تقدم ليتزوجها، احترم والدها رأيها.

تزوجت الخنساء أربع مرات، وانجبت من زوجها الأول عبد العزّى من بني جفاف، عمراً الذي عرف بأبي شجرة، ومن سائر الأزواج أنجبت يزيد ومعاوية وحَزّن وعمرو. ومع ظهور الإسلام، اعتنقت هذا الدين الجديد. ودعت أولادها إلى الجهاد بإخلاص في سبيله فقاتلوا وقتلوا. عاشت طويلاً، حتى توفيت سنة ٦٦٤م.

ومن الحوادث التي طبعت حياة الخنساء مقتل أخيها صخر في موقعة «يوم الحوزة»، وأخيها معاوية في موقعه «يوم كلاب» فرثتهما في قصائد مشهورة. ونذكر من قصائدها هذه، بعض أبيات قصيدة «قذى بعينك» التي قالتها في رثاء أخيها صخر:

قذىً بعينك، أم بالعين عوّار   أم ذرّفت إذ خلت من أهلها الدارُ
كأن دمعي لذكراه، إذا خطرت،   فيضٌ يسيل على الخدين، مدرارُ
تبكي خناس، فما تنفك، ما عمرت،   لها عليه رنينٌ، وهي مفتارُ...
يا صخرُ، وراد ماء قد تناذره   أهل الموارد، ما في ورده عارُ
وإن صخراً لمقدام إذا ركبوا   وإن صخراً، إذا جاعوا لعقّارُ
وإن صخراً لتأتم الهداة به،   وكأنه علَمٌ في رأسه نارُ
حمّال ألوية، هبّاط أودية،   شهّاد أنديةٍ، للجيش جرّارُ

النثـــر الجاهلـــي

١ ـ الأمثـال

في التراث العربي الجاهلي أمثال بعضها نثري وبعضها مجتزأ من الشعر، وضعت إثر أحداث وحالات وقعت للجاهليين فتداولها الناس. وقد يبدو بعض الأمثال غامضاً، فيجد القارىء صعوبة كبيرة في فهمه إن لم يعد إلى السبب الذي انطلق المثل من أجله. وفي الأمثال التي وردت في «مجمع الأمثال» للميداني و «جمهرة الأمثال» لأبي هلال العسكري نذكر ما يلي:

- «أول الشجرة النواة»: يضرب للأمر الصغير الذي يتولد منه الكبير.
- «المقدرة تذهب الحفيظة»: الحفيظة هي الغضب، ويضرب في العفو عند المقدرة.
- «إن كنت كذوباً فكن ذكوراً»: يضرب للرجل الذي يكذب ثم ينسى فيحدّث بخلاف ذلك.
- «كالمستجير من الرمضاء بالنار».
- «إن البغاث بأرضنا يستنسر».
- «عند الصباح يحمد القوم السُّرى».
- «لا رطباً فتعصر ولا يابساً فتكسر».

ومن الشخصيات الجاهلية التي عرفت بإطلاق الأمثال: لقمان عاد من القبيلة اليمنية البائدة، وأكثم بن صيفي التميمي، وعامر بن الظرب.

٢ ـ الخطب

لعبت الخطب دوراً هاماً في العصر الجاهلي، إذ كان الخطيب يحث الشعب على القتال تارةً، ويدعوهم إلى السلم طوراً. ويقول أبو عمرو بن العلاء: «كان الشاعر في الجاهلية يقدَّم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم، ويهول على عدوهم ومن غزاهم... فلما كثر الشعر والشعراء، واتخذوا الشعر مكسبة، ورحلوا إلى السوقة، وتسرعوا إلى أعراض الناس، صار الخطيب أعظم قدراً من الشاعر».

ومن أهم الخطباء عُتبة بن ربيعة خطيب قريش يوم بدر، وسهيل بن عمرو الأعلم الذي قال فيه عمر للنبي: «يا رسول الله انزع ثنيتيه السفليتين حتى يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً»، فقال النبي: «لا أمثل فيمثل الله بي، وإن كنت نبياً، دعه يا عمر فعسى أن يقوم مقاماً تحمده»، وقد أسلم وحسن إسلامه وكانت له مواقف محمودة.

ومن هذه الخطب الجاهلية ما أورده الجاحظ من خطبة قس بن ساعده الايادي، وجاء فيها:

«أيها الناس اسمعوا وعوا، وانظروا واذكروا، من عاش مات ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آت. آياتٌ محكمات، مطر ونبات، وآباء وأمهات، وذاهب وآت. ضوء وظلام، وبرٌ وآثام، نجوم تمور وبحور لا تغور، نهار ساج وليل داج وسماء ذات أبراج. ما لي أرى الناس يموتون ولا يرجعون، أرضوا فأقاموا أم حبسوا فناموا...».

نماذج من العصر الجاهلي

امــرؤ القيــس

المعلَّقة

قِفا نبكِ من ذِكرى حبيبٍ ومنزِلِ، بِسِقطِ اللِّوى، بين الدَّخولِ، فحَومَلِ[١]

فتُوْضِحَ، فالمِقْراةِ؛ لم يَعْفُ رسمُها لما نسجتها من جَنوبٍ وشمْألِ[٢]

وقوفاً بها صَحْبي عليَّ. مَطيَّهم، يقولون: «لا تهلَكْ أسىً، وتجمَّلِ!»[٣]

وإنَّ شِفائي عَبرةٌ مُهَرَاقةٌ؛ فهلْ عند رسمٍ دارسٍ من مُعَوَّلِ؟[٤]

كأنّي، غَداةَ البينِ، يومَ تحمَّلوا، لدى سَمُراتِ الحيِّ، ناقفُ حَنْظَلِ[٥]

ففاضَتْ دموعُ العَينِ منّي، صبابَةً، على النَّحرِ، حتى بلَّ دمعيَ مِحْمَلي[٦]

ألا ربَّ يومٍ، لكَ منهنَّ، صالحٍ؛ ولا سيما يومٌ بدارة جُلجُلِ![٧]

ويوم عقرتُ للعذارى مَطيَّتي فيا عجبًا من كُورها المتحمَّلِ![٨]

فظلَّ العذارى يَرْتَمينَ بِلَحمِها، وشَحْمٍ كهُدَّاب الدِّمَقْسِ المُفَتَّلِ[٩]

أفاطِمَ، مهلاً، بعضَ هذا التدلُّلِ! وإن كنتِ قد أزمعتِ صُرْمي، فأجملي![١٠]

أغَرَّكِ منّي أنّ حُبَّكِ قاتلي، وأنّك مهما تأمُري القلبَ يفعلِ![١١]

وإنْ تكُ قد ساءَتكِ منّي خليقَةٌ، فسُلّي ثيابي من ثيابكِ تَنْسُلِ![١٢]

وما ذَرَفَت عيناكِ إلاّ لِتَضربي بسهمَيكِ في أعشار قلبٍ مُقَتَّلِ[١٣]

مُهَفْهَفَةٌ، بيضاءُ، غيرُ مُفَاضَةٍ، ترائبُها مصقولةٌ كالسَّجَنْجَلِ[١٤]

تَصُدُّ وتُبدي عن أسيلٍ، وتتقي بناظرةٍ من وحش وَجْرَةَ مُطْفِلِ[١٥]

وتُضحي، فَتيتُ المِسْكِ فِراشِها نَؤُومُ الضُّحى لم تَنْتطِقْ عن تَفضُّلِ[١٦]

تُضيءُ الظلامَ بالعَشيِّ، كأنّها مَنارةُ مُمْسَى راهبٍ مُتَبَتِّلِ

إلى مِثلها يَرْنو الحَليمُ صَبابَةً، إذا ما اسْبَكَرَّت بين دِرْعٍ وَمِجْوَلِ[١٧]

تَسَلَّت عمايَاتُ الرِّجالِ عن الصبى؛ وليسَ فُؤادي عن هواكِ بِمُنْسَلِ[١٨]

وليلٍ كموجِ البحرِ أرخى سُدولَهُ عَلَيَّ، بأنواعِ الهُمُومِ، ليبتلي (١٩)

فقلتُ له، لمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ، وأردفَ أَعْجازاً، وناءَ بكَلْكَلِ (٢٠)

ألاَ أيُّهَا اللَّيلُ الطويلُ، ألا انْجَلي بِصبْحٍ. وما الإصْباحُ مِنك بِأَمْثَلِ! (٢١)

فيا لكَ من ليلٍ، كأَنَّ نجومَهُ بأَمْراسِ كَتَّانٍ إلى صُمِّ جَنْدَلِ (٢٢)

وقد أغتدي، والطيرُ في وُكُناتِها، بِمُنْجَرِدٍ، قَيْدِ الأَوابِدِ، هَيْكَلِ (٢٣)

مِكَرٍّ، مِفَرٍّ، مُقْبِلٍ، مُدْبِرٍ، مَعاً؛ كجُلْمود صخرٍ حَطَّهُ السَّيلُ من عَلِ (٢٤)

مِسَحٍّ، إذا ما السَّابحاتُ، علَى الوَنَى، أثرنَ غُباراً بالكديدِ المُرَكَّلِ (٢٥)

يُزِلُّ الغُلامَ الخِفَّ عن صَهَواتِهِ ويُلوي بأثوابِ العَنيفِ المُثَقَّلِ (٢٦)

دَريرٍ كخُذْرُوفِ الوَليدِ، أَمَرَّهُ تتابُعُ كَفَّيْهِ بخيطٍ مُوَصَّلِ (٢٧)

له أَيْطَلاَ ظَبْيٍ، وساقا نعامةٍ، وإرخاءُ سِرحانٍ، وتقريبُ تَتْفُلِ (٢٨)

فَعَنَّ لنا سِرْبٌ كأَنَّ نِعاجَهُ عذارى دُوارٍ في مُلاءٍ مُذَيَّلِ (٢٩)

فألحقَنا بالهادياتِ، ودونه جَواحِرُها، في صَرَّةٍ لم تَزَيَّلِ (٣٠)

فعادى عِداءً بين ثَورٍ ونعجةٍ دراكاً، ولم يُنْضَحْ بماءٍ فيُغْسَلِ (٣١)

فظلَّ طُهاةُ اللَّحم من بينِ مُنْضِجٍ صَفيفَ شِواءٍ، أو قديرٍ مُعَجَّلِ (٣٢)

أَصاحِ، ترى برقاً أُريكَ وَميضَهُ كلَمْعِ اليَدَيْنِ، في حَبِيٍّ مُكَلَّلِ (٣٣)

يُضيءُ سَناهُ، أو مصابيحِ راهبٍ أمالَ السليطَ بالذُّبالِ المُفَتَّلِ (٣٤)

قَعَدتُ له وصُحْبَتي، بين ضارجٍ وبين العُذَيْبِ، بعدَ ما مُتَأَمَّلي (٣٥)

على قَطَنٍ، بالشَّيْمِ، أَيمنُ صوبِه، وأيسرُهُ على السِّتارِ، فيَذْبُلِ (٣٦)

فأضحى يَسُحُّ الماءَ فوق كُتَيْفَةٍ يَكُبُّ على الأذقانِ دوحَ الكَنَهْبُلِ (٣٧)

كأنَّ ثبيراً في عرانينِ وَبْلِهِ، كبيرُ أُناسٍ في بِجادٍ مُزَمَّلِ (٣٨)

هوامش

(١) توضح والمقراة: موضعان، وسقط اللوى بين المواضع الأربعة المذكورة.

(٢) لم يعفُ: لم يمّح - رسمها: أثرها - نسج الريحين: اختلافهما على الأثر، تستره الواحدة بالرمال فتكشفَه الأخرى.

(٣) وقوفاً: نصبها على الحال أي: قفا نبك في حا لوقف أصحابي مطيهم عليّ.

(٤) العَبْرَة: الدمعة - الدارس: الذي كاد يضمحلّ من الأثار - المعوّل: المبكي، المعتمد والمتّكل عليه - يقول: أن خلاصي مما بي من الهمّ يكون بذرف دمعة. ثم يستفهم استفهاماً انكارياً فيقول: ولكن ما نفع البكاء عند أثر مضمحل، أو لا معتمد يتّكل عليه الإنسان لدى هذا الأثر.

(٥) سمُرات: ج. سُمرة: شجرة من العضاه: شجر عظيم له شوك - الحنظل: نبات يمتدّ على الأرض كالبطيخ وما شاكل، وهو شديد المرارة - ناقفه: الذي يشق ثمرة فيستخرج بزره، فتدمع عيناه - شبّه نفسه، يوم فراقهم، بناقف الحنظل، نظراً لشدة بكائه.

(٦) المِحْمَل: حمالة السيف.

(٧) رُبَّ: تستعمل، في الأصل، للتقليل وكم للتكثير - دارة جُلْجل: موضع كان فيه غدير ماء، وفيه نحر الشاعر ناقته لبعض بنات العرب، كما يقول.

(٨) عقر البعيرَ: ضربه على رجليه ليسقط فينتحره - الكور: الرَّحْل - المتحمَّل: المحمول - يشير إلى أن العذارى حملن حوائجه ورحل مطيّته بعد أن نحرها لهُنَّ.

(٩) ظلَّ: في فعل كذا، إذا أتى عليه النهار وهو في عمله - الهِدّاب والهُدب: اسم لما استرسل من الشيء كالشعر والأشفار وأطراف الثوب - الدِمَقس: الحرير الأبيض.

(١٠) أفاطِمَ: الألف للنداء، وفاطم ترخيم فاطمة، وهي فاطمة بنت عبيد بن ثعلبة العامري - بعض: منصوب على المفعولية لأن مهلاً ينوب مناب «دَعْ» - أزمعتِ: قصدتِ، وطنت نفسك - الصُرم: الهجر والمصدر الصَّرم - أجملي: أحسِني.

(١١) أغرَّك: أحمَلك على الغِرّة: فعل من لم يجرّب بالأمور.

(١٢) الخليقة: الخُلق - تنسُل: تسقط، من نسل ريش الطائر: سقط - إن ساءك خلق من أخلاقي أو كرهت خصلة من خصالي، استخرجي قلبي من قلبك يفارقه.

(١٣) ذرفت: دمعت - أعشار: قطع الإناء المكسَّر، ولم يسمع بمفرد له - المُقَتَّل: المذلَّل - ما بكيتِ إلاّ لتَجرحي بعينيك قلباً مقطعاً مذلَّلاً.

(١٤) المُهَفْهَفَة: الخفيفة اللحم - المُفاضة: المسترخية البطن - الترائب: ج. التريبة: موضع القلادة من الصدر - السَّجَنْجَل: المرآة، وهي رومية معرَّبة في قول الشُرّاح.

(١٥) تصُدّ: تُعرض - تبدي: تظهر - أسيل: نعت الخد المستطيل الليِّن - الناظرة: أراد بها عينها - وجرة: موضع، أراد بوحش وجرة الظباء؛ شبّه عينها بعين الظبية المطفل: أي لها أطفال.

(١٦) الفتيت، والفتات: اسم لدقاق الشيء الحاصل بالفت - تنتطق: تشدّ النطاق، أي المئزر، على وسطها - التفضُّل: لبس الفِضلة هي ثواب واحد يلبس للخفة في العمل - يصف هذه المرأة بالدعة والنعمة وخفض العيش، فهي تنام إلى الضحى على فراش يتناثر عليه فتات المسك، فإذا نهضت لم تحتج إلى الائتزار للعمل لأن لها من يخدمها.

(١٧) اسبكرّت: امتدّت - الدرع: قميص تلبسه المرأة - المحوّل: قميص تلبسه الجارية الصغيرة، إشارة، بقوله بين درع ومحول، إلى أنها شابة ليست بصغيرة ولا كبيرة.

(١٨) تسلّى: نسي، زال حبُّهُ أو حزنه من قلبه - العمايات: ج. العماية: الجهالة - مُنسلٍ: منفعل من السلوَ أي النسيان.

(١٩) وليل: الواو واو رُبَّ - كموج البحر: يعني في هوله وكثافة ظلمته - السُّدُول: ج. سدل: الستر - وارخاؤهُ: إرسالهُ ومدُّهُ - ورُبَّ ليل يحاكي أمواج البحر في توحشهِ ونكارة أمره أرخى عليّ ستور ظلامه، مع أصناف همومه، ليختبر أمري، وينظر ما عندي من الصبر لشدائد الدهر.

(٢٠) تمطّى: تمدّد - الصّلب: عظم الظهر - أردف: اتبع - الأعجاز: ج. العَجُز: المؤخر - ناءَ: مقلوب نأى: بَعُد - الكلكل: الصدر - أراد وصف الليل بالطول فاستعار له صلباً، ثم تمطياً لأن التمطّي يزيد في طول الصلب، ثم بالغ في طوله بأن استعار لأوائل الليل كلكلاً ولأواخره إعجازاً يردف بعضها بعضاً، وتلخيص المعنى: قلت لليل حين مدّ ظهره، أي أفرط طوله وازدادت أواخره طولاً وبعدت أوائلُهُ... «ألا أيها الليل إلخ».

(٢١) الأمثل: الأفضل - قلت لليل: انجل بصبح، أي اكشف ظلامك بضياء الصبح. ثم قال: ولكن الصبح ليس بأفضل منك عندي، لأنّ هموم النهار عليّ ثقيلة كهموم الليل والياء في «انجلي» اشباع - قال الزوزني: لمّا ضجر بتطاول ليله، خاطبه وسأله الانكشاف، خطابهُ ما لا يعقل يدلُّ على فرط الوله والشدّة.

(٢٢) الأمراس: ج. المرس: الحبل - الصُّمّ: ج. الأصم: الصلب - الجندل: الصخرة الكبيرة - يقول مخاطباً الليل: يا عجباً من ليل طويل كأنّ نجومه شُدّت بحبال من الكتّان إلى صخور صلاب. استطال الشاعر الليل فقال إن نجوم هذا الليل لا تبرح من مكانها ولا تغرب، كأنها مشدودة بحبال متينة إلى صخور صلبة.

(٢٣) اغتدي: أذهب باكراً - وكنة الطير: عشهُ. الواو في قوله «والطير» للحال - الأوابد: الوحوش ج. آبدة - المنجرد: الفرس القصير الشعر - قيد الأوابد: ذو تقييد لها - الهيكل: الضخم - أني ربما باكرت الصيد، قبل نهوض الطير من مواضعها بفرس قصير الشعر يلحق الأوابد فيصير لها بمنزلة القيد.

(٢٤) مِكَرٌ: اسم مبالغة من الكَرّ: العطف على العدوّ. المِفرّ: اسم مبالغة من الفرّ: الرجوع - المقبل: الحسن الإقبال - المدبر: الحسن الأدبار: المتنحّي عن الموت - الجلمود: الحجر العظيم - من عل: من فوق.

(٢٥) المِسَحّ: اسم مبالغة من السحّ: الصبّ والدفع ـ السابح: من الخيل: الذي يمدُّ يديه في الجري كأنه يسبح في الماء ـ الونى: الفتور ـ الكديد: الأرض الصلبة المطمئنة ـ المركّل: الذي يُركل بالأرجل أي يوطأ بها ـ يجري هذا الفرس جرياً سهلاً كما يسحّ السحاب والمطر، إذا فترت الخيل السريعة، وأثارت الغبار بأرجلها من التعب.

(٢٦) الخف: الخفيف ـ الصهوة: مقعد الفارس من ظهر الفرس استعمل فيه الجمع للاتساع، ولا يخفى أن إضافته إلى ضمير المفرد تزيل اللبس ـ ألوى بالشيء: رمى به وأذهبه ـ العنيف: الثقيل الركوب ـ إن هذا الفرس، إذا ركبه الغلام الذي لم يكن جيد الفروسيّة يزلق عن ظهره لشدّة عدوه وفرط نشاطه في جريه، وإذا ركبه الرجل الماهر في الفروسيّة لم يتمالك أن يصلح ثيابه.

(٢٧) الدرير: السريع ـ الخذروف: لعبة تُعرف بالخرّارة يلعب بها الصبيان، وهي جُليدة مدوَّرة فيها خيطان موصلان كلما جذبهما الصبي بأصابعه دارت فسمع لها دويّ ـ أمرَّهُ: أحكم فتلَه ـ تتابع كفيهِ: متابعتهما ومواصلتهما ـ معنى البيت أن هذا الفرس بسرعة جريه يشبه دوران الخذروف إذا بالغ الصبي في فتله.

(٢٨) أيطل الظبي: خاصرته وكشحه ـ الارخاء: شدَّة عدو الذئب ـ التقريب: رفع الرجلين معاً ووضعهما موضع اليدين ـ التتفل: ولد الثعلب ـ شبّه خاصرتي الفرس بخاصرتي الظبي في دقتهما وضمرهما ثم شبّه شاقيه بساقي النعامة. ثم شبه عدوهُ بعدو الذئب، وتقريبه بتقريب الثعلب وهو أحسن الدوّاب تقريباً.

(٢٩) عنّ: ظهر ـ السِّرب: القطيع، والمقصود قطيع من بقر الوحش ـ نعاجُهُ: إناثُهُ ـ الدوار: حجر كان أهل الجاهلية يطوفون حوله كما يُطاف بالكعبة ـ الملاء: ج. الملاءة: الملحفة ـ المذيَّل: الطويل الذيل ـ ظهر لنا، إذ خرجنا إلى الصيد على هذا الفرس، قطيع من بقر الوحش تشبه إناثه بطول أذنابها وسبوغ شعرها أبكاراً يطفن حول دوار حال كونهنَّ في ملاحف طويلة الذيول.

(٣٠) الجواحر: المتخلفة ـ الصرَّة: الجماعة ـ التزيُّل: التفرُّق ـ إنّ هذا الفرس، عند ظهور الصيد، الحقنا، لشدَّة عدوه، بأوائل الوحش، وترك وراءه أواخرها مجتمعة لم تتفرق بعد، يريد أنه يدرك الأوائل، قبل تفرُّق جماعتها لشدَّة عدوه، وكأنه يريد أن القطيع كلّه خالصٌ له.

(٣١) عادى: عادى بين الصيدين عداءً: والى بينهما يصرع أحدهما على أثر الآخر ـ الدراك: المتابعة: وهو مصدر في موضع الحال أي مدركاً ـ النضوح بالماء: الابتلال بالعرق ـ إن الفرس أدرك القطيع، ووالى بين الثور والبقرة الوحشية في شوط واحد، ولم يعرق عرقاً مفرطاً يغسل جسده.

(٣٢) الطُهاة: ج. طاهٍ: من طهى اللحم؛ طبخُهُ ـ الصفيف: المصفوف على الحجارة ليشوى، ونصبه على أنه مفعول لمنضج ـ القدير: المطبوخ في القدر ـ المعجَّل: المطبوخ على عجلة ـ لكثرة الصيد صار الطبّاخون صنفين منهم من ينضج الصفيف أي يشوي اللحم المصفوف على الجمر، ومنهم من يطبخ في القدر على عجلة.

(٣٣) صاح: ترخيم صاحب ـ وميض البرق: لمعانه ـ لمع اليدين: تحرُّكهما ـ الحبي: السحاب المتراكم ـ المكلل: المستدير كالإكليل ـ هل ترى برقاً أريك لمعانه وتحرُّكه، في سحاب متراكم، كتحرُّك اليدين.

(٣٤) السَّنا: الضوء ـ السليط: الزيت ـ الذُّبال: ج. ذُبالة: الفتيلة ـ قال أكثر الشُّراح أن قوله: أمال السليط بالذُّبال من المقلوب وتقديره أمال الذُّبال بالسليط أي صبّه عليها ـ يقول أن تلألؤ هذا البرق وتحرُّكه يحكي تحرُّك اليدين وضوءه يحكي ضوء مصابيح راهب أمال فتائلها بصبِّ الزيت.

(٣٥) صحبتي: أصحابي ـ ضارج: ماء لبني عبس ـ العذيب: موضع قيل هو ماء لبني تميم. أي قعدت مع أصحابي بين هذين الموضعين ونحن ننظر من أين يجيء المطر ـ بعدما متأمّلي: بعد أصله بعد فاسكن العين للتخفيف وما زائدة أي بعد متأمّلي ويروى: بُعْد، كأنه منادى حذف حرف ندائه أي ما بُعد ما تأمّلتهُ، والمراد ما أبعد السحاب الذي كنتُ أنظر إليه.

(٣٦) قطن: بل في بلاد بني أسد ـ الستار ويذبل: جبلان مما يلي البحرين، بينهما وبين قطن مسافة بعيدة ـ الشيم: مصدر شام البرق: نظر إليه يترقَّب مطره ـ يقول إن جانب هذا السحاب الأيمن على جبل قطن وطرفه الأيسر على الستار ويذبل ـ وصف غزارة المطر وعموم جوده، وقوله: بالشيم تعلق بفعل محذوف أي أني أحكم بذلك حدساً وتقديراً، لأنه لا يرى هذه الجبال.

(٣٧) كُتيفة: موضع في اليَمَن ـ يكبُها: يقلبها على الرؤوس ـ الأذقان، هنا مستعارة وإنما يريد أعالي الشجر ـ الدوح: ج. الدوحة: كل شجرة كبيرة ـ والكنهْبُل ضرب من الشجر العظام ينبت في البادية وهو من نوع العضاه ـ أن هذا السحاب أضحى يصبُّ الماء فوق كتيفة. ويقتلع أشجار الكنهبل ويلقيها على وجوهها.

(٣٨) ثبير اسم جبل ـ عرانين: ج. عرنين: الأنف، مقدم الشيء، مستعارة هنا لأوائل المطر ـ الوبل: ج. الوابل: المطر العظيم القطر ـ البجاد: كساء مُخطط ـ مُزمَّل: ملتفّ ـ والقياس رفع لفظة «مُدمَّل» لأنها نعت كبير ـ معنى البيت تشبيه جبل ثبير وقد هطل عليه أول المطر فخطَّطه بما جرّه من الأعشاب وأغصاب الشجر والوحول، بسيد كبير في قومه يلبس كساء مخطَّطاً.

عنترة بن شدّاد

المعلقة

هَلْ غادَرَ الشُّعراءُ مِن مُتَرَدَّمِ! أمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ، بعدَ توهُّمِ![١]

يا دارَ عَبْلَةَ بالجِواءِ تكلَّمي، وعِمي صباحاً، دارَ عَبْلَةَ، واسْلَمي![٢]

وكأنَّما نَظَرَتْ بِعَيْنَيْ شادِنٍ رَشَاءٍ من الغِزْلانِ، ليس بِتَوأمِ؛[٣]

تُمسي وتُصبِحُ فوقَ ظَهْرِ حَشِيَّةٍ؛ وأبيتُ فوقَ سَرَاةِ أدْهَمَ مُلْجَمِ![٤]

إن تُغْدِفِي دُوني القِناعَ! فإنّني طبٌّ بأخْذِ الفارِسِ المُسْتَلْئِمِ![٥]

أثني عَليَّ بما علِمتِ، فإنّني سَهْلٌ مخالَقَتي، إذا لم أُظلَمِ،[٦]

فإذا ظُلِمْتُ، فإنَّ ظُلْمي باسِلٌ، مُرٌّ مَذَاقَتُهُ كطَعْمِ العَلْقَمِ![٧]

ولقد شَرِبتُ من المُدامَةِ، بَعْدَما رَكَدَ الهواجِرُ، بالمشُوفِ المُعْلَمِ،[٨]

بِزُجاجَةٍ صَفْراءَ، ذاتِ أسِرَّةٍ، قُرِنَتْ بأزْهَرَ، في الشمالِ، مُفَدَّمِ[٩]

فإذا شرِبْتُ، فإنّني مُسْتَهْلِكٌ مالي، وعرضي وافرٌ لم يُكْلَمِ؛[١٠]

وإذا صَحَوْتُ، فما أُقصِّرُ عن ندى؛ وكما عَلِمْتِ شمائلي وتكرُّمي![١١]

هَلاَّ سألْتِ الخَيلَ، يا ابنَةَ مالِكٍ، إنْ كنتِ جاهِلَةً، بما لم تَعْلَمي![١٢]

إذ لا أزالُ على رِحالَةِ سابِحٍ نَهْدٍ، تعاوَرُهُ الكُماةُ، مُكَلَّمِ،[١٣]

يُخْبِرْكِ من شَهِدَ الوقيعَةَ أنّني أغْشَى الوَغى، وأعِفُّ عِندَ المَغْنَمِ![١٤]

ومُدَجَّجٍ كَرِهَ الكُماةُ نِزالَهُ، لا مُمْعِنٍ هَرَباً، ولا مُسْتَسْلِمِ[١٥]

جادَت يَدايَ له بعاجِلِ طَعْنَةٍ بِمُثَقَّفٍ، صدقِ الكُعُوبِ، مُقَوَّمِ[١٦]

فَشَكَكْتُ بالرُّمحِ الأصَمِّ ثيابَه، ليس الكريمُ على القَنا بِمُحَرَّمِ![١٧]

فَتَرَكْتُهُ جَزَرَ السِّباعِ يَنُشْنَهُ، يَقْضَمْنَ حُسْنَ بَنانِهِ، والمِعْصَمِ،[١٨]

لما سَمِعْتُ نِداءَ مُرَّةَ قد علا، وابنَي ربيعَةَ في الغُبارِ الأقْتَمِ،[١٩]

أيقنتُ أن سيكونُ، عند لقائِهِم، ضَربٌ يُطيرُ عن الفراخِ الجُثَّمِ[٢٠]

لمَّا رأيتُ القومَ أقبلَ جَمْعُهُم يَتَذامرُونَ، كرَرتُ غيرَ مُذَمَّمِ[٢١]

يَدْعُونَ عَنْتَرَ، والرِّماحُ كأنَّها أشْطانُ بِئْرٍ في لَبانِ الأدْهَمِ[٢٢]

ما زِلْتُ أرميهم بثُغْرَةِ نَحْرِهِ، ولَبانِهِ، حتَّى تَسَرْبَلَ بالدَّمِ،[٢٣]

فازْوَرَّ من وَقْعِ القنا بلَبانِهِ، وشكا إليَّ بِعَبْرَةٍ وتَحَمْحُمِ![٢٤]

لو كان يَدري ما المُحاوَرَةُ، اشتَكى؛ ولكانَ، لو عَلِمَ الكلامَ مُكَلِّمي![٢٥]

ولقَدْ شَفى نفسي، وأبْرأ سُقْمَها، قيلُ الفوارِسِ: «وَيكَ، عَنْتَرَ، أقْدِمِ!»[٢٦]

والخيلُ تَقْتَحِمُ الخَبارَ، عَوابِساً، من بينِ شيْظَمَةٍ وأجرَدَ شَيْظَمِ[٢٧]

ولقد خَشيتُ بأنْ أموتَ ولم تَدُرْ للحَرْبِ دائرةٌ على ابنَي ضَمْضَمِ[٢٨]

هوامش

(١) المتردَّم: المحلّ الذي يُرقع ويصلح. والاستفهام إنكاري معناه: لم يترك الشعراء شيئاً يُرقع ويُصلح، يريد أنهم لم يتركوا فنًا من الشعر إلاّ طرقوه ـ ثم أردف سائلاً نفسه: هل عرفت تلك الدار بعد طول العهد بها؟ يريد دار محبوبته عبلة، كما يُصرّح في الأبيات التالية. وقد أنكر بعض الأدباء كون البيت مطلع المعلقة.

(٢) الجواء: بلد في نجد.

(٣) نظرت: الضمير لعبلة ـ الشادن: ولد الظبية ـ الرشأ: ولد الظبية، إذا قوي ركض مع أمه ـ ليس بتوأم: أراد أن هذا الغزال ولد فرداً فاستقل وحده بلبن أمه، دلالة على سمنه وقوّته ـ وقد ورد في شرح الزوزني والتبريزي، بدل هذا البيت، البيت التالي:

إذْ تَسْتَبيكَ بذي غروب واضح عذبٍ مُقَبَّلُهُ لذيذِ المطعم

(٤) تُمسي وتصبح: الضمير لعبلة ـ الحَشيّة: المسند يحشى بقطن أو صَوف ـ السراة: أعلى الظهر ـ أدهم: أسود، صفة للفرس المحذوف.

(٥) أغدف: الستر: أرخاه ـ طبّ: حاذق ـ المستلئم: لابس اللأمة ـ الدرع ـ يخاطب عبلة فيقول: لم ترخين قناعك فتسترين وجهك عني؟ ألست البطل الشديد الحاذق بأخذ الأبطال المتدرعين فأحميك من السبي؟ وقيل بل أراد: إذا لم أعجز عن صيد الفرسان المتدرّعين فكيف أعجز عن صيدك.

(٦) المخالقة: المفاعلة من الخلق: أي المعاملة مع الناس والمخالطة. وروى الزوزني: سمح مخالفتي. وفي رواية أخرى: سمح مخالطتي ـ المعنى تابع لمعنى البيت السابق: إذا رآك الناس قد سترت وجهك دوني، توهموا أنك قد استقللتني واحتقرتني، وأنا مستحقٌ لخلاف هذا منك. فاثني عليَّ بما عرفت من حسن أخلاق، فإني سهل المعاشرة إذا لم يظلمني أحد.

(٧) المعنى: إذا ظلمت وهُضم حقّي، وجد ظلمي باسلاً أي كريهاً مرًّا كالعلقم وهو نبات ضُرب المثل بمرارته. يريد: أني أعاقب من يظلمني عقاباً بالغاً يكرهه كما يكره طعم العلقم من ذاقه.

(٨) المُدامة: الخمرة ـ ركد: سكن ـ الهواجر: ج. هاجرة: أشدّ أوقات النهار حرًّا، الظهيرة ـ المشوف: المَجلوّ، صفة الدينار المحذوف ـ المُعْلَّم: الذي فيه كتابة، المنقوش ـ شربت خمرة جيدة غالية الثمن اشتريتها بالدينار المجلوّ الذي عليه كتابةٌ، وذلك بعد اشتداد حرّ الظهيرة، أي بعد أن سكنت حرارة الشمس.

(٩) بزجاجة: متعلّق بشربت ـ ذات أسرة: ذات طرائق وخطوط، أي مُخطَّطة ـ قرنت بأزهر: أي جعلت إلى جنب إبريق أزهر: أبيض، مشرق اللون، أراد أنه من فضة ـ مفدَّم: عليه الفِدام: المصفاة ـ أراد أنه يصبّ الخمر المصفَّاة من ذاك الإبريق الأبيض في كأسه المخطَّطة.

(١٠) العرض: موضع المدح والذم من الإنسان ـ وافر: تامّ ـ لم يُكلم: أي لم يؤثر به ذمّ، لم يجرح.

(١١) فما أقصّر: وفي شرح الزوزني: فلا أقصّر ـ الشمائل: الأخلاق ـ وصف في البيت الأول إنه، إذا سكر، يكثر من العطايا حتى أنه يستهلك ماله، ثم استدرك قائلاً: أما عرضه فيظلّ تاماً لم ينثلم. لئلا يظن السامع أنه يستهلك عرضه، أي شرفه. أيضاً في حالة السكر، كما قد يفعل

بعض شرّاب الخمر. ثم استدرك على كل ذلك أيضاً في البيت الثاني قائلاً: أنه يظلّ على كرمه وحسن أخلاقه المعروفة في حال صحوه. وهذا لئلا يسبق إلى ذهن السامع أن ذاك الكرم قد يكون من مفعول السكر، فيتركه الشاعر إذا ما صحا.

(١٢) هلاَّ: أداة تحضيض، وجمهور النحاة على أنها إذا دخلت الماضي كانت للوم خصوصاً - ابنة مالك: عبلة ابنة عمه - إن كنت كاهلة بما لم تعلمي: أول ما يتبادر إلى الذهن أن لا فائدة من قوله: «بما لم تعلمي» إذ ليس أحد إلا وهو يجهل ما لم يعلمه. على أن التبريزي أجاب قائلاً: «إن في البيت تقديماً وتأخيراً، والمعنى: هلاّ سألت الخيل بما لم تعلمي، يا ابنة مالك، إن كنت جاهلة! وقوله: بما لم تعلمي يريد: عمّا لم تعلمي. والباء بمعنى عن».

(١٣) الرحالة: سرج كان يعمل من جلود الشاء بأصوافها يُتّخذ للجري الشديد - السابح: الذي يدعو بيديه فيسرع في جريه، صفة للفرس المحذوف - النهد: الغليظ - تعاوره: تتعاوره: تتناوبه أي يطعنه هذا مرة وهذا مرة - الكماة: ج. كميّ: البطل الشاكي السلاح - مكلّم: مجرّح.

(١٤) شهد: حضر - الوقيعة: الوقعة، المعركة - أغشى: أقتحم - الوغى: صوت المقاتلة وجلبة أهل الحرب، أراد به المعركة - أعفّ: أترفّع. هذا البيت جواب هلاّ - يقول: أن سألت الأبطال أخبروك أني أخوض المعمعة، ولكني أتراجع عند اقتسام الغنائم، فأترك نصيبي للناس.

(١٥) المدجّج: الذي استتر كله بالسلاح - لا ممعن: أي لا هو يهرب ولا يستسلم فيُؤسر، ولكنه يقاتل. والبيت وصف لشجاعة ذاك البطل التّام الذي تخاف الأبطال نزاله لشدّة بأسه.

(١٦) جادت يداي . . . : وفي شرح الزوزني: «جادت له كفّي بعاجل طعنة» - المثقف: صفة الرمح المقوّم بالثِقاف - صدْق: صلب: الكعوب: عقد الأنابيب في قناة الرمح.

(١٧) الأصمّ: الصلب - فشككت . . . : أراد نظمتُ ثيابه بالرمح أي أنفذته من جسمه وثيابه كلّها. ثم أردف ذلك بإرسال المثل: إن الكريم لا يمنعه كرمه من أن يقتل.

(١٨) الجزَر: ج. جَزَرَة: الشاة أو الناقة التي أُعدّت للذبح - يَنُشْنَه: يتناولنه - يقضَمن: من الضم: أكل الشيء اليابس بالأضراس - المعصم: موضع السوار من الزند. وروى التبريزي الشطر الثاني على الصورة الآتية: ما بين قلّة رأسه والمعصم.

(١٩) الأقتم: المسودّ.

(٢٠) يطير . . . : مفعوله محذوف تقديره الهام. وقد شبّه ما حول الهام بالفراخ - وهذهْ الأبيات الثلاثة لم يروها الزوزني.

(٢١) القوم: أراد بهم قومه، كما يدلّ عليه البيت التالي - يتذامرون: يحرّض بعضهم بعضاً - مذمَّم: مذموم - المعنى متصل بما تقدَّم: أي ظللت في مكاني تجاه العدو، اسمع جلبة الحرب وأتوقَّع شرّ المعارك، حتى سمعت قومي تقدَّموا يحرّض بعضهم بعضاً، فهجمت، وأنا محمود القتال غير ملوم فيه.

(٢٢) يدعون: الضمير لقومه - أشطان: ج. شطن: حبل البئر - اللبان: صدر الحصان - الأدعم: الأسود، صفة فرسه - ويروى بعد هذا البيت ثلاثة أبيات وهي:

يدعون عنتر، والسيوف كأنّها ... لمع البوارق في سحاب مظلم:

يدعون عنتر، والسهام كأنها طشّ الجراد على مشارع حوّم؛
يدعون عنتر، والدروع كأنه حدق الضفادع في غدير ديجم
وهي غير واردة في شرح الزوني، ولا في شرح التبريزي، ولم يذكرها أحد من ثقات الرواة.
(٢٣) الثغرة: نقرة النحر، وفي شحر التبريزي: بغرّة وجهه - حتى تسربل . . . : أي حتى صار الدم له بمنزلة السربال، فعمّ جسده.
(٢٤) أزورّ: مال - العبرة: الدمعة - التحمحم: صوت الفرس المتقطع الذي يشبه الحنين. .
(٢٥) المحاورة: المراجعة في الحديث، المخاطبة - يقول: أمال فرسي رأسه نحوي، لكثرة ما ناله من رماح الأعداء في صدره، ودمعت عينه وحمحم كأنّه يطلب مني أن أرقّ له، وهو، ولو كان يعلم الكلام، لأفصح بالشكوى، وهو تمثيل بديع لحالة الفرس ارتفع به إلى درجة الإنسان.
(٢٦) قيل: بمعنى قول - يريد أن تعويل رجاله عليه، والتجاءهم إليه، نفى عنه غمّهُ، فشفى نفسه.
(٢٧) الخبار: الأرض الليّنة - الشيظم: الطويل من الخيل - الأجرد: القليل الشعر - يريد أن ذلك كان وقت كانت تجري خيلنا الطويلة، القليلة الشعر، الكالحة الوجوه، في أرض رخوة تغوص فيها قوائمها، فتسير بصعوبة.
ويذكر الرواة عادة بعد هذا البيت بيتاً في وصف إبل الشاعر، وأنها مذلّلة منقادة، ولم نر علاقة بينه وبين ما تقدّم، فأسقطنا من المتن، وهو:
ذُلُلٌ ركابي حيثُ شئتُ، مشايعي لُبّي، وأحفِزُهُ بأمر مبرمَ
هذا، وأن في «جمهرة أشعار العرب» لأبي زيد القرشي، اختلافاً في رواية أكثر أبيات المعلقة، ولا سيما القسم الأخير منها، مع تقديم وتأخير، فلم نر فائدة في الإشارة إلى شيء من ذلك لشهرة روايات الزوزني والتبريزي والأنباري التي استندنا إليها، فضلاً عن أن تلك الاختلافات ثنوية قد تفيد دارسي النصوص بالبحث والمقابلة، ولكن ليس تحتها كبير أمر في ما نحن فيه من إفادة الأدباء ليس غير.
(٢٨) ولم تَدُرْ: ويروى: ولم تكن - ابنا ضمضم: هما هرم وحصين المريّان. وقد مرّ ذكر حصين في البيت ٣٧ من معلقة زهير بن أبي سلمى. وكان عنترة قد قتل باهما في يوم المُرَيقب، في حرب داحس والغبراء، فكانا يضمران له الشرّ، كما ذكر في البيت التالي، يقول: أخاف أن أموت قبل أن تنزل نوائب الحرب بابني ضمضم، أي قبل أن أقلتهما، وذلك لئلا يشمتا بموتي.
(٢٩) تنظرون: تنتظرون - رهط وردة: بنو مالك بن ضبيعة. يقول لأعمامه إن صغر الأولاد وبعد أهل أمّه جرّاهم على الظلم، ثم توعّدهم في البيت الثاني.
(٣٠) حيّا وائل: بكر وتغلب. يشير إلى حرب البسوس إقراراً لما أورده في البيت السابق.
(٣١) المبيّن: الظاهر - الآجن: الماء المتغيّر، المنتن - الذعاف: السم - يُقشَب: يُخلط.
(٣٢) القراف: المقاربة. إن مؤالفة من لا يستفيق من الشر تُعدي كما يعدي الأجرب من الإبل الصحيح.
(٣٣) المعطب: الهلاك.
(٣٤) سيغولني: سيهلكني - أشعبوا: فارقوا.

طرفة بن العبد

المعَلقة

لِـخَـوْلَـةَ أطْـلالٌ بِـبُـرْقَـةِ ثَـهْـمَـدِ   تَلوحُ كباقي الوَشْمِ في ظاهرِ اليدِ[1]

وقوفاً بها صَحْبي عليَّ مَطيَّهُمْ،   يقولون: «لا تَهْلكْ أسىً، وتَجَلَّدِ!»[2]،

كأنَّ حُدوجَ المالِكيَّةِ، غُدْوَةً،   خلايا سَفينٍ، بالنَّواصِفِ من دَدِ[3]،

وإنّي لأُمْضي الهَمَّ، عند احتِضَارِه،   بعَوجاءَ مِرْقَالٍ تروحُ وتَغْتَدي[4]،

لها فَخِذَانِ أُكمِلَ النَّحْضُ فيهما،   كأنَّهما بابا مُنيفٍ مُمَرَّدِ[5]،

لها مِرْفَقان أفْتَلانِ، كأنَّما   تُمِرُّ بِسَلْمَيْ دالِجٍ مُتَشَدِّدِ[6]،

كقَنْطَرَةِ الرُّوميْ أقْسَمَ رَبُّها: لَتُكْتَنَفَنْ، حتَّى تُشادَ، بقَرْمَدِ[7]؛

على مثلها أمضي، إذا قال صاحبي: ألا ليتَني أفديكَ منها، وافتدي[8]،

إذا القوم قالوا: «من فتًى؟» خلت أنني   عُنيتُ، فلم اكسلْ، ولم اتبلَّدِ،

ولَسْتُ بِحَلاَّلِ التِلاعِ مَخَافَةً؛   ولكنْ متى يَسْتَرفِدِ القومُ أرفِدِ[9]؛

وإنْ تَبْغِني في حَلْقَةِ القَومِ، تَلْقَني،   وإن تَقْتَنِصْني في الحوانيتِ تَصْطَدِ[10]،

وإن يَلتَقِ الحَيُّ الجميعُ، تُلاقِني   إلى ذِرْوَةِ البَيتِ الكريمِ المُصَمَّدِ[11]

نَدَامايَ بيضٌ كالنُّجوم، وقَيْنَةٌ   تروحُ إلينا بين بُردٍ ومُجْسَدِ[12]،

إذا نحنُ قُلنا: «أسْمِعينا!» انْبرَتْ لَنا،   على رِسْلِهَا، مطروفةً لم تشدَّدِ[13]،

إذا رَجَّعَتْ في صوتِها، خِلْتَ صوتَها   تَجَاوُبَ أظْآرٍ على رُبَعٍ ردي[14]

وما زالَ تَشْرابي الخُمورَ، ولَذَّتي،   وبَيْعي وإنْفاقي طَريفي ومُتْلَدِي[15]،

إلى أنْ تَحامَتْني العَشيرةُ كُلُّها،   وأُفرِدْتُ إفرادَ البَعيرِ المُعَبَّدِ[16]،

ألا أيُّهاذا اللائِمي أشْهَدَ الوَغى،   أن أحْضُرَ اللذَّاتِ، هل أنتَ مُخلِدي[17]؟

فإنْ كنتَ لا تَسْتطيعُ دَفْعَ مَنِيَّتي،   فدَعْني أُبادِرْها بما مَلَكَتْ يَدي[18]؛

فَلَولا ثَلاثٌ هُنَّ من لَذَّةِ الفتى، وَجَدِّكَ، لم أَحْفِلْ متى قام عُوَّدي[١٩]

فمنهُنَّ سَبْقي العاذِلاتِ بَشَرْبَةٍ كُمَيْتٍ، متى ما تُعْلَ بالماءِ تُزْبِدِ[٢٠]،

وكَرِّي - إذا نادى المُضافُ - مُحَنَّباً كَسيدِ الغَضا، نَبَّهْتَهُ، المُتَوَرِّدِ[٢١]،

وتَقصيرُ يومِ الدَّجْنِ، والدَّجْنُ مُعْجِبٌ، بِبَهْكَنَةٍ تحتَ الخِباءِ المُعَمَّدِ[٢٢]

كَريمٌ يُرَوِّي نَفْسَهُ في حياتِهِ، مَخَافَةَ شُرْبٍ، في الممات، مُصَرَّدِ[٢٣]،

فَذَرْني أُرَوِّي هامتي في حياتها؛ ستَعْلَمُ، إن متنا، صَدَى أيِّنا الصَّدِي[٢٤]!

لَعَمْرُكَ، إنَّ الموتَ، ما أَخْطَأَ الفتى، لَكَالطِّوَلِ المُرْخَى، وثِنْياهُ باليدِ[٢٥]!

أرَى قَبْرَ نَحَّامٍ بَخيلٍ بمالِهِ كَقَبْرِ غَوِيٍّ في البَطالَةِ مُفْسِدِ[٢٦]

أرى المَوْتَ يَعْتَامُ الكِرَامَ، ويَصْطَفي عَقيلَةَ مالِ الفاحِشِ المُتَشَدِّدِ[٢٧]،

أرى الموتَ أعْدَادَ النُّفوسِ، ولا أرى بعيداً غداً. ما أقربَ اليومَ من غدِ[٢٨]!

أرى العيشَ كَنْزاً ناقِصاً، كُلَّ لَيْلَةٍ، وما تَنْقُصِ الأيامُ والدهرُ يَنْفَدِ[٢٩]!

وظُلْمُ ذوي القُرْبى أَشَدُّ مَضاضَةً على المرءِ من وَقْعِ الحُسامِ المُهَنَّدِ[٣٠]!

فَلَو شاءَ رَبِّي، كنتُ قَيْسَ بن خالدٍ؛ ولو شاءَ رَبِّي، كنتُ عَمْرو بنَ مَرْثَدِ[٣١]؛

أنا الرَّجُلُ الضَّرْبُ الذي تَعْرِفُونَهُ، خَشاشٌ كرأسِ الحَيَّةِ المُتَوَقِّدِ[٣٢]

فإن مُتُّ، فانْعَيْني بما أنا أهلُه، وشُقِّي عَلَيَّ الجَيبَ، يا ابْنَةَ مَعْبَدِ[٣٣]!

لَعَمْرُكَ، ما أمري عليَّ بِغُمَّةٍ، نهاري، ولا لَيلي عليَّ بسَرْمَدِ[٣٤]!

سَتُبْدِي لَكَ الأيامُ ما كُنْتَ جاهلاً! ويأتيكَ بالأخبارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ[٣٥]!

ويأتيكَ بالأخبارِ مَنْ لم تَبِعْ له بَتَاتاً، ولم تضربْ له يومَ موعِدِ[٣٦]!!

هوامش

(١) خولة: امرأة من بني مالك بن ضُبيعة ـ البُرقة: أرض فيها حجارة وطين ـ ثُهْمد: مكان لبني دارم في نجد ـ الوشم: طريقة يُزيَّن بها جلد الأيدي والسواعد والصدر وبعض أقسام الوجه، وذلك بأن تُغرز إبرة في الجلد ثم تُحشى المغارز بالإثمد أو غيره من الأكحال. وتُسمَّى النقوش أيضاً بالوشم، جمعه الوشوم.

(٢) وقوفاً: نصبها على الحال ـ المَطيّ: ج. المطيّة: اسم جامع لكل ما يُمتطى: يُركب ـ تجلّد، من التجلُّد: تكلّف الجلادة، التصبُّر ـ وقد ورد البيت نفسه في معلقة امرىء القيس (٣) على الصورة ذاتها ما عدا الكلمة الأخيرة فأتت: وتجمَّل!.

(٣) حدوج: ج. حِدْج: مركب النساء على الجمل، ومثله الحِداجة ج. حدائج ـ المالكية: نسبة إلى بني مالك، وهي خولة ـ خلايا: ج. خليَّة: السفينة العظيمة ـ سفين: ج. سفينة ـ النواصف: ج. الناصفة: أماكن تتسع من الأودية كالطرق، مجاري الماء إلى الأودية ـ دد: وادٍ في الطريق من البصرة إلى البحرين؛ وإن كان النواصف اسم مكان في عمان، كما يقول ياقوت، يصبح قسماً من هذا الوادي.

(٤) الاحتضار: الحضور ـ العوجاء: صفة للناقة الضامرة والنشيطة ـ المِرْقال: مبالغة من الإرقال وهو نوع من الركض يكون بأن تسير الناقة نافضة رأسها ـ تروح وتغتدي: أي تصل سير الليل بسير النهار ـ يقول: إذا أدركني الهمّ تخلّصت منه بالسفر على هذه الناقة.

(٥) النّحض: اللحم ـ مُنيف: صفة للقصر المحذوف، عالٍ، مشرف ـ ممرَّد: مملّس، وفي رواية الشنتمري «ممدد» ـ المعنى: لهذه الناقة فخذان اكتنز لحمهما فشابها مصراعي باب قصر عال مملّس.

(٦) افتلان: قويّان شديدان ـ تمر: في رواية الشنتمري: أُمرا ـ سَلْمَي: مثنى سَلْم: الدلو ذات العروة الواحدة ـ الدالج: ناقل الماء الذي يملأ الدلو من البشر فيفرغها في الحوض، ونعته بالمتشدّد أي القوي لأنه يباعد بين عضديه كي يبعد الدلوين عن ثيابه ـ شبَّه بُعد مرفقي الناقة عن جنبيها، وذلك صفة حسنة في النوق، ببعد هاتين الدلوين عن جنبي حاملهما.

(٧) لَتُكْتَنَفَن: أي لتُبنى من أكنافها: نواحيها ـ تُشاد: ترتفع أو تُطلى بالشيد وهو الجصّ ـ شبَّه الناقة في علوها وشدّة خلقها بقنطرة لرجل رومي يبني نواحيها بالقرمد حتى تصبح عالية متينة ويقول الشنتمري: «خصّ الرومي لأنه أحكم عملاً»!.

(٨) منها: الضمير للفلاة المقفرة. ـ المعنى: أني أسافر على مثل هذه الناقة، إذا دخلنا فلاةً مقفرة فخاف صاحبي وقال: نحن هالكون ليتنا نفتدى.

(٩) حلاّل: مبالغة من الحلول: النزول بالمكان. وفي رواية: بمحلال ـ التلاع: ج. تَلْعَة: مجرى الماء في الوادي أو قرار الأرض ـ يسترفد: يطلب الرفد: الإعانة ـ المعنى: لا أنزل في الأماكن المنخفضة خوفاً من أن يراني الأضياف، ولكني أعين كل من يطلب معونتي.

(١٠) الحوانيت: بيوت الخمّارين، ذكرنا هذا البيت وفقاً لرواية الشنتمري، أما الزوزني فيروي: «وأن تلتمسني في الحوانيت تصطد» ولعل الأولى أصوب لما فيها من الموافقة بين «تقتنصني» و «تصطد».

(١١) المصمَّد: الذي يصمد إليه الناس لشرفه أي يقصدونه في حوائجهم.

(١٢) بيض كالنجوم: أي أحرار مشهورون، وقد يكون وصفهم بالبياض لنقائهم من العيوب لأن الأبيض يكون نقياً من الدرن والوسخ - إلينا: وفي رواية: علينا - المُجْسَد: الثوب المصبوغ بالجساد: الزعفران.

(١٣) على رسلها: على مهلها - مطروفة: فاترة النظر - لم تشدَّد: لم تجتهد، أي أنها تغنّي عفواً دون تكلُّف.

(١٤) أظآر: ج. ظئر: التي لها ولد - رُبَع: فصيل الناقة المولود في الربيع - ردي: هالك - يقول: إذا طرّبت هذه المغنية في صوتها خلته أصوات نوق تتجاوب، إذ ترى أحد أولادها هالكاً.

(١٥) التشراب: الشرب الكثير - الطريف: المال المستحدث - المُتلد: المال الموروث.

(١٦) تحامتني: تجنَّبتني - المُعَبَّدِ: المطلي بالقطران، دلالةً على أنه مصاب بالجرب؛ وهو يُبْعَد ويعزل لئلا يعدي صحاح الإبل.

(١٧) أشهد: يجوز فيها الرفع والنصب بأن مضمرة.

(١٨) تسطيع: تستطيع - الموت لا بدّ منه، ولا معنى للبخل بالمال وترك الملذات.

(١٩) وجدّك: الواو للقسم - العُود: ج. العائد. الزائر في المرض - متى قام عوَّدي: متى ذهبوا يائسين من حياتي، أي متى متّ.

(٢٠) سبقي العاذلات: أي شربي الخمر باكراً قبل أن ينتبهن - كُميت: الأحمر الضارب إلى السواد - متى ما تُعْل...: أي متى صبّ عليها الماء علاها حباب.

(٢١) كرّي: عطفي - المضاف: المُلجأ - مُحنَّباً: صفة للفرس المحذوف: الذي في يده انحناء، وهو مفعول به من كرّي. و «إذا نادى المضاف» جملة اعتراضية - السيد: الذئب - الغضا: شجر خصّ الذئب به لأنه يكون أخبث الذئاب - المتورّد: نعت الذئب: الذي يطلب الورد: الشرب - المعنى: إن الخصلة الثانية في لذة الفتى هي أن أسرع إلى نجدة الملتجىء إليّ، إذا ناداني، فاعطف عليه فرساً في يده انحناء يعدو عدو ذئب يسكن بين الغضا، إذا نبّهته، وهو يريد الماء.

(٢٢) يوم الدّجن: اليوم يكون فيه غيم وندى وبعض المطر. ويكون تقصيره بأن يلهو فيه الإنسان، فيظهر قصيراً - البهكنة: المرأة الحسنة الخلف - الخباء: المضرب - المعمَّد: المرفوع بالعمد - والخصلة الثالثة هي أن أحادث امرأة حسنة الخلق في بيت مرتفع بالعمد، إذا أصبحت في يوم غائم لا يمكنني فيه الخروج.

(٢٣) - (٢٤) في الروايات بعض الخلاف، في ما يتعلق بهذين البيتين، فقد أورد الزوزني بيتاً واحداً على هذا الشكل:

كريمٌ يروّي نفسه في حياته ستعلم، إن متنا، غداً، أيّنا الصدي.

= أما الذين يروون البيتين فيجعلون صدر الأول إلى عجز الثاني، وصدر الثاني إلى عجز الأول، وقد يقدّمون أحدهما على الآخر.
أما المعنى فهو: إني كريم أشفي نفسي وأروّيها من الخمر خوفاً من أن يكون شربي مصرّداً أي مقطوعاً قبل الريّ بالممات. ثم يشير في البيت التالي إلى خرافة قديمة عند العرب مفادها أن طائراً اسمه الصدى أو الهامة يخرج من رأس القتيل ولا يزال يصيح: «اسقوني! اسقوني» حتى يؤخذ بثأره ولهذا سمّي «صدى»، من الصدى بمعنى العطش، يقول: دعني أروي بالخمر هذه الهامة، أو هذا الطائر، فستعلم، إذا متنا، صدى أيّ واحد منّا يكون أشدّ عطشاً.

(٢٥) ما: مصدرية زمانية، أراد: إن الموت مدة أخطائه الفتى - الطول: الحبل يطوّل للدابة فترعى، وهي مربوطة به - ثنياه: طرفاه... يقول: أقسم بحياتك أن الموت، في مدة مجاوزته الفتى، بمنزلة حبل يطوّل للدابة ترعى فيه وطرفاه بيد صاحبه. شبّه الأجل بالحبل والفتى بالدابة التي لا تفلت منه.

(٢٦) النحّام: البخيل الذي يتنحنح إذا سئل - الغوي: المبذّر لماله، الضالّ - المعنى: لا فرق، بعد الموت، بين قبر الشحيح الحريص على ماله وقبر الكريم يجود به في سبيل غوايته وملاهيه.

(٢٧) يعتام: يختار - عقيلة كل شيء: أنفسه - الفاحش: البخيل - الموت يعمّ الأجواد والبخلاء.

(٢٨) الأعداد: ج. العِدّ: الماء الكثير المورود - المعنى: كل نفس لا بد لها من ورود الموت؛ فإن لم تمت في يومها فستموت في غدها، فأجلها، وإن تأخر إلى الغد، فهو قريب، لقرب يومها من الغد.

(٢٩) العيش: وفي رواية الشنتمري: المال.

(٣٠) المضاضة: الحرقة والتأثر.

(٣١) قيس بن خالد: المسمّى أيضاً: «ذا الجدّين» من شرفاء بني شيبان بكر. وفي رواية الزوزني: قيس بن عاصم وهو خطأ، لأن هذا تميمي عاش في عصر النبي - عمرو بن مرْثد: من أقرباء طرفة. والرجلان مشهوران بكثرة المال ونجابة الأولاد.

(٣٢) الضرب: الخفيف اللحم - الخشاش: الدخّال في الأمور لخفته وسرعته.

(٣٣) ابنة معبد: هي ابنة أخيه.

(٣٤) الغُمّة: الغم، الأمر المبهم الذي لا يهتدى له - المعنى أنه لا يتردّد في قضاء أموره بالنهار، ومن ثمّ لا يشغل باله في الليل، فيمتنع عليه النوم.

(٣٥) من لم تزوّد: من لم تعطه زوّادة، أي مؤونة الطريق، ليبحث لك عن الأخبار.

(٣٦) لم تبع له: أي لم تشتر له - البتات: كساء المسافر والبيت على نحو البيت السابق.

زهير بن أبي سلمى

المعَلقة

أَمِـن أُمّ أَوفـى دِمـنَـةٌ لـم تَـكَـلَّـمِ بحَومانة الدَّرّاجِ، فالمتثَلَّمِ[1]،

ودارٌ لـها بـالـرَّقْـمَـتَـيـنِ، كـأنَّـها مراجيعُ وَشْمٍ في نواشِرِ مِعْصَمِ[2]،

وقفتُ بها، مِن بعدِ عِشرين حِجَّةً، فلأياً عرفتُ الدارَ بعد توهُّمِ[3]؛

فلمّا عرفتُ الدارَ، قلتُ لِرَبْعها: «ألا انعِمْ صباحاً، أيها الرَّبعُ، واسلمِ!»[4]

سعى ساعياً غَيْظِ بن مُرّةَ، بعدما تَبزَّل ما بين العَشيرةِ بالدَّمِ[5]

فأقسمتُ بالبيتِ الذي طافَ حولَه رجالٌ بَنَوْه، من قُريش وجُرهُمِ[6]،

يميناً، لَنِعْمَ السيّدانِ وُجدتما على كلِّ حالٍ من سَحيلٍ ومُبْرَمِ[7]!

تداركتُما عَبساً وذُبيانَ، بعدما تفانَوا، ودَقُّوا بينَهم عِطرَ مَنْشَمِ[8]

ألا أبلِغ الأحلافَ عني رسالةً وذُبيانَ: «هلْ أقسَمتُمُ كلَّ مُقسَمِ[9]؟

فلا تَكْتُمُنَّ اللهَ ما في صدوركم ليَخفى، ومهما يُكتَمِ اللّهُ يَعلَمِ!

يُؤَخَّرْ فيوضَعْ في كِتابٍ، فيُدَّخَرْ ليومِ الحسابِ، أو يُعجَّلْ فيُنقمِ!»[10]

وما الحَربُ إلا ما عَلِمتُمْ، وذُقتُمُ وما هو عنها بالحديثِ المُرَجَّمِ[11]

متى تَبْعَثوها، تَبْعَثوها ذَميمةً؛ وتَضْرَ، إذا ضَرَّيتُموها، فتَضْرَمِ[12]،

فتَعْرُكْكُمُ عَرْكَ الرَّحى بِثِفالِها، وتلقَحْ كِشافاً، ثمَّ تُنتَجْ، فتُتْئِمِ[13]،

سَئِمتُ تكاليفَ الحياةِ؛ ومن يَعِشْ ثمانينَ حولاً، لا أبَا لكَ!، يسأَمِ[14]!

وأعلمُ ما في اليوم، والأمسِ قبلَه، ولكنني عن عِلمِ ما في غدٍ عمي[15]!

رأيتُ المنايا خَبْطَ عَشْواءَ من تُصِبْ تُمِتْهُ، ومن تُخطىءْ يُعمَّر فيهرَمِ[16]

ومَن لا يُصانِعْ في أمورٍ كثيرةٍ يُضَرَّسْ بأنيابٍ، ويوطأْ بمَنْسِمِ[17]

ومن يجعلِ المعروفَ من دونِ عِرْضِهِ يَفِرْهُ؛ ومن لا يتَّقِ الشتمَ يُشتَمِ[18]

ومن يكُ ذا فضل، فيَبْخَل بِفَضلِهِ   على قومه، يُستغنَ عنه ويُذمَمِ

ومن يُوفِ لا يُذمَمْ؛ ومن يُهدَ قلبُه   إلى مُطمَئِنِّ البِرِّ لا يَتَجَمْجَمِ(١٩)

ومن هاب أسبابَ المنايا يَنَلْنَه،   وإن يرقَ أسبابَ السماءِ بِسُلَّمِ(٢٠)!

ومن يَجعلِ المعروفَ في غير أهلِهِ   يَكُنْ حمدُه ذَمّاً عليه، ويَنْدَمِ(٢١)

ومَن يَغصِ أطرافَ الزجاج، فإنَّه   يطيعُ العوالي رُكِبت كلَّ لهذَمِ(٢٢)

ومن لا يَذُذْ عن حوضِهِ بِسلاحه   يُهدَّم؛ ومن لا يَظلِمِ الناس يُظلَمِ(٢٣)!

ومن يَغترِبْ يَحسَبْ عَدوًّا صديقَه؛   ومن لا يُكرِّمْ نفسه لا يُكرَّمِ(٢٤)!

ومهما تكُنْ عند امرىء من خَلِيقةٍ   وإنْ خالها تخفى على الناسِ، تُعلَمِ(٢٥)

لسانُ الفتى نِصفٌ، ونِصفٌ فؤادُهُ؛   فلم يبقَ ألاّ صورةُ اللحمِ والدمِ(٢٦)!

وإن سَفاهَ الشيخِ لا حِلمَ بعده،   وإنّ الفتى، بعد السَفاهَةِ، يحلُمِ(٢٧)!

سألنا فأعطيتُم، وعُدنا فعُدتُم؛   ومن أكثر التَسآلَ يوماً سيُحرَمِ(٢٨)!

هوامش

(١) أم أوفى: كنية امرأة الشاعر الأولى ـ الدمنة: ما اسودّ من آثار الدار بالبعر والرماد وغيرهما ـ حومانة الدرّاج: ماء بنجد على طريق البصرة إلى مكّة ـ المتَثلّم: موضع قريب منه ـ صيغةُ السؤال للتوجُع، أو للشكّ.

(٢) دارٌ: في رواية الأنباري: ديارٌ ـ الرقمتان: موضعان مرتفعان في نجد ـ مراجيع: ج. مرجوع: أراد به الوشم المردَّد، المجدَّد. وفي روايات الشنتمري والأنباري والنحّاس: مراجع ـ نواشر: ج. ناشر: العرق ـ المعصم: موضع السوار من الزند.

(٣) الحِجَّة: الحول ـ اللأي: الجهد والمشقة ـ وقفت بدار أمّ أوفى، بعد انقضاء عشرين حولاً، فلم أعرفها إلا بعد مشقّة لتغيُّرها عما كانت عليه، ولطول العهد بها.

(٤) لرَبْع: موضع النزول في الربيع، والمراد هنا الدار مطلقاً ـ أنعم صباحاً: أي طاب عيشك في صباحك، من النعمة. وفي رواية الشنتمري: «ألا عِمْ صباحاً».

(٥) غيظ بن مُرّة: بطن من ذبيان كان منه الساعيان بالصلح وهما هرم بن سنان ـ والحرث بن عوف ـ تبزّل: تشقّق ـ بالدم: أي بإراقة الدم بعد عقد الصلح.

(٦) البيت: الكعبة ـ جُرهم: قبيلة قديمة كان منها ولاة الكعبة قبل قريش.

(٧) السحيل: الخيط المفرد ـ المُبرم: الخيط المفتول. استعار الأول للحال الضعيفة والثاني للقوية ـ أراد أنكما كاملان مستوفيان لخلال الشرف في حالي اللين والشدّة.

(٨) عبس وذبيان: القبيلتان المتحاربتان ـ تفانوا: اشتركوا في الفناء أي أفنى بعضهم بعضاً ـ دقُّوا بينهم عطر منشم: مثل أصله أن امرأة عطّارة اسمها منشم كانت تسكن مكّة. فكان العرب إذا دخلوا في حرب، اشتروا منها حنوطاً لموتاهم، حتى تشاءموا بها وبعطرها وسار المثل المذكور، وفي تفسيره وجوه كثيرة.

(٩) الأحلاف: أسد، وغطفان، وطي ـ المقسم: القسم.

(١٠) المعنى: يستخلص من البيتين أن الشاعر كان يؤمن بالبعث والثواب والعقاب.

(١١) ذقتم: أي جرّبتم ـ المرجَّم: المظنون ـ المعنى: ليست الحرب إلا ما جرّبتم من أهوالها، وليس هذا الأمر بالحديث المظنون الذي لا تعلم حقيقته، بل هو شيء حسّي عرفتموه وذقتم نتائجه المؤلمة.

(١٢) ذميمة: غير محمودة، يريد: إذا لم تقبلوا الصلح، وهجتم الحرب، لم تحمدوا أمرها ـ وتضرى إذا ضريتموها: أي تتعوَّد وتجترىء إذا عوّدتموها فتتكرر عليكم ضاريةً ـ تضرم: تلتهب.

(١٣) ثِفال الرحى: جلدة أو خرقة تجعل تحت الرحى ليقع عليها الطحين. والباء زائدة؛ فيكون المعنى: تعرككم عرك الرحى ثفالها ـ الكشاف: أن تلقح النعجة في السنة مرتين ـ الإتآم: إن تلد الأنثى توأمين ـ كل هذا تمثيل لفظاعة الحرب ونتائجها الوخيمة. قال إن الحرب

تلقح في السنة مرتين وتلد توأمين. فجعل إفناءها إيّاهم بمنزلة طحن الرحى الحبّ، ثم جعل أنواع الشرّ المتولّدة عنها بمنزلة الأولاد الناشئة من الأمهات، وبالغ في الوصف باستتباع الشرّ بشيئين: الأول جعله إياها لاقحة كشافاً والثاني إتآمها.

(١٤) في ترتيب الحكم اضطراب في شرح الأنباري والنحاس، فاتبعنا فيه الزوزني خصوصاً ـ لا أبا لك: كلمة جافية كأنه يلوم بها نفسه. وهو لا يريد بها هنا الجفاء، ولكن التنبيه والإعلام.

(١٥) العمي: الجاهل.

(١٦) الخبط: الضرب باليد ـ العشواء: مؤنث الأعشى، التي لا تبصر الليل يريد بها الناقة التي تضرب بيدها ليلاً على غير هدى؛ كنى بها عن الموت الذي يصيب الناس على غير ترتيب.

(١٧) صانَعَ الناسَ: جاملهم وداراهم ـ يُضرس: يعضّ بالضرس ـ المنسم: للبعير كالسنبك للفرس.

(١٨) يَفِرهِ: من وفر الشيء: كثَّره ـ المعنى: من جعل إحسانه بين عرضه وكلام الناس، صان عرضه من الذمّ.

(١٩) يوفى ويفي بمعنى واحد ـ من يف بعهده لا يتعرّض للذم ـ المطمئن: الثابت، المستقرّ ـ لا يتجمجم: لا يتردّد ـ أي من يهده الله إلى عمل أو إلى حالة يطمئن إليها قلبه، لا يتردّد في المضاء فيها.

(٢٠) أسباب المنايا: الحروب وما شاكل ـ الأسباب الثانية: بمعنى الحبال.

(٢١) المعنى: من أحسن إلى من لا يستحق الإحسان، نال الذمّ عوض الحمد والشكر، فندم على عمله.

(٢٢) الزجاج: ج. زُجّ: الحديد المركب في أسفل الرمح ـ العوالي: ج. عالية: طرف الرمح الأعلى ـ اللهَذم: السنان الطويل ـ كان من عادة العرب، إذا التقى الفريقان، أن يديروا زجاج الرماح، ثم يسعى الساعون بالصلح، فإن نجحوا كان خيراً، وإلاّ قلبوا رماحهم واقتتلوا بالأسنّة. فيكون المعنى: من أبى الصلح، ذلّته الحرب.

(٢٣) الذود: الكفّ، الردع، الدفاع ـ الحوض: يريد كل ما خصّ الإنسان من مال وحريم وغير ذلك.

(٢٤) يحسب عدوّاً صديقه: لأنه لم يجرّبه.

(٢٥) الخليقة: الصفة حسنة كانت أم سيئة.

(٢٦) هذا كقول العرب: «المرء بأصغريه: قلبه ولسانه»!.

(٢٧) السفاه والسفه: ضدّ الحلم، الجهل والنزق ـ يحلم: كان عليه أن يقول يحلم. فكسرها جرياً مع القافية.

(٢٨) التسآل: بمعنى السؤال.

لبيد بن ربيعة

المعلقة

عَفَتِ الدِيارُ: مَحَلُّها فمُقامُها ... بِمِنًى، تأبَّدَ غَوْلُها فرِجَامُها[١]
فمدافِعُ الرَّيَّانِ عُرِّيَ رَسْمُها ... خَلَقاً، كما ضَمِنَ الوُحِيَّ سِلامُها[٢]
فوَقَفتُ أسألُها! وكيف سؤالُنا ... صُمّاً خَوالدَ ما يَبينُ كلامُها[٣]
عَرِيَت، وكانَ بها الجميعُ، فأبْكَروا ... منها؛ وغُودِرَ نُؤْيُها وثُمامُها[٤]
بل ما تَذَكُّرُ من نَوارَ، وقد نَأَت، ... وتَقَطَّعت أسبابُها ورِمامُها[٥]؟
وَاحْبُ المُجامِلَ بالجزيلِ، وصُرْمُهُ ... باقٍ، إذا ظَلَعَت وزاغَ قِوامُها[٦]
بطَليحِ أسفارٍ تَركْنَ بَقيَّةً ... منها، فأحْنَقَ صُلْبُها وسَنامُها[٧]
وإذا تعالى لَحمُها، وتَحَسَّرت، ... وتَقَطَّعَت، بعد الكلالِ، خِدَامُها[٨]
فلَها هِبابٌ في الزِّمامِ، كأنَّها ... صَهْباءُ خَفَّ مع الجنوبِ جَهامُها[٩]؛
أولم تكُنْ تدري نوارُ بأنَّني ... وَصَّالُ عَقْدِ حبائلٍ، جَذَّامُها[١٠]!
بلْ أنتِ لا تَدرينَ كم من ليلةٍ ... طَلْقٍ، لذيذٍ لهوُها ونِدامُها[١١]،
قد بِتُّ سامِرَها، وغايةِ تاجرٍ ... وافَيْتُ، إذ رُفِعَتْ وعَزَّ مُدامُها[١٢]!
وغداةِ ريحٍ قد وَزَعْتُ، وقِرَّةٍ ... قد أصبحت بيدَ الشَّمالِ زِمامُها[١٣]،
بِصبوحِ صَافيةٍ، وجَذْبِ كرينةٍ ... بِمُوَتَّرٍ تأتالُه إبهامُها[١٤]
ولقد حَمَيْتُ الحيَّ، تَحمِلُ شِكَّتي ... فُرُطٌ، وِشَاحي، إذْ غَدَوْتُ، لِجَامُها[١٥]
إنّا، إذا التقَتِ المجامعُ، لم يَزَلْ ... مِنّا لِزازُ عظيمَةٍ جَشَّامُها[١٦]
فاقْنَعْ بما قَسَمَ المليكُ، فإنّما ... قَسَمَ الخلائِقَ بيننا علاَّمُها[١٧]
فَبَنَى لنا بيتاً رفيعاً سَمْكُهُ، ... فسما إليه كَهْلُها وغُلامُها[١٨]
فَهُمُ السُّعاةُ، إذا العَشيرةُ أُفظِعَتْ؛ ... وهُمُ فوارِسُها، وهُمْ حُكّامُها[١٩]،

هوامش

(١) عفت: درست وامحّت، والفعل لازم ومتعدّ ـ المحلّ: الموضع ينزل به لأيّام قليلة ـ والمُقام: ما طالت الإقامة به، وهما بدل من الدِّيار ـ مِنىً: اسم موضع في حمى ضريّة، وكذلك الغول والرجام: موضعان في الحمى نفسه ـ تأبّد: توّحش ـ المعنى: امّحت ديار الأحبة: ما كان منها للحلول وما كان للإقامة بمنى، وتوحش الموضعان المذكوران لبعد الأحبة عنهما.

(٢) مدافع: ج. مدفع: مجرى الماء ـ الريّان: واد بالحمى المذكور ـ الخلق: القديم البالي وهو منصوب على الحال من الرسم ـ الوُحيّ: ج. الوَحْي: الكتابة ـ السلام: ج. السَلِمة: الحجر ـ يتابع الوصف فيقول: توحشت أيضاً مجاري المياه في وادي الريّان، فعرّت رسمها السيول حتى أصبح بالياً، ولكنه لم يُمّح تماماً، بل بقي ظاهراً كما تظهر الكتابة في الحجارة.

(٣) أسألها: ضمير المفعول للاطلال: الصُمّ: ج. الأصمّ: الصخر الصلب ـ خوالد: باقية ـ بعد أن يذكر أنه وقف يسأل الأطلال عن أهلها الذينَ ارتحلوا، يقول: وما الفائدة من سؤال ما لا يجيب. . . ؟.

(٤) عريت: أي خلت من أهلها ـ النُؤي: مجرى يحفر حول الخباء لينصبّ فيه الماء فلا يدخل الخباء ـ الثُمام: ضرب من النبات لين ضعيف تُسدّ به خصاص البيوت.

(٥) بل: للإضراب استعملها لينتقل من صفة الديار إلى صفة المرأة التي يتغزّل بها، واسمها نوار ـ نأت: بعدت ـ الأسباب: ج. سبب: الحبل ـ الرمام: ج. الرُمّة: قطعة الحبل البالية ـ المعنى: أي شيء تتذكر من نوار، وقد بعدت عنك وتقطعت كل صلة لك بها من متينة وضعيفة.

(٦) المجامل: المصانع، الذي يظهر لك الجميل والمودة ـ صُرْمُه: قطعه، والواو للحال ـ ظلعت: انحرفت في سيرها ـ المعنى: قابل من يظهر لك الجميل بجميل أوفر ممّا يظهره، أما إذا زاغت مودته وترك الاستقامة فتكون قطيعته حاضرة لديك فاقطعه.

(٧) بطليح: الباء متعلقة بـ «فاقطع». الطليح: صفة الناقة التي أتعبها السير وأضعفها ـ أحنقَ: ضعف ـ المعنى: أنت قادر على قطيعة من ترك سبيل الاستقامة، بأن ترحل على ناقة أعيتها الأسفار فلم تترك منها إلاّ بقيّة، وقد ضمر ظهرها وسَنامها.

(٨) تعالى لحمها: ارتفع إلى رؤوس العظام ـ تحسَّرت: صارت حسيراً أي عارية عن اللحم ـ الخدام: ج. خدمة: سير من جلد يُشدّ إلى أرساغ الإبل ـ المعنى: إذا تعبت هذه الناقة فهزلت حتى تجمّع لحمها في رؤوس العظام، فبدت عارية من اللحم، وتقطّعت سيورها.

(٩) الهباب: النشاط ـ الصهباء: صفة للسحابة المحمرّة ـ خفّ: أسرع؛ وفي رواية التبريزي: راح ـ الجهام: السحاب الذي لا ماء فيه أو أهرق ماءه ـ المعنى: عند ذلك، أي على الرغم من التعب، يكون لهذه الناقة نشاط عجيب، فإنها تسرع كما تسرع السحابة الحمراء التي لا ماء فيها وهي تكون أخفّ من غيرها.

(١٠) الحبائل: ج. الحبالة وهي مستعارة للمودّة - جذّام: قطاع - أو لم تكن تعلم نوار أني أصل من يستحق الصلة وأقطع من يستحق القطيعة.
(١١) أنت: يخاطب نوار - ليلة طلق: ليس فيها حرّ ولا برد - النِدام: المنادمة.
(١٢) سامرها: يعني سامراً فيها أي متحدّثاً - الغاية: الراية ينصبها الخمّار ليُعرف موضعه - والتاجر: الخمّار - المعنى: كم من ليلة سهرتها أحادث ندامای. وكم من غاية تاجر أتيتها فاشتريت خمرة غالية عزيزة الوجود.
(١٣) وزعت: كنفت، رددت، ويروى: كشفت - القِرّة: البرد - بيد الشمال: أي ريحها شمالية.
(١٤) الصبوح: الشرب في الصباح، وهي متعلقة بوزعت - الكرينة: المرأة التي تضرب على الكران: نوع من العيدان - الموتَّر: ذو الأوتار - تأتاله: تصلحه.
(١٥) الحي: في رواية التبريزي: الخيل - الشكّة: اسم لجميع السلاح - الفُرُط: الفرس السريعة السابقة الخيل. وجملة «تحمل شكتي» حال. وجملة «وشاحي إذ غدوت لجامها» صفة لفرط أي لجام هذا الفرس وهو وشاحي عندما أغدو لاموري؛ يريد أن يلقي اللجام على عاتقه ويخرج يده منه، فيصير له بمنزلة الوشاح. وكان فرسان العرب يصنعون ذلك، ليكون اللجام قريباً منهم، ساعة الخطر، فيلجمون الفرس ويركبون سريعاً.
(١٦) اللِزّاز: الذي يلزم الشيء، الجَسّام: المتكلّف الأمور - المعنى: إذا اجتمعت القبائل لم تَخلُ مجامعهم من رجل منّا قادر على رفع العظائم يتكلّف القيام بها عن الناس.
(١٧) الخلائق: الأخلاق الحسنة - المليك والعلاّم: أي الله سبحانه.
(١٨) سمك البيت: سقفه - سماه: ارتفع.
(١٩) أُفظِعت: أصيبت بأمر فظيع - السُعاة: أي الذين يسعون في إصلاح الحال.

عمرو بن كلثوم

المعلقة

ألا هُبّي بِصَحْنِكِ فاصبَحِينا! … ولا تُبْقي خُمورَ الأنْدَرِينا[١]!

مُشَعْشَعَةً كأنَّ الحُصَّ فيها، … إذا ما الماءُ خالَطَها سَخِينا[٢]،

أبا هِنْدٍ! فلا تَعْجَلْ علينا؛ … وأنْظِرْنا، نُخَبِّرْكَ اليَقِينا[٣]:

بِأنّا نُورِدُ الرّاياتِ بِيضاً، … ونُصْدِرُهُنَّ، حُمْراً قد رَوِينا[٤]!

وأيّامٍ لنا غُرٍّ طِوالٍ … عَصَيْنا المَلْكَ فيها أن نَدِينا[٥]

وسَيِّدِ مَعْشَرٍ قد تَوَّجُوهُ … بتاجِ المُلْكِ، يَحْمي المُحْجَرِينا[٦]،

وقد هَرَّتْ كِلابُ الحَيِّ مِنّا، … وشَذَّبْنا قَتادَةَ مَن يَلِينا[٧]؛

متى نَنْقُلْ إلى قومٍ رَحانا، … يكونوا في اللِّقاءِ لها طَحِينا[٨]،

يكونُ ثِفالُها شرقيَّ نَجْدٍ، … ولُهْوَتُها قُضاعَةَ أجْمَعِينا[٩]

وَرِثْنا المَجْدَ ـ قد عَلِمَتْ مَعَدٌّ! ـ … نُطاعِنُ دُونَه حتى يَبِينا[١٠]!

نُطاعِنُ ما تَراخَى النّاسُ عنّا، … ونَضْرِبُ بالسيوف، إذا غُشِينا[١١]،

نَشُقُّ بها رُؤوسَ القومِ شَقّاً، … ونُخْلِيها الرِّقابَ فيَخْتَلِينا[١٢]؛

كأنَّ جَماجِمَ الأبطالِ فيها … وُسُوقٌ بالأماعِزِ يَرْتَمِينا[١٣]؛

كأنَّ سُيُوفَنا، فينا وفيهم، … مَخاريقٌ بأيدي لاعِبِينا[١٤]!

ألا لا يَجْهَلَنْ أحدٌ علينا، … فنَجْهَلَ فوقَ جَهْلِ الجاهلينا[١٥]

بأيِّ مشيئةٍ، عمرو بنَ هِنْدٍ، … تُطيعُ بنا الوُشاةَ، وتَزْدَرِينا[١٦]؟

بأيِّ مشيئةٍ، عمرو بن هندٍ، … نكونُ لقَيْلِكُم فيها قَطِينا[١٧]؟

تُهَدِّدُنا وتُوعِدُنا! رُوَيداً! … متى كُنّا لأمِّكَ مَقْتَوِينا[١٨]؟

وَرِثْنا مَجْدَ عَلْقَمَةَ بنِ سَيْفٍ … أباحَ لنا حُصونَ المَجْدِ دِينا[١٩]!

وَرِثْتُ مُهَلْهِلاً، والخيرَ منه   زُهيراً، نِعْمَ ذُخْرُ الذاخرينا[20]!

وعَتَّاباً، وكُلْثوماً، جميعاً   بهم نِلْنا تُراثَ الاكرمينا[21]!

ومنّا قبلَه الساعي كُلَيْبٌ   فأيُّ المَجْدِ إلاّ قد ولينا[22]؟

إليكُمْ! يا بني بكرٍ، إليكم!   ألَمّا تعرفوا منّا اليقينا[23]؟

على آثارِنا بِيضٌ حسانٌ   نُحاذِرُ أن تُقَسَّمَ أو تهونا[24]،

ظَعائنُ من بني جُشَمَ بن بكرٍ،   خَلَطْنَ بِميْسمٍ حَسَباً ودينا[25]،

إذا ما رُحْنَ يَمْشينَ الهُوَيْنا،   كما اضطَرَبَت مُتونُ الشاربينا[26]،

يَقُتْنَ جيادَنا، ويَقُلْنَ: «لَسْتُمْ   بُعولَتَنا، إذا لم تَمْنَعُونا!»[27]

وقد عَلِمَ القبائِلُ من مَعَدٍّ،   إذا قُبَبٌ بأبْطَحِها بُنينا[28]،

بأنّا المُطْعِمُون، إذا قَدَرْنا،   وأنّا المُهلِكون، إذا ابتُلينا[29]،

وأنّا المانِعُونَ لما أرَدْنا،   وأنّا النازِلُون بِحَيْثُ شينا،

ونَشرَبُ، إن وَرَدْنا الماءَ، صَفْواً،   ويَشرَبُ غيرُنا كَدَراً وطينا[30]!

إذا ما المَلْكُ سامَ النّاسَ خَسْفاً،   أبَينا أن نُقِرَّ الخَسْفَ فينا[31]!

ملأنا البرَّ حتى ضاقَ عنّا،   وظَهْرَ البَحْرِ نَمْلأُهُ سفينا،

لنا الدُّنيا ومن أضحى عليها،   ونَبطِشُ، حينَ نَبْطِشُ، قادِرينا!

إذا بَلَغَ الفِطامَ لنا صَبِيٌّ،   تَخرُّ له الجبابِرُ ساجِدينا!

هوامش

(١) الصَحن: القدح الكبير ـ أصبحينا: اسقينا الصبوح: الشرب صباحاً ـ الأندرين: قرية في جنوبي حلب، على مسيرة يوم للراكب.

(٢) الحُصّ: نبت له زهر أحمر إلى الصفرة يشبه الزعفران ـ سخينا: في معنى هذه اللفظة قولان: الأول أنها فعل من السخاء والنون للجمع، فيكون المعنى: إذا شربنا فأننا نسخو ونجود بمالنا. والثاني صفة من السخونة فتكون حالاً للماء الذي يخالط الخمرة، ولعل هذا أصح لأن قرية الأندرين كانت للروم في ذاك الزمن، ومن عادتهم أن يشربوا الخمر بالماء السخين، كما ذكر أبو العلاء في «رسالة الغفران».

(٣) أبو هند: كنية عمرو بن هند ـ أنظرنا: انتظرنا، لا تعجّل علينا.

(٤) رَوين: شربنَ حتى اكتفين. في البيت نوع لطيف من التلميح والاكتفاء.

(٥) غرّ طوال: استعارها من صفات الخيل وأراد بها الأيام المشهورة ـ أن ندينا: أن نطيع، من الدِّين: الطاعة.

(٦) المحجرون: الذين قد أُجبروا على أن يلجأوا إلى المضيق. وجملة «يحمي المحجرينا» صفة لسيّد.

(٧) القتادة: واحدة القتاد، وهو شجر له شوك. أراد بتشذيب القتادة: كسر الشوكة، الإذلال.

(٨) أراد بالرحى: الحرب.

(٩) الثِفال: خرقة أو جلدة تبسط تحت الرحى ليقع عليها الطحين ـ اللُّهوة: القبضة من الحبّ تُلقى في فم الرحى. يتابع تشبيه الحرب بالرحى حتى دقائقه.

(١٠) يبين: يظهر.

(١١) تراخى: تأخر، تباعد ـ غُشينا: أي اقترب الأعداء منجا.

(١٢) بها: أي بالسيوف ـ نخليها الرقاب: أي نجعل الرقاب لها كالخلاء وهو الحشيش.

(١٣) فيها: في السيوف ـ وسوق: ج. وَسْق: الحِمْل ـ الأماعز: ج. أمعز: الأرض الصلبة الكثيرة الحصى.

(١٤) فينا وفيهم: وفي شرح الزوزني: منا ومنهم ـ مخاريق: ج. مِخراق: سيف من خشب يلعب به الصبيان ـ أراد أنهم كانوا يضربون بسرعة غير حافلين بمواقع سيوفهم، كما لا يحفل الصبيان بمخاريقهم.

(١٥) الجهل: السفه. أراد من يسفه علينا نجازيه، واستعمل لفظة الجهل لتجانس اللفظ وهو ما يسمّى في البيان «بالمشاكلة»، وهذا البيت ختام المعلقة في شرح التبريزي.

(١٦) هذا البيت لم يروه ابن السكيت.

(١٧) القيل: الملك الذي يطيع ملكاً أعظم منه ـ القطين: الخدم ـ المعنى: كيف تريد، أو كيف تطمع، أن نكون أذلاء لم وليت علينا من الأمراء، وأنت تعرف عزّنا وأنفتنا؟

(١٨) مَقْتَوين : ج . مَقْتوي : نسبة إلى مقتى : مصدر قتا يقتو : خدم الملوك - إنك تهدّدنا! فعلى رسلك! وترفّق في ذلك. فإننا لم نكن خدماً لأمّك قط. يشير إلى الحادثة المشهورة.

(١٩) علقمة : علقمة بن سيف بن عتّاب . هو الذي تولّى قيادة تغلب، وأنزلهم أرض الجزيرة بعد حرب البسوس - الدين : الطاعة . يعني : أنه حارب حتى غلب أقرانه، وجعل حصون المجد مُباحة طائعة لبني قومه .

(٢٠) المهلهل : البطل الشاعر المشهور، وهو جدّ عمرو بن كلثوم لأمه، وزهير أحد أجداده من جهة أبيه .

(٢١) عتّاب : جدّ جدّ الشاعر - كلثوم : أبو الشاعر .

(٢٢) قبله : أي قبل ذي البُرة - الساعي إلى المجد - كليب : أخو المهلهل الذي قتله جسّاس، ثارت بسببه حرب البسوس .

(٢٣) إليكم : أي إليكم عنّا، يا بني بكر، فتنحُّوا وتباعدوا عن مفاخرتنا، لأنكم قد علمتم حقيقة بأسنا .

(٢٤) بيض حسان : صفة للنساء - تهون : تذلّ - يقول : نساؤنا خلفنا ندافع عنهنّ خوفاً من أن يسبيهنّ العدو فيقتسمهن ويذلهنّ. وكان من عادة العرب أن يحملوا نساءهم إلى ساحة الحرب، فيتشجعوا ويستقتلوا مخافة العار بسبي الحريم .

(٢٥) الميسم : الحسن - يصف هؤلاء النساء فيقول أن لهنّ، مع الجمال، حسباً وديناً . .

(٢٦) كما اضطربت . . . : شبّه النساء في مشيهنّ الهوينا بالسكارى في تمايلهم .

(٢٧) يقتن : يطعمنَ - يذكر خدمات النساء لهم في الحرب، ويعطف بذكر تحريضهنّ لهم القتال .

(٢٨) إذا قُبب . . . . : أي إذا اجتمعت .

(٢٩) قدَرنا : طبخنا، ومنه القدر .

(٣٠) يحتمل البيت معنى مجازيًا أيضاً، وهو : أننا ننال من كل شيء أفضله، ونترك أرداه لغيرنا .

(٣١) الخسف : الذلّ .

الحرث بن حلّزة

المعلقة

آذَنَتْنا بِبَيْنِها أَسْماءُ؛   رُبَّ ثاوٍ يُمَلُّ منهُ الثَّواءُ[١]!

بَعد عَهْدٍ لها بِبُرقَةِ شَمّاءَ   فأدنى ديارِها الخَلْصاءُ[٢]،

وأَتانا مِنَ الحوادِثِ والأنْبَاءِ   خَطْبٌ نُعْنَى به ونُساءُ[٣]:

أنَّ إخوانَنا الأراقِمَ يَغْلُونَ   علينا؛ في قيلِهِمْ إحْفاءُ[٤]؛

زَعَموا أنَّ كُلَّ من ضَرَبَ العَيرَ   مُوالٍ لنا، وأنّا الوَلاءُ[٥]

أجْمَعوا أمْرَهُمْ عِشاءً؛ فلمّا   أصْبَحوا، أَصْبَحت لهم ضوضاءُ[٦]:

مِن مُنادٍ، ومن مُجيبٍ، ومن تَصْهالِ   خَيلٍ، خِلالَ ذاكَ رُغاءُ[٧]!

أيُّها النّاطِقُ المُرَقِّشُ عنّا،   عِندَ عَمْرٍو، وهَلْ لِذاكَ بَقاءُ![٨]

هل عَلِمْتُم، أيّامَ يُنتهَبُ النّاسُ   غِواراً، لِكُلِّ حَيٍّ عُواءُ[٩]،

إذ رَفَعْنا الجمالَ من سَعَفِ البَحْرَينِ   سَيراً، حتى نهاها الحِساءُ[١٠]،

ثُمَّ مِلْنا على تَميمٍ، فأحرَمْنا،   وفينا بَناتُ قومٍ إماءُ[١١]!

فَمَلَكْنا بذلكَ النّاسَ، حتى   مَلَكَ المُنذرُ بنُ ماءِ السَّماءِ[١٢]

وهو الرَّبُّ، والشَّهيدُ على يومِ   الحيارَينِ، والبَلاءُ بَلاءُ[١٣]؛

مَلِكٌ أضرَعَ البريَّةَ لا يوجدُ   فيها، لِما لَدَيه، كِفاءُ[١٤]!

فاتركوا الطَّيخَ والتَّعَدّي، وإمّا   تتَعاشَوا، ففي التَّعاشي الدّاءُ[١٥]؛

واذْكُروا حِلْفَ ذي المَجازِ، وما قُدِّمَ   فيه العُهودُ والكُفَلاءُ[١٦]،

أيُّها النّاطِقُ المُبَلِّغُ عنّا   عندَ عَمرٍو، وهَل لِذاك انتِهاءُ[١٧]!

إنَّ عَمْراً لنا لديهِ خِلالٌ   غيرَ شكٍّ، في كُلِّهنَّ البَلاءُ!

هوامش

(١) آذنتنا: أعلمتنا ـ البين: الفراق ـ أسماء: اسم صاحبة الشاعر ـ الثواء: الإقامة ـ ذكر أن أسماء أعلمته بفراقها القريب، ثم قال: ربَّ مقيم تُملّ إقامته، يريد أن إقامة أسماء لا تملّ.

(٢) لها: في رواية: لنا ـ عزمت على الفراق بعد عهدنا بها في هذه المواقع ـ البُرقة: الأرض المرتفعة أو الرابية فيها رمل وطين وحجارة ـ شمَّاء: هضبة معروفة ـ الخلصاء: اسم موضع، وهي أقرب ديارها إلينا.

(٣) الخطب: الأمر العظيم ـ نُعني به: نهتمّ به، نحزن له، ويثقل علينا.

(٤) في هذا البيت تفصيل الخطب ـ الأراقم: بطون من تغلب وهو يدعوهم إخوانه لأن بكراً وتغلب ابنا وائل ـ يغلون: إما أن يكون معناها: يتجاوزون الحدّ في تشكيهم منّا، فتكون من الغلوّ. وإما أن يكون معناها: تغلي صدورهم علنيا غيظاً حنقاً ـ القيل: بمعنى القول ـ الإحفاء: التعدّي والظلم. وجملة «في قيلهم احفاء» حالية اسمية لا رابط لها.

(٥) اختلف الأئمة في شرحهم لهذا البيت لاختلافهم في فهم لفظة «العَير» حتى قال أبو عمرو بن العلاء: «قد ذهب من كان يعرف معنى هذا البيت!» وخلاصة الآراء المشهورة أن العَير: السيد، وأراد به كليب وائل. فيكون المعنى: زعم بنو تغلب أن كل من رضي بموت كليب هو من حلفائنا، أو أن العير: الوتد، والمعنى: زعموا أن كل من ضرب وتد خيمة هو من موالينا. إلخ. . . ـ وأنا الولاء: أي أصحاب الولاء.

(٦) أجمعوا أمرهم: الضمير لبني تغلب: أي صمَّموا على قتالنا ـ عِشاءِ: في شرح التبريزي: بليل ـ الضوضاء: الجلبة والصياح.

(٧) في هذا البيت تفصيل الضوضاء ـ الرغاء: أصوات الإبل، وفي البيتين صورة غاية في الدقة والجمع لتأهّب القوم واستعدادهم.

(٨) المرقّش: مموّه الكلام ومزخرفة ـ وهل. . . : استفهام انكاري أي: لا بقاء لتمويهك، لأن الملك يعرف أنه باطل، ولا بقاء للباطل.

(٩) الغوار: المغاورة أي أن يغير القوم بعضهم على بعض ـ العُواء: صوت الذئب، استعاره للضجيج والصياح. قال التبريزي: أنه يشير إلى الأيام التي هزم فيها كسرى (نحو السنة ٥٣٥م) وكانت بكر إذ ذاك تغير على القبائل.

(١٠) رفعنا الجمال: سرنا بها سيراً حثيثاً ـ السَعَف: ج. سعفة: غصن النخلة ـ المعنى: حين سرنا بجمالنا من نخل بلاد البحرين، مغيرين نغزو وننهب، حتى وصلنا إلى الحساء، وهو موضع في ديار بنى أسد، أو ماء لبني فزارة، لا يصدّنا أحد.

(١١) أحرمنا: دخلنا في الأشهر الحُرُم ـ إماء: ج. أَمة: عبدة ـ ثم أغرنا على بني تميم، وكان ذلك موافقاً لدخولنا في الأشهر الحرُم، وعندنا سبايا القبائل نستخدمهنّ.

(١٢) المنذر بن ماء السماء: والد عمرو بن هند، وهو المعروف بالمنذر الثالث أيضاً، انتهى ملكه نحو السنة ٥٥٤م، وفي البيت سناد الأقواء، ولم يذكره الزوزني - لقد وفّقنا من أول القصيدة إلى هذا البيت بين ترتيب التبريزي وترتيب الزوزني. أما من هذا البيت فصاعداً فقد فضّلنا ترتيب التبريزي، لأنه أقرب إلى العقل أنّ الشاعر يفنّد حجج الخصم أولاً ثم يختم بمدح الملك كي ينتهي خطابه وقد استمال الحاكم إلى جهته.

(١٣) الربّ: السيّد، المالك، أراد به المنذر - الحياران: موضع وقيل موضعان، وفي رواية ابن الأعرابي: الحوارين: قريتان في البحرين - في ذاك اليوم قاتل بنو بكر مع المنذر، فشهد إبلاءهم - والبلاء بلاءُ: الواو للحال، والمعنى أن البلاء كان شديداً في تلك المعركة.

(١٤) أضرع البرية: أخضعها وأذلّها حتى لا يوجد فيها من يساويه في المعالي. وفي رواية التبريزي: «أضلع البريّة» وهو من الاضطلاع بالأمور: أي هو أحكم البرية لا يوجد فيها من يعادله في ذلك.

(١٥) الطّيخ: الكلام القبيح - التعاشي: التعامي عن الحقّ - ففي التعاشي الداءُ: أي الشرّ، لأنكم إذا تعاميتم أجبرتمونا على التصريح بأخباركم، فلحقكم العار.

(١٦) الحِلف: العهد - ذو المجاز: موضع، وهو الذي جمع فيه المنذر بكراً وتغلب فأصلح بينهما وأخذ منهما المواثيق، والرهائن من كل حيّ وعددهم سبعون أو ثمانون أو مائة، وهو معنى قوله: «العهود والكفلاء».

(١٧) الناطق: في رواية التبريزي: الشانىء: المبغض؛ أراد به عمرو بن كلثوم - عمرو: عمرو بن هند.

النابغة الذبياني

المقامة البشرية

حَدّثَنا عيسَى بنُ هِشام قالَ: كانَ بِشرُ بنُ عَوانَةَ العَبديّ صُعلوكاً، فأغارَ على رَكبٍ فيهِمْ امرأةٌ جَميلَةٌ، فتزَوّجَ بها، وقالَ: ما رَأيتُ كاليَوم! فَقالَتْ:

أعــجَـبَ بِـشـراً حَـوَرٌ فـي عَـيـنـي	وسـاعِـدٌ أبـيَـضُ كـالـلُّـجَـيـنِ[1]
ودونَــهُ، مَـسـرَحَ طَـرْفِ الـعَـيـنِ،	خَـمـصـانَـةٌ تَـرفُـلُ فـي حِـجـلَـيـنِ[2]
أحسَنُ مَن يَمشي على رِجلَينِ،	لَو ضَمّ بِشرٌ بَينَها وبَيْني
أدامَ هَجري، وأطالَ بَيْني؛	ولَو يَقِيسُ زَينَها بزَيْني

لأسفَرَ الصّبحُ لِذي عَينَينِ[3]

قالَ بِشرٌ: وَيْحَكِ! مَن عَنَيتِ؟ فقالَتْ: بِنتَ عَمّكَ فاطِمَةَ فَقالَ: أهيَ مِنَ الحُسنِ بحَيثُ وَصَفتِ؟ قالَتْ: وأزيَدُ وأكثرُ. فأنشأ يَقولُ:

وَيحَكِ! يا ذاتَ الثّنايا البِيضِ،	ما خِلتُني منكِ بِمُستَعيضِ[4]
فالآنَ، إذْ لَوّحتِ بالتّعريضِ،	خَلَوْتِ جَوّاً، فاصفِري وبِيضِي[5]
لا ضُمّ جَفناايَ على تَغميضِ،	ما لم أشِلْ عِرْضِي مِنَ الحَضيضِ[6]

فقالَتْ:

كَمْ خاطِبٍ في أمرِها ألَحّا،	وهْيَ إلَيكَ ابنَةُ عَمّ لَحّا[7]

ثمّ أرسَلَ إلى عَمّهِ يَخطُبُ ابنَتَهُ؛ ومَنَعَهُ العَمُّ أُمنيّتَهُ. فآلى[8] ألاّ يُرعي على أحَدٍ[9] مِنهُمْ، إنْ لم يُزَوّجْهُ ابنَتَهُ.

ثمّ كَثُرَتْ مَضَرّاتُهُ فيهِمْ، واتّصَلَتْ مَعَرّاتُهُ[1] إلَيهِمْ. فاجتَمَعَ رِجالُ الحَيّ إلى عَمّهِ، وقالوا: كُفّ عَنّا مَجنونَكَ! فَقالَ: لا تُلبِسوني عاراً، وأمهِلوني حتى أَهلِكَهُ ببَعضِ الحِيَلِ. فقالوا: أنتَ وذاكَ. ثمّ قالَ لهُ عَمّهُ: إنّي آلَيتُ ألاّ أُزَوّجَ ابنَتي هذه إلاّ ممّنْ يَسوقُ إلَيها ألفَ ناقَةٍ مَهْراً؛ ولا أرضاها إلاّ مِن نُوقِ خُزاعَةَ. وغَرَضُ العَمّ كانَ أنْ يَسلُكَ بِشرٌ الطّريقَ بَينَهُ وبينَ خُزاعةَ فيَفترِسَهُ الأسَدُ؛ لأنّ العَرَبَ قد كانتْ تَحامَتْ عَن ذلكَ الطّريقِ، وكانَ فيهِ أسَدٌ يُسَمّى داذاً، وحَيّةٌ تُدعى شُجاعاً، يَقولُ فيهِما قائِلُهُمْ:

أفْـتَـكُ مِـن داذٍ ومِـن شُـجـاعْ؛ إنْ يَـكُ داذٌ سَـيّـدَ السّـبـاعِ

فـإنّـهـا سَـيّـدَةُ الأفـاعـي

ثمّ إنّ بِشراً سَلَكَ ذلكَ الطّريقَ، فَما نَصَفَهُ[11]، حتى لَقِيَ الأسَدَ، وقَمَصَ مُهرُهُ[12]؛ فنَزَلَ وعَقَرَهُ؛ ثمّ اختَرَطَ سَيفَهُ إلى الأسَدِ[13]، واعترَضَهُ وقَطّهُ[14]؛ ثمّ كَتَبَ بدَمِ الأسَدِ، على قَميصِهِ، إلى ابنَةِ عَمّهِ:

أفاطِمَ، لو شَهِدتِ بِبَطنِ خَبتٍ؛ وقد لاقى الهِزَبرُ أخاكِ بِشرَا[15]

إذاً، لَرأيتِ لَيثاً زارَ لَيثاً، هِزَبراً أغلَباً، لاقى هِزَبرَا[16]

تَبَهنَسَ، إذ تَقاعَسَ عنهُ مُهري مُحاذَرَةً، فقلتُ: عُقِرتَ مُهرَا[17]

أنِلْ قَدَميّ ظَهرَ الأرضِ، إنّي رأيتُ الأرضَ أثبَتَ منكَ ظَهرَا

وقُلتُ لهُ، وقد أبدَى نِصالاً مُحَدَّدَةً، ووَجهاً مُكفَهِرّا[18]

يُكَفكِفُ، غِيلَةً، إحدى يديهِ، ويَبسُطُ، للوُثوبِ عليّ، أُخرَى[19]

يُدِلُّ بِمِخلَبٍ، وبِحَدّ نابٍ، وباللّحَظاتِ، تَحسَبُهُنّ جَمرَا[20]

وفي يُمنايَ ماضي الحَدّ، أبقَى، بمَضرِبِهِ، قِراعُ المَوتِ أُثرَا[21]:

ألم يَبلُغكَ ما فَعَلَتْ ظُباهُ، بكاظِمَةٍ، غَداةَ لَقيتُ عَمرَا[22]؟

وقَلبي مثلُ قَلبِكَ، ليسَ يخشَى مُصاوَلَةً؛ فكيفَ يَخافُ ذُعرَا[23]؟

وأنتَ تَرومُ للأشبالِ قُوتاً، وأطلُبُ لابنَةِ الأعمامِ مَهرَا

فَفيمَ تَسومُ مثلي أنْ يُوَلّي، ويَجعَلَ في يَدَيكَ النّفسَ قَسرَا[24]؟

نَصَحتُكَ، فالتَمِسْ، يا ليثُ، غيري طَعاماً؛ إنّ لَحمي كانَ مُرّا!

فلَمّا ظَنّ أنّ الغِشّ نُصحي، وخالَفني كأنّي قُلتُ هُجرًا[٢٥]
مشَى، ومشَيتُ، من أسَدينِ راما مَراماً، كانَ، إذ طَلَباهُ، وَعْرًا[٢٦]
هَزَزتُ لهُ الحُسامَ، فخِلتُ أنّي سَلَلتُ بهِ، لدَى الظّلماءِ، فَجرًا[٢٧]
وجُدتُ لهُ بجائِشَةٍ، أرَتْهُ، بأنْ كَذَبَتهُ، ما مَنّتهُ غَدْرًا[٢٨]
وأطلَقتُ المُهَنّدَ مِن يَميني، فقَدّ لهُ منَ الأضلاعِ عَشرًا[٢٩]
فَخَرّ مُجَدّلاً بدَمٍ، كأنّي هَدَمتُ بهِ بناءً مُشمَخِرًا[٣٠]
وقُلتُ لَهُ: يَعِزّ عَليّ أنّي قتَلتُ مُناسِبي جَلَداً وفَخرًا[٣١]!
ولكِنْ، رُمتَ شَيئاً لم يَرُمْهُ سِواكَ، فلَم أُطِقْ، يا لَيثُ، صَبرًا
تُحاوِلُ أنْ تُعَلّمَني فِراراً؟ لَعَمرُ أبيكَ، قد حاوَلتَ نُكرًا[٣٢]!
فلا تَجزَعْ! فقَد لاقَيتَ حُرّاً، يُحاذِرُ أنْ يُعابَ، فمِتّ حُرًّا[٣٣]
فإنْ تَكُ قد قُتلتَ، فليسَ عاراً؛ فقَد لاقَيتَ ذا طَرَفَينِ حُرّا[٣٤]

فلَمّا بلَغَتِ الأبياتُ عَمّهُ، نَدِمَ على ما مَنَعَهُ مِن تَزويجِها، وخشِيَ أنْ تَغتالَهُ الحَيّةُ؛ فَقامَ في أثَرِهِ، وبَلَغَهُ، وقد مَلَكَتهُ سَورَةُ الحَيّةِ[٣٥].

فَلمّا رأى عمّهُ، أخذَتهُ حَميّةُ الجاهليّةِ، فجَعَلَ يَدَهُ في فَمِ الحَيّةِ وحَكّمَ سَيفَهُ فيها، فَقالَ:

بِشرٌ، إلى المَجدِ، بَعيدٌ همُّهُ؛ لمّا رآهُ، بالعَراءِ، عَمُّهُ[٣٦]
قَد ثَكِلَتهُ نَفسُهُ وأُمُّهُ، جاشَتْ بهِ جائِشَةٌ تَهُمُّهُ[٣٧]
قامَ إلى ابنِ للفَلا يَؤمُّهُ، فَغابَ فيهِ يَدُهُ وكُمُّهُ[٣٨]
ونَفسُهُ نَفسي وسُمّي سُمُّهُ

فَلمّا قَتَلَ الحَيّةَ، قالَ عَمّهُ: إنّي عَرّضتُكَ[٣٩] طَمَعاً في أمرٍ[٤٠] قد ثَنى اللّهُ عِناني عَنهُ[٤١]؛ فارجِعْ لأزَوّجَكَ ابنَتي. فلَمّا رَجَعَ، جَعَلَ بِشرٌ يَملأُ فَمَهُ فَخراً، حتى طَلَعَ أمرَدُ كَشِقّ القَمَرِ[٤٢]، على فَرَسِه، مُدَجّجاً في سِلاحِهِ. فَقالَ بِشرٌ: يا عمّ، إنّي أسمَعُ حِسّ صَيدٍ. وخَرَجَ[٤٣]؛ فإذا بغُلام على قَيدٍ[٤٤]. فَقالَ: ثَكِلَتكَ أُمّكَ، يا بِشرُ! أنْ قَتَلتَ[٤٥] دودَةً وبَهيمَةً تَملأُ

ماضِغَيكَ[٤٦] فَخراً؟ أنتَ في أمانٍ إنْ سَلّمتَ عَمّكَ. فَقالَ بِشرٌ: مَن أنتَ؟ لا أُمّ لكَ! قالَ: اليَومُ الأسوَدُ والمَوتُ الأحمَرُ[٤٧]، فَقالَ بِشرٌ: ثَكِلَتكَ مَنْ سَلَحَتكَ! فَقالَ: يا بِشرُ، ومَنْ سَلَحتَكَ! وكَرّ كلّ واحدٍ منهُما على صاحبٍ، فلَم يتَمَكّنْ بِشرٌ منهُ، وأمكَنَ الغُلامَ عِشرونَ طعنَةً في كُليَةِ بِشرٍ؛ كلّما مَسّهُ شَبا السّنانَ[٤٨]، حَماهُ عَن بَدَنِهِ، إبقاءً علَيهِ. ثمّ قالَ: يا بِشرُ، كيفَ ترى؟ ألَيسَ لو أرَدتُ، لأطعَمتُكَ أنيابَ الرّمحِ؟ ثمّ ألقَى رُمحَهُ، واستَلّ سَيفَهُ، فضرَبَ بِشراً عشرينَ ضربةً بعَرضِ السّيفِ، ولم يتَمَكّنْ بشرٌ من واحدَةٍ. ثمّ قالَ: يا بِشرُ، سَلّمْ عَمّكَ، واذهَبْ في أمانٍ. قالَ: نَعَمْ ولكنْ بشَريطَةِ أن تَقولَ لي مَنْ أنتَ. فقالَ: أنا ابنُكَ. فَقالَ: يا سُبحانَ اللّهِ! ما قارَنتُ عَقيلَةً[٤٩] قَطّ؛ فأنّي هذه المِنحَةُ؟ فَقالَ: أنا ابنُ المَرأةِ التي دَلّتكَ على ابنَةِ عَمّكَ. فَقالَ بِشرٌ:

تِلكَ العَصا مِن هذِهِ العُصَيّهْ! هَلْ تَلِدُ الحَيّةُ إلاّ الحَيّهْ[٥٠]؟

وحَلَفَ: لا رَكِبَ حِصاناً، ولا تَزَوّجَ حَصاناً[٥١]. ثمّ زَوّجَ ابنَةَ عَمّهِ لابنِهِ.

هوامش

(١) الحور: شدة بياض العين وسوادها، واستدارة حدقتها، ورقة جفونها. اللجين: الفضة.

(٢) دونه: أمامه. مسرح طرف العين: موضع ما يسرح النظر، أي حيث يسرح نظره متنقلاً في محاسنها. الخمصانة: الضامرة البطن. الحجلين، مثنى الحجل: الخلخال.

(٣) لأسفر الصبح لذي عينين: أي لظهر الفرق بين حسنها وحسني، ظهور الصبح لذي عينين.

(٤) ويحك: كلمة رحمة، وقد تكون بمعنى ويلك؛ تقول: ويح لزيد، فترفعها على الابتداء، وويح زيد، وويحاً له على النصب بفعل مضمر تقديره ألزمه الله ويحاً، ونحو ذلك.

(٥) الثنايا: جمع الثنية، وهي أربعة أضراس في مقدمة الفم، ثنتان من فوق، وثنتان من أسفل.

(٦) لوح: أشار إليه من بعيد. التعريض: ضد التصريح. والمراد أنها عرضت بذمه حين نبهته إلى ابنة عمه الحسناء، وهو غافل عنها، يتزوج غريبة بدلاً منها. خلوت جواً فاصفري وبيضي: أي أنه خلى سبيلها، وتركها آمنة. وهذا مثل أصله من قول كليب أو طرفة لقنبرة طارت بين يديه، فتركها ولم يتعرض لها، وقال فيها من شعر: خلا لك الجو فبيضي واصفري.

(٧) ما لم أشل: ما لم أرفع. الحضيض: القرار من الأرض عند منقطع الجبل، يقال فلان في الحضيض: أي في هوان وعار. والمراد أنه سيتزوج ابنة عمه، ويزيل ما لحقه من الذم والعار بتخليه عنها، وميله إلى النساء الغريبات.

(٨) ابنة عم لحا: أي لاصقة القرابة.

(٩) فآلى: حلف.

(١٠) ألا يرعي على أحد: أي أن لا يبقي على أحد.

(١١) المعرات: جمع المعرة، وهي الأذية والشر.

(١٢) نصفه: بلغ نصفه.

(١٣) قمص المهر: رفع يديه وطرحهما، وعجن برجليه من الفزع.

(١٤) اخترط سيفه إلى الأسد: أي استله ومشى به إليه.

(١٥) قطه: قطعه عرضاً.

(١٦) الخبت: المطمئن من الأرض، فيه رمل.

(١٧) الليث: الأسد، وكذلك الهزبر. زار: وتروى رام وأم. الأغلب: من صفات الأسد، والغليظ الرقبة.

(١٨) تبهنس: تبختر. تقاعس: أحجم وتأخر.

(١٩) أبدى نصالاً: أي كشر عن أنيابه. المكفهر: العابس من الغضب.

(٢٠) يكفكف: هو في الأصل يدفع ويصرف مثل كف المتعدي، على أن بديع الزمان استعمله هنا بمعنى يقبض ضد يبسط، ولم تذكره المعجمات فلعله مولد. غيلة: اغتيالا.

(٢١) يدل: يتيه مستعلياً. المخلب: ظفر كل سبع من الطير وغيره.

(٢٢) الماضي: السيف القاطع. المضرب: الحد. الأثر: أثر الجرح يبقى بعد البرء؛ استعاره هنا لما تركت مقارعة الموت في حد السيف من الفلول.
(٢٣) ألم يبلغك: خطاب للأسد يرجع إلى قوله فقلت له، وقد أبدى نصالاً. الظبي: جمع ظبة وهي حد السيف، واستعمل الجمع هنا على اعتبار أن كل جزء من حده ظبة. كاظمة: اسم موضع.
(٢٤) مصاولة: مواثبة. الذعر: بالفتح الإخافة والإرهاب.
(٢٥) فيم: استفهام عن السبب مثل لم. تسوم: تكلف. يولي: يطلب الهرب. قسراً: قهراً.
(٢٦) الهجر: الكلام القبيح والهذيان.
(٢٧) الوعر: ضد السهل.
(٢٨) سل السيف: جرده. وتروى: شققت، والمعنى: أنه عندما هز سيفه ازداد لمعانه، فكأنه سل به فجراً في الظلماء.
(٢٩) الجائشة: النفس. كذبته: أي منته الأماني وخيلت إليه من الآمال ما لا يكاد يتحقق. منته: أطعمته في الأماني. يقول: أقدمت عليه باذلاً نفسي له، بعد أن حاول إرهابي لأهرب منه، فأرته نفسي أن ما أطعمته من الغدر بي في ثباتها أمامه كان تأميلاً له وتخييلاً بعيد التحقيق. ما: مفعول ثان لأرته. وجملة بأن كذبته: مفعول ثالث. وغدرا: مفعول ثان لمنته. ووجه الكلام: أرته ما منته غدراً بي بأن كذبته، والباء زائدة.
(٣٠) من الأضلاع عشراً: تستعمل العرب عدد العشرة للدلالة على الكثرة، لأنه تمام العقد الأول.
(٣١) خر: سقط. مجدلاً: صريعاً على الجدالة وهي الأرض. المشمخر: العالي الذري.
(٣٢) فخراً: ويروى قهراً.
(٣٣) النكر: المنكر الذي لا تألفه النفس.
(٣٤) لا تجزع: لا تحزن.
(٣٥) ذا طرفين حراً: أي حراً من جهة الأب، ومن جهة الأم.
(٣٦) سورة الحية: سطوتها واعتداؤها.
(٣٧) همه: أي همته، ورجل بعيد الهم: أي طلاب للمعالي البعيدة المنال. العراء: الفضاء لا يستتر فيه بشيء.
(٣٨) ثكلته: حال أولى من الهاء في رآه، بمعنى أبصره. جاشت: أي هاجت حال ثانية. به: أي عليه. جائشة: وصف لمحذوف، أي حية هائجة. تهمه: أي تودع الهم في قلبه لما يتوقع من شرها.
(٣٩) قام: جواب لما رآه، وفاعله يعود إلى بشر. ابن الفلا: أي الحية، لأن الحيات العظيمة قلما توجد إلا في الفلوات. والفلا: جمع فلاة. يؤمه: يقصده. فيه: أي في فمه. كمه: يظهر أنه لف يده في كمه، وأدخلها في فم الحية.
(٤٠) عرضتك: أي عرضتك للهلاك.
(٤١) طمعاً في أمر: أي في تخليص ابنتي منك.

(٤٢) ثنى الله عناني عنه: أي ردني وصرفني عنه، كما يرد عنان الجواد ليسير إلى جهة غير الجهة التي كان يسير إليها.

(٤٣) شق القمر: أي فلقة من القمر.

(٤٤) وخرج: أي خرج للصيد الذي سمع حسه. والحس: الصوت والحركة التي تسمعها قريبة منك ولا تراها.

(٤٥) على قيل: على قيد رمح منه، أي مقدار طول الرمح.

(٤٦) أن قتلت: أي ألأن قتلت.

(٤٧) الماضغان: أصول اللحيين عند منبت الأضراس، واللحيان، مثنى اللحي: مكان ما تنبت اللحية، فقوله تملأ ماضغيك: أي تملأ فمك.

(٤٨) الموت الأحمر: القتل، أو الموت الشديد.

(٤٩) شبا السنان: حده.

(٥٠) العقيلة: المرأة الكريمة المخدرة. والمراد أنه لم يقارن بعد امرأة كريمة لتأتيه بمثل هذا الولد النجيب.

(٥١) العصا: فرس لجذيمة الأبرش. والعصية: أمها، ومنه المثل: لا يردها العصا غير العصية. والمراد: أن بشراً لم يعجب أن يكون الولد ابن تلك المرأة، فقد خبر ما عندها من ذكاء ودهاء.

(٥٢) الحصان بفتح الحاء: المرأة العفيفة.



الفصل الثاني

العصر الإسلامي

الشعر في صدر الإسلام

يتفق الشعر المخضرم مع الشعر الإسلامي في عدة نواحي في إيجازه وقوة تعبيره وطريقة نظمه وتعدّد موضوعاته وبداوة روحه. الشعر المخضرم جاهلي في أصله في حين أن شعراء الإسلام أدركوا ذلك فظهر تطور لافت في لغتهم وألفاظهم ووضحت معانيهم كأشعار الأعشى والحطيئة وعنترة. انفرد الشعر المخضرم عن الشعر الجاهلي بنفحته الدينية الجديدة التي نفحه بها الإسلام بعد ظهوره فلا ترى يأساً من الحياة وتبرماً بمصيرها، بل ارتياحاً شديداً إلى نعيم الآخرة، إلى الجنة التي وعد بها القرآن المتقين، كما يبدو في شعر حسان بن ثابت وعبدالله بن رواحة وكعب بن مالك، وهم من شعراء النبي.

اكتسب الشعر المخضرم تعابير جديدة من القرآن وألفاظاً لم تكن مألوفة من قبل كالجنة والنار والكفر والإيمان والصلاة والزكاة، بالرغم من أن هذه الألفاظ كانت معروفة في الجاهلية لكنها لم تكن تدل على معانيها المستحدثة في الإسلام. واكتسب أيضاً الشعر نوعاً جديداً هو الهجاء السياسي، وهو هجاء مقذع أليم كان بين شعراء النبي وشعراء قريش.

بعد موت النبي توقفت الشعراء عن التنافس والتلاحي وساد نوع من الفتور في الشعر، لكن طائفة من الشعراء لم تنصرف عنه.

من أبرز شعراء صدر الإسلام:

١ ـ **كعب بن زهير:** هو كعب بن زهير بن أبي سلمى المزني وأمه كبشة بنت عمار من بني غطفان، وهي امرأة زهير الثانية وأم أولاده الثلاثة كعب وبجير وسالم. كان والده زهير قد تزوج امرأة تكنى أم أوفى فلم يعش

له منها أولاد فتزوج كبشة وأقام في قومها. نشأ كعب في غطفان كأنه واحد منهم يشترك في مآتيهم حرباً وسلماً على أنه لم ينس أصله وقومه المزنيين. يقول ابن قتيبة: «لم يتصل الشعر في ولد أحد من الفحول في الجاهلية ما اتصل في ولد زهير». فأبو سلمى والد زهير كان شاعراً وكذلك بشامة بن العذير خاله وأوس بن حجر زوج أمه وزهير فضلاً عن أختيه سلمى والخنساء وابنيه كعب وبجير وأولادهما. في هذه البيئة الشعرية ترعرع كعب. اهتم به أبوه فراح يهذب ذوقه ويرويه الشعر حتى نبغ. ومن أخبار أبيه يروي أن الحارث بن الورقاء الأسدي أغار على غطفان واستاق إبل زهير وراعيه يساراً فأرسل إليه زهير قصيدة يهدد فيها بالهجاء إن لم يرجع المسلوب ولما لم يفعل هجاه فقال كعب: «أوسعتهم سباً وأودوا بالإبل» فرد الحارث الإبل والراعي. ومن مآتيه في الجاهلية أن أخاه بجيراً وقع بيد زبد الخيل فأرسل والده زهير فرس كعب ليفتدي بها ابنه، فنظم كعب قصيدة يتوعد فيها زيد الخيل ويهدد بالإيقاع بين قومه وحلفائهم. فتهيب زيد الخيل وعوض على كعب خسارته.

عندما ظهر الإسلام وأخذت رسالة النبي بالانتشار رغب كعب أن يعرف شيئاً واضحاً عن الدعوة الجديدة فقال لأخيه بجير: «إلحق الرجل وأنا مقيم ههنا فانظر ما يقول لك». فسار بجير إلى النبي وسمع منه فأعجبه الدين الجديد فأسلم ولم يعد. فلما علم كعب أن أخاه دخل الدين الجديد غضب وهجا المسلمين ونبيهم هجاءً مراً جعل النبي يهدر دمه قائلاً: «من لقي منكم كعباً فليقتله». زاد غضب النبي بعدما علم بالرسالة التي بعثها كعب لأخيه بجير يؤنبه على إسلامه ومن تلك الأبيات:

ألا ابلغا عني بجيراً رسالة:	فهل لك فيما قلت ويحك هل لكا
فبين لنا إن كنت لست بفاعل	على أي شيء غير ذلك دلكا

ظل كعب ينظم في هجو المسلمين حتى قويت شوكة الإسلام، خاصة بعد فوزهم في مكة وحنين والطائف وتبين أن النبي لا يهدد عبثاً فكل من هجاه قتل، فما كان من بجير إلاّ أن كتب إلى أخيه يقول: «إن رسول الله قد

أهدر دمك». حاول كعب أن ينجو فالتجأ إلى مزينة لتجيره فأبت عليه وتبرأ الناس منه، فما كان من كعب إلا أن نظم القصيدة المشهورة في مدح النبي وأتى المدينة فنزل متخفياً عند رجل كان له به سابق معرفة ودله إلى المسجد. وتكثر الروايات حول اتصال كعب بالرسول، منها أن الشاعر أتى النبي ملثماً وقال: «يا رسول الله أرأيت أن أتيتك بكعب بن زهير مسلماً أتؤمنه؟ قال: نعم. قال: «فأنا كعب بن زهير». أما اللامية التي نظمها فقد أنشدها للنبي في مسجد المدينة. ويقال أن النبي خلع بردته على كعب فور سماعه القصيدة. عاش كعب طويلاً بعد الإسلام توفي في حدود سنة ٦٦٢م.

اشتهر شعر كعب بلاميته التي نظمها في مدح النبي والاعتذار إليه. بدأها بالغزل على أسلوب الجاهلية وتخلص إلى مدح النبي مصوراً موقفه المضطرب من الوشاة وتمنع أصحابه عن إجارته. وعندما يذكر هيبة النبي يندفع متوسعاً في شجاعة الأسد الذي شبهه به ويختم بمدح المهاجرين.

يمتاز شعر كعب بعامة بدقة التصوير، مع الإشارة إلى أنه ابن زهير وتلميذه وأحد أفراد المذهب التصويري المادي. ومن أصحاب هذا المذهب زهير والنابغة ثم الحطيئة. ويمتاز شعر اتباع هذا المذهب بالصبر في تتبع الموصوفات واختيار مواد التشبيهات واختيار الألفاظ والتعابير. تأثر كعب بوالده زهير ويبدو هذا التأثير واضحاً في الميل إلى الحكم والاعتبارات العامة. وتتخذ الحكمة شكل النصيحة كما يلقي نظرة بصيرة يطل فيها على أعماق النفس البشرية فيقيس أتعابها ومشاقها بالنسبة إلى القدر وأحكامه. ومما يمكن قوله باختصار هو أن كعب بن زهير شاعر صناعة وثقافة لا شاعر طبع وفطرة وهو على مذهب أبيه زهير.

٢ ـ **حسان بن ثابت الأنصاري**: هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام من بني النجار من قبيلة الخزرج، ينتهي نسبه إلى قحطان، فهو يمني الأصل يثربي النشأة. كان يكنى أبا الوليد وأبا عبد الرحمن وأبا الحسام. وقد لقي حظوة في الجاهلية عند ملوك غسان فمدحهم فأفاضوا عليه النعم فحفظ لهم الجميل وبقي يذكرهم بالخير إلى آخر عمره. اشتهر حسان بجبنه فلم يجرد

سيفاً لنصرة الرسول ولا شهد واقعة من وقائع المسلمين وأهل الشرك، بل كان يتخلف في المنازل مع النساء والأولاد. حدثت صفية بنت عبد المطلب عنه، قالت: «كنت يوم الخندق في قارع حصن حسان بن ثابت وكان حسان معنا فيه مع النساء والصبيان، فمر بنا رجل من اليهود فجعل يطوف بالحصن وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين الرسول وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا ورسول الله والمسلمين في نحور عدوهم ولا يستطيعون أن ينصرفوا إلينا عنهم إذا آتانا آت فقلت: يا حسان إن هذا اليهودي كما ترى يطوف بالحصن وإني والله ما آمنه أن يدل على عوراتنا من وراءنا من يهود وقد شغل عنا رسول الله وأصحابه فأنزل إليه فاقتله، فقال حسان: يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا. فلما قال ذلك ولم أر عنده شيئاً اعتجرت ثم أخذت عموداً ونزلت إليه من الحصن فضربته بالعمود حتى قتلته. فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن فقالت: يا حسان انزل إليه فاسلبه فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل قال: «مالي إليه حاجة يا ابنة عبد المطلب». وأنشد حسان النبي يوماً قوله:

لقد غدوت أمام القوم منتطقاً	بصارم مثل لون الملح قطاع
تحفر عني نجاد السيف سابغة	فضفاضة مثل لون النهي بالقاع

فضحك النبي لوصفه حسان نفسه بما تصنف به الفرسان نفسها وهو يعلم جبنه.

عاش حسان طويلاً حتى مات بعدما كف بصره في أواخر أيامه وكانت وفاته بالمدينة في خلافة معاوية. وله من الآثار ديوان فيه قصائد كثيرة في المدح والهجاء والرثاء والغزل والفخر وهو من أصحاب المذهبات. يصعب تحديد السنة التي ولد فيها حسان ومال المستشرق نولدكه إلى جعلها سنة ٥٩٠ أو قبيل ذلك بقليل. أما تاريخ وفاته فهو في حدود سنة ٦٧٤م.

إقتصر نشاط حسان قبل ظهور الإسلام على تبادل المثالب بين قومه الخزرج وبين الأوس حيث كانت المنافسات والمشاحنات تقوى بينهما

فتتجاوز المفاخر والأهاجي لتصل إلى قذف الحجارة والمضاربة بالسعف والأعواد. كان حسان في طليعة شعراء الخزرج وقيس بن الخطيم في طليعة شعراء الأوس يتبادلان المثالب ويذكر كل منهما حرم الآخر. كما اتصل حسان بأمراء الغساسنة فكان يفد عليهم في مدح أمرائهم ويفتخر بالقرابة بينهم وبين قبيلته ناشراً مآثرهم وواصفاً غزواتهم حتى أصبح شعره من المصادر لتاريخ دولة الغساسنة. كما أصبح أيضاً من المصادر لتاريخ صدر الإسلام.

مدح حسان الكثير من الأمراء عمرو الرابع ابن الحرث السادس وأخاه النعمان السادس وجبلة بن الايهم. وقد أكرم الغساسنة حسان فأجزلوا له العطاء وجعلوا له مرتباً سنوياً فظل الشاعر يذكر نعمتهم حتى بعد إسلامه.

أسلم حسان وقومه الخزرج على أثر الهجرة وكان رسول الله ﷺ بحاجة إلى المساعدين فنصره اليثربيون بمالهم ورجالهم على قريش وغيرهم من العرب فسموا بالأنصار فبقي أن ينصر على من كان يهجوه من شعراء قريش وسائر المشركين. فناصر حسان الرسول بلسانه، وتقرب كثيراً منه وكان له منزلة خاصة لم تكن لأي من شعراء الصدر الأول فهو في نضاله عن النبي يصور حالة ذلك العصر أصدق تصوير ويمثل حقيقة تهاجي الأنصار والقريشيين وما في هذا الهجو من فحش وإقذاع.

في درسنا شعر حسان نطالع صفحة تاريخية جليلة ونطلع على فن جديد هو الشعر السياسي الصحيح لأن العرب في جاهليتهم عرفوا شيئاً منه في منافراتهم ومفاخراتهم، لكنه كان ضئيلاً ضعيف الأثر لا يستند في كثرته إلى عقيدة صحيحة. وربما قصد منه التكسب كما كان يفعل الأعشى والحطيئة والنابغة. لم تكن المنافرات في الجاهلية بالقوة التي كان عليه العنف بين أنصار الدين القديم وأنصار الدين الجديد، فانطلقت الألسنة حداداً لا للتكسب والاستجداء بل للدفاع عن سلطتين دينيتين زمنيتين تتنازعان البقاء. لا شك أن يترك هذا الجهاد أثراً قوياً في الأدب ويكون فاتحة الشعر السياسي الصحيح الذي ازدهر في صدر الإسلام. ونجد في هذا الشعر إفحاشاً شديداً لم نعهده من قبل فهو وليد عصبية قوية أحدثت في النفوس ميلاً غريباً إلى النكاية والتشفي.

كان هجو حسان على مراراته صادقاً لا تكلف فيه، لم يندفع الشاعر إليه حباً للتكسب والاستجداء بل ذوداً عن دين يؤمن به وبرسوله وأملاً بالثواب في الدنيا الباقية، فترى فيه ارتياحاً إلى حسن المصير لم يكن في عباد الأوثان من شعراء الجاهلية بل حمله إليهم الإسلام فأصبحوا وفي نفوسهم أمل كبير يجاهدون في سبيل نبيهم ودينه، لا بغية لهم غير الجنة التي وعدوا بنعيمها. نجد في شعر حسان ألفاظاً جديدة لم نعتاد عليها من قبل كقوله: جبريل أمين الله، روح القدس، أرسلت عبداً، شهدت رسول الله. هذه الألفاظ وغيرها أحدث القرآن معانيها الجديدة في الإسلام.

اتبع حسان في مدح النبي أسلوباً جديداً يختلف عن الذي اتبعه في الجاهلية فهو لم يشبه النبي بالأسد كما فعل كعب بن زهير ولا أمعن في وصف جوده وسخائه كمن يريد الاستجداء، بل شدد على وصف شمائله ورسالته والتصديق بها والنتيجة التي وصلت إليها من نور وهداية وأمل للعرب. وحسان في شعره الجاهلي كما في شعره الإسلامي لا يتسع له الخيال فأكثر قصائده قصيرة وأطولها لا يزيد عن الأربعين بيتاً. ولعل ضعف مخيلته يعود إلى العناية في ذكر الحوادث التاريخية أو إلى كبر سنه. وامتاز شعر حسان بالاقتضاب والقطع بما يشبه التخلص فهو لا يمعن في وصفه بل ينتقل بسرعة إلى غيره كمن ضاق صدره فطلب التنفس.

إن ضعف خياله حمل الأصمعي على الزعم أن شعر حسان في الجاهلية أجود منه في الإسلام وعلل ذلك بقوله: «الشعر نكد يقوى في الشر ويسهل فإذا دخل في الخير ضعف ولان، هذا حسان فحل من فحول الجاهلية فلما جاء الإسلام سقط شعره». وقيل لحسان: «لان شعرك أو هرم في الإسلام يا أبا الحسام». فقال: «يا ابن أخي ان الإسلام يمنع في الكذب وان الشعر يزينه الكذب». يريد بذلك أن التجويد في الشعر هو انطلاق الخيال والإفراط في الوصف والتزيين وذلك كله كذب.

امتاز شعر حسان باللين فهو ناتج عن نشأته فهو من شعراء القرى، والشعراء القرويون معروفون برقة شعرهم لتنعمهم وأخذهم بأسباب الحضارة بخلاف شعراء البادية. قال أبو عبيدة: «فضل حسان على الشعراء بثلاث:

كان شاعر الأنصار في الجاهلية وشاعر النبي في النبوة وشاعر اليمن كلها في الإسلام». قال الحطيئة: «أبلغوا الأنصار أن شاعرهم أشعر العرب حيث يقول:

يغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل

وكان النبي يقول لحسان: «اهجهم فوالله لشعرك أشد عليهم من نضح النبل في غلس الظلام». أما نحن فنرى أن حسان في شعره الجاهلي مجيد لكنه لم يبلغ شأن فحول الشعراء، أما في شعره الإسلامي فمجيد في بعضه، خاصة الهجو والفخر، وضعيف في أكثره لا سيما في مدحه ورثائه للرسول فحسان في الإسلام شاعر مؤرخ وشاعر مجدد وهو في دفاعه عن النبي طليعة الشعراء السياسيين.

الغزل الأموي

كان انتشار الغزل في الشعر الجاهلي ضعيفاً نسبة إلى الأغراض الشعرية الأخرى وكان الجاهليون يبدأون به قصائدهم خاصة في الوصف والمدح والفخر وسوى ذلك. وقوي الغزل في العصر الأموي مع تطور الحياة واختلاط العرب بالشعوب الأعجمية فرقت الأمزجة وتهذبت الأذواق. وكان لبني أمية من السلطان ما منع الغزو مما جعلهم يتطلعون إلى نواح أخرى فاهتموا بذواتهم وعبروا عن مشاعرهم، وكان الغزل من ثمار الاهتمام بما عندهم من فرح وحزن وقلق وأمل ويأس.

نشأ الغزل في منطقة الحجاز بسبب بعدها عن سياسة الأحزاب في الشام والعراق، وكان على نوعين:، بدوي وحضري. البدوي غلبت عليه العفة والرصانة لسذاجته وقربه من الفطرة وبعده عن ملاهي الحضارة وعرف أصحابه بالشعراء العذريين نسبة إلى قبيلة بني عذرة الذين اشتهروا بالحب الصادق العفيف؛ وأشهر العذريين جميل بن معمر وقيس بن ذريح وقيس بن الملوح أو مجنون ليلى. أما الغزل الحضري فلا يقتصر على وصف امرأة واحدة بعكس الغزل البدوي فالشاعر يتغزل بالمرأة ويهتم بسرد المغامرات الغرامية ويعمد فيه الشاعر إلى التملق ويتكلف الشوق والحرمان.

من أبرز شعراء الغزل في العصر الأموي

١ ـ **جميل بن معمر**: ولد جميل بن عبدالله بن معمر في وادي القرى بالحجاز ولا يعرف تاريخ مولده. أحب ابنة عمه بثينة فنسب إليها وقيل جميل بثينة. قيل إن الحب جمعهما عندما كانا صغيرين. فقد أطلق جميل إبله ترعى في وادي «بغيض» فاقبلت بثينة وضربت فصيلاً له عابثة فسبها وسبته وحلا

سبابها في أذنه وشكلها في عينيه وأحبها. انشغل جميل ببثينة ابنة عمه عن سائر النساء فكان شعره موجهاً إليها حتى تحدثت الناس عنهما ولقب بجميل بثينة. لكن والد بثينة زوجها إلى فتى من عذرة يقال له نبيه بن الأسود وفيه يقول جميل:

لقد انكحوا جهلاً نبيهاً ظعينة لطيفة طي الكشح ذات شوى خدل

زاد عشق جميل لبثينة بعد زواجها ولم يمنع ذلك من لقائها. وكان اخواتها يساعدونها على الاجتماع به. ولم يبق الأمر سراً بل علم به الجميع فهجاه الشعراء خاصة جواس زوج أم الحسين أخت بثينة. غضب قوم جميل بنو سفيان فجاؤوا إلى جواس ليلاً وهو في بيته فضربوه وأذوا امرأته أم الحسين فقال جميل:

هما جردا أم الحسين وأوقعا أمر وأدهى من وقيعة سالم

استاءت بثينة من جميل لهجائه أهلها فما كان من جميل إلا أن اعتذر لها. وقدم أهل بثينة شكوى إلى عشيرة جميل مهددين متوعدين حتى إذا أعياهم أمره وأباح لهم دمه إن وجدوه قد غشي دورهم فخدرهم مدة ثم وجدوه عندها فتوعدوا وكرهوا أن ينشب بينهم وبين قومه حرب فتقدموا بشكوى إلى مروان بن هشام الحضرمي والي تيما، فهرب جميل إلى اليمن وأقام هناك مدة إلى أن عزل مروان فعاد إلى دياره.

روى صاحب «الأغاني» أن رهط بثينة أخذوا يذيعون أن جميلاً يتبع أمه وأن بثينة لا علاقة لها به ويريدون إذلاله وتبرئة فتاتهم، فاحتدم جميل غيظاً وأراد تكذيبهم صوناً لسمعته وإن ساء إلى سمعة حبيبته، وهو صنيع لا يحمد عليه العاشق العذري. لكن خلق البداوة يغلب أحياناً عليه فواعد بثينة ببرقاء ذي خال فتحادثا ليلاً طويلاً ثم قال لها: هل لك أن ترقدي؟ قالت: ما شئت وأنا خائفة إن أصبحنا فوسدها إلى جانبه ثم اضطجع ولما نامت انسل وذهب وأفاقت صباحاً من مضجعها والحي يراها راقدة عند مبرك ناقة جميل فعلمت ما أراده جميل فهجرته مدة.

هاجر جميل إلى مصر هرباً من مروان بن الحكم والي المدينة وقد أهدر دمه فمرض هناك ومات في حدود سنة ٧٠١م. وقبل موته دعا برجل وقال له: بعد موتي خذ حلتي هذه وكل شيء سواها لك وارحل إلى بثينة على ناقتي هذه حتى إذا وصلت البس حلتي وأنشد هذه الأبيات:

صدع النعي وما كنى بجميل وثوى بمصر ثواء غير قفول
لقد أجر الذيل من وادي القرى نشوان بين مزارع ونخيل
بكر النعي بفارس ذي همة بطل إذا هم اللقاء مذيل
قومي بثينة فاندبي بعويل وابكي خليلك دون كل خليل

ولما أتى الرجل وأنشد هذه الأبيات صاحت بثينة واجتمع نساء الحي وبكين معها.

إن حب جميل لبثينة لم يخالطه هوى آخر على كثرة الفتيات اللواتي كن يتعرضن له وهن من عشيرته ليصرفنه عنها، فما هفا قلبه إلى سواها ولا استملح حديثاً غير حديثها ولا استعذب ثغراً سوى ثغرها. لم يقل الشعر بعدما أحبها إلا فيها، مات وذكرها في قلبه ولسانه. لم يقتصر شعره على وصف محاسن المرأة بل دخل إلى النفس ومشاعرها وآلامها وآمالها. هو صادق اللوعة عف الضمير واللسان، رصين التعبير، قلما قرأت له من الشعر ما يبعث الشك في عفته وعفة صاحبته إلا أبياتاً قليلة قد يكون الدافع إليها سخطة منه على بثينة إذا هجرته أو مالت إلى غيره. من أبياته يقول:

يموت الهوى مني إذا ما لقيتها ويحيا إذا فارقتها فيعود

ما أجمل الالتفات في شعره من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة وما أشد وقعه في النفس فإنه في كل التفاتة ينبه السامع ويبعث فيه نشاطاً جديداً للإصغاء إليه. وهو على تهالكه في حبها شجاع حمي الانف يهدد قومها: «فليت الرجال الموعدين لقومي»، وفخور معجب بنفسه: «يقولون من هذا وقد عرفوني»، وأنف يأبى الضيم ولو كان الحبيب الفاعل. يشكو في شعره إلى بثينة وما يعاني من حبها وما تصنع العواذل للتفريق

بينهما. اختلفت المصادر والأقاويل التي تروي عفة حبهما من جهة ومن جهة أخرى الريبة في خلواته مع بثينة.

ما يمكن قوله هو أن شعر جميل بن معمر أحلى من أخباره بصيانة وجه الجمال العذري الذي يحفظ للمرأة مقاماً رفيعاً ولا ينحدر بها إلى الفسق كالغزل الحضري ولا يستبدل بها غيرها. فإذا كان الحب العذري ينافي الطبيعة البشرية، فالغزل العذري أرفع شيء وصل إليه الشاعر في شرح هواه وبث عواطفه، وكان جميل يمثله أشرف تمثيل.

٢ ـ **عمر بن أبي ربيعة:** هو أبو الخطاب عمر بن عبدالله بن أبي ربيعة المغيري المخزومي القرشي، ولد في المدينة سنة ٢٣هـ (٦٤٤م) ووقعت ولادته يوم مقتل الخليفة عمر بن الخطاب فسمي باسم الخليفة وكُني بكنيته. كان والده عبدالله من سادة مكة وكان تاجراً غنياً وقريش تلقبه بالعدل لأنها كانت تكسو الكعبة في الجاهلية من أموالها سنة ويكسو هو من ماله سنة. فكان بذلك وحده عدلاً لهم. ومع ظهور الإسلام كان عبدالله مناهضاً للنبي فأنفق من أمواله في بدر وساهم في موقعة أحد. وعندما فتح النبي مكة أراد علي أن يقتله ثم وفد على النبي وأعلن تقبله الإسلام. وأقام النبي عبدالله والياً على اليمن. مات عبدالله قتلاً إثر سقوطه عن ناقته سنة ٣٥هـ. أما أم عمر فيمنية واسمها مجد. وكان لعمر إخوة من غير أمه، منهم عبد الرحمن والحارث عامل الزبير.

نشأ عمر في المدينة محاطاً بأسباب الترفيه والثراء وكان وسيم الطلعة نحيفاً أسمر طويل القامة، ما جلس في قوم إلا فرعهم طولاً وجهرهم جمالاً وبهرهم بياناً وكان هو يشعر بوسامته ويدل بها في شعره من حين إلى آخر. تلقن كل وسائل التعليم المعروفة في عصره من كتابة وقراءة وحفظ القرآن الكريم. عرف بلهوه وحبه للنساء فكان وهو في المدينة يتردد إلى القيان والمغنين، وكان وهو في مكة إذا دنا موسم الحج تزين بأحسن هندام وسار مع نفر من حشمه وغلمانه وانطلق يستعرض الجميلات ويتصفح الوجوه وينعم فيبدو موكلاً بالجمال يتبعه أينما وجد. تمنى عمر لَو كان دهره حجاً واعتماراً:

من يكن قلبه صحيحاً سليماً   فؤادي بالخيف أمسى معارا
ليت ذا الدهر كان حتماً علينا   كل يومين حجة واعتمارا

عرف عمر بدمث الأخلاق ولطف المعشر، وكان محبوباً من عشرائه ومن بعض الوجهاء والصحابة الأجلاء، يحسن التحدث إلى المرأة والاستماع إليها ولا ينقطع عن طلب غرضه حتى يظفر به. لم يمض حياته كلها في اللهو، فقد أقلع عن هذه الحياة عندما أطل على الشيخوخة، ومات في ظروف مبهمة؛ منهم من قال إن الخليفة عمر بن عبد العزيز نفاه إلى جزيرة وهلك في البحر الأحمر. ومنهم من قال إنه نظر إلى امرأة جميلة في الطواف فكلمها فلم تجبه فقال لها:

الريح تسحب أذيالاً وتنشرها   يا ليتني كنت فيمن تسحب الريح

فلما بلغها شعره قالت «لا أشكوه إلا إلى الله» ثم قالت «اللهم إن كان نوّه باسمي ظلماً فاجعله طعاماً للريح». ثم سافر على فرس له فهبت الريح فنزل ليستتر بشجرة فخدشته شوكة منها فمرض ومات. ومنهم من قال إنه مرض في آخر حياته ومات. هناك اختلاف حول سبب موته لكن المؤرخين متفقون على أن موته كان في حدود سنة ٩٣هـ (٧١٢م).

نرى في شعر عمر بن أبي ربيعة أنه لم يعرف الحب الصادق، فهو لم يحب بقلبه بل بعقله ولسانه، والدليل على ذلك تعدد محبوباته وقد ذكر في أشعاره ما يزيد عن عشرين امرأة، منهن نساء معروفات كالثريا بنت عبدالله وعائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين. ومنهن كتم أسماءهن فذكرهن بأسماء مستعارة، كأم زيد وأم عمرو. ومنهم جوار ومغنيات كحميدة والبغوم. يمكن القول إن عمر عرف الحب في أشكاله المتنوعة وكان أحياناً إباحياً يروقه الجمال وتغريه المتعة، وأحياناً أخرى يقنع بالنظرة والحديث. يتميز شعره بالرقة والسهولة والجزالة وصدق العاطفة، ومن شعره ما نظم للمغنين وراعى فيه مقومات الاستساغة في مجالس اللهو فجعله على أوزان قصيرة لكي يسهل تلحينه. جاء شعر عمر مسرحاً لعرض مراحل حياته وصوراً لعواطفه والحوادث التي حدثت معه. ولعل أبرز خصائص شعره أنه

يقتصر على موضوع واحد هو المرأة، وقد ذكر أن سليمان بن عبد الملك لقيه مرة وقال له: «لماذا لا تمدحنا؟» فقال: «أنا لا أمدح الرجال إنما أمدح النساء». توصل عمر في شعره إلى معرفة أمور دقيقة في الحب وأطواره وحياة النساء فأصبح عمر صاحب مدرسة في الغزل وخير مصدر لدرس أحوال المرأة الحجازية وعاداتها وأخلاقها ومكانتها وتفكيرها.

نلاحظ في شعر عمر السرد القصصي الذي امتاز به حتى جعل أشخاص قصصه حية متحركة يحاورها كأنها ماثلة أمامه. ما يمكن قوله إن عمر بن أبي ربيعة هو شاعر محبب إلى الناس خفيف الظل يرتاح القارىء لشعره لما فيه من تمثيل صحيح لنفس صاحبه ولنفسية المرأة في عصره وفي كل عصر. وقد جمع بين سذاجة الحياة العربية وما فيها من طابع البداوة وظرف الحضارة الجديدة وطلاوتها.

الشعر السياسي

نشأت الأحزاب السياسية في أواخر صدر الإسلام وأوائل العصر الأموي فكنا أمام حزب أموي وحزب الشيعة وحزب الخوارج والحزب الزبيري كلها تدعو إلى حقها في الحكم. لم تكن الخلافات القائمة بينها مقتصرة فقط على الآراء والمواقف والحروب بل تعدت إلى الشعر فكان لكل حزب عدد من الشعراء يدافعون عن مبادئه ويهاجمون الخصوم.

من أبرز الشعراء السياسيين:

١ ـ **الأخطل**: هو غياث بن غوث بن الصلت التغلبي وأمه ليلى من بني إياد. ولد في الحيرة في حدود سنة ٦٤٠م، كان يُكنى أبا مالك ومالك هو ابنه البكر ويلقب بذي الصليب لأنه كان نصرانياً يعلق الصليب على صدره. لقب بالأخطل، واختلف المؤرخون حول تحديد معنى الأخطل، قال ابن قتيبة: «الأخطل هو الخطل وهو استرخاء الأذن»، وقال أبو عبيدة إن الشاعر هجا رجلاً من قومه وهو يافع فقيل له: «يا غلام إنك لأخطل»، والخطل هنا هو الالتواء في الكلام والسفه والبذاءة وسلاطة اللسان. اتصل الأخطل ببني أمية وغدا شاعرهم بعد مهاجمته الأنصار، وكان الخلاف بين الأمويين والأنصار قد بلغ ذروته في معركة صفين، إذ كانوا إلى جانب علي يحاربون معاوية. وعندما قتل الإمام علي استأثر بنو أمية بالسلطة وخضع لهم أهل المدينة. لكن، بقيت بعض الألسن تهجو الأمويين. وقد تجاوز الشاعر عبد الرحمن بن حسان بن ثابت مظاهر الهجاء السياسي إلى التشبيب برملة بنت معاوية فغضب أخوها يزيد وراح يبحث عن شاعر من حزب الأمويين يهجو الأنصار فلم يجد سوى كعب بن عجيل خصم الأخطل، فدله كعب

على الأخطل قائلاً: «أدلك على غلام منا نصراني كأن لسانه ثور». وقد أراد كعب بذلك أن يرمي الأخطل بداهية، ولم يدر في خلده أنه يمهد له بذلك طريق الشهرة. وسرعان ما وضع الأخطل قصيدته اللاذعة في هجو الأنصار ومطلعها:

لعن الإله من اليهود عصابة ... بالجزع بين جلاجل وصرار

وإذا نسبت ابن الفريعة خلته ... كالجحش بين حمارة وحمار

ذهبت قريش بالمكارم والعلى ... واللؤم تحت عمائم الأنصار

رضي الأمويون، خاصة يزيد، بالحط من أعدائهم السياسيين ما يرضي البدو من العرب. وأوفد الأنصار شاعرهم النعمان بن بشير إلى معاوية وكان النعمان موالياً للأمويين فدخل عليه غاضباً وقال له: «ألؤما ترى يا أمير المؤمنين؟ فقال: «لا بل أرى كرماً وخيراً» قال: «زعم الأخطل أن اللؤم تحت عمائمنا» فسكن معاوية من غضبه ووعده بأن يهبه لسان الأخطل، فاحتمى الشاعر بيزيد الذي حماه، فراح شعراء الأنصار يهجون الأخطل، وفي مقدمهم النعمان بن بشير وحسان وابنه حتى وصل حسان إلى تهديد معاوية بالثورة، فهجاهم الأخطل بأبيات مؤلمة واتصل الأخطل بالأمويين وأصبح شاعرهم الخاص.

إحتل الأخطل منزلة خاصة ومتميزة عن غيره من الشعراء الأمويين، فقد كان يرافق يزيداً في أسفاره ويقيم في حاشيته حتى مماته فرثاه الشاعر. دب الخلاف على أثر خلافة معاوية الثانية فأدى إلى معركة مرج راهط، وكان من نتائجها أن انتقلت الخلافة إلى مروان بن الحكم. ثم توالت المعارك بين القيسيين من جهة واليمنيين والتغلبيين من جهة أخرى. وكان لهذه المعارك نتائج سياسية بارزة أهمها الإقرار بالخلافة للأمويين، وكان قوم الشاعر التغالبة قد ساهموا بسيوفهم في إقرار سلطة الأمويين. كذلك، ساهم الأخطل بلسانه في تأييد هذه السلطة، وأعطاه الخليفة عبد الملك منزلة خاصة فقال «لكل قوم شاعر وشاعر بني أمية الأخطل» حتى غدا الأخطل يدخل عليه متى شاء.

وفي سنة ٧٠٥م توفي عبد الملك وتسلم ابنه الوليد الخلافة، وكان

أكثر تقيداً بالدين وبغيرته على الإسلام وأقل ثقافة وولعاً بالأدب والشعر من أبيه. وبدأ نفوذ التغلبيين يتضاءل، خاصة النصارى منهم، فأقام الخليفة الأخطل ووضع مكانه عدي بن الرقاع شاعراً رسمياً. توفي الأخطل في خلافة الوليد سنة ٧١٠م بعد عمر ناهز السبعين، وظل مهتماً في مدح الوليد وهجاء جرير. وهو على فراش الموت، ودع أصحابه وتحدى أعداءه بقوله:

وزار القبور أبو مالك ... برغم العداة وأوتارها

كان الأخطل أشهب اللحية يجدل شعره المتدلي ضفيرتين على زي البدو، وظل متخلقاً بأخلاق البداوة حتى إذا نزل دمشق لا يستقر فيها إلا في بعض الحانات. أخلص لبني أمية على الرغم من سخط العلويين والأنصار عليه وعلى قبيلته. تعلق وتفاخر بنصرانيته وخضع لرجال دينه. بعد وفاته تداولت أشعاره من المدح والهجاء بين كبار الخلفاء الأمويين والعباسيين.

اتبع الأخطل في شعره طريقة القدماء وجدد في بعضها حتى كاد يصنع منها فناً حديثاً. أما الفن الذي تفوق به دون شك فهو المدح، وقد كان هذا الموضوع لا يتجاوز مظاهر البيئة الفردية أو القبيلة من كرم وشجاعة وإغاثة ملهوف. انتقل من المدح القديم إلى ابتدائيات الشعر السياسي. فمع اتساع رقعة الدولة العربية بعد الإسلام واجتماع القبائل المتنافرة فتح مجال أمام الشعر السياسي الصحيح، فكان لكل حزب شاعر يؤيد فضائله ونضاله وخصائص زعمائه. هكذا كان حال الأخطل يمدح الخلفاء الأمويين خاصة يزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان وابنه الوليد، ومن كبار قومه مدح جدار بن عتاب التغلبي وهمام بن مطرف التغلبي.

من خصائص الشعر السياسي نشر الدعوة لحزبه ولأبنائه فهو لا يتعارض مع الدولة بل يعمل على إظهار فضلها وصحة أعمالها، وهذا ما قام به الأخطل حتى أصبح شاعر بني أمية الخاص. كان مر اللسان يهجو أعداء الأمويين، ومن المتفق أن أعداء بني أمية هم أيضاً أعداء الشاعر. فكانت مصلحة بني تغلب، قوم الشاعر، ومصلحة الدولة واحدة. إن شعر الأخطل يمتاز بطول النفس وسلامة التعبير وحسن السبك، وقد أجمع القدماء أن

الأخطل كان ينقح شعره، فكان إذا اجتمع له تسعون بيتاً اختار منها ثلاثين. كان له اطلاع واسع على شعر القدماء وميل خاص إلى شعر النابغة، فجمع في ذلك قوة في التصوير ووضع استدارات تشبيهية تظهر فيها الموصوفات جلية، وإذا كان مديناً بشيء للنابغة ففي قوة المخيلة ورهافة الحس، كما يلتقي مع النابغة بطول النفس وحسن وقع المعاني التي فاق بها الأخطل عدداً كبيراً من المتأخرين والمتقدين.

٢ ـ **الفرزدق**: هو أبو فراس همام بن غالب بن صعصعة بن دارم من بني تميم. كان جده من أشراف قومه في الجاهلية اشتهر بمأثرة بالغ فيها الرواة وافتخر بها الفرزدق. اشتد الجدب وفشا الجوع بين الناس وعمد بعضهم إلى دفن بناتهم حيّات ساعة ولادتهن، فقام صعصعة يفتدي الموؤودات. وكان والد الفرزدق من أشراف قومه واشتهر بالكرم.

ولد الفرزدق في حدود السنة العشرين للهجرة (٦٤٠م) في البصرة وكان في جهامة وجهه وضخامة قسماته وآثار الجدري فيه ما لفت نظر الناس فلقبوه بالفرزدق، ومعناه الرغيف المنتفخ. كان مزواجاً مطلقاً لا يكاد يخلص لامرأة ولا تكاد امرأة تصبر على أخلاقه. تعصب لقبيلته وافتخر بمآثرها وتنبه إلى حقوقها وكان مستعداً للدفاع عنها عند ذوي السلطان.

مارس الفرزدق الشعر منذ صباه ومال إلى الهجاء ثم أقلع عنه وأصبح يعالج الآيات القرآنية. وقد جاءته يوماً نساء بني مجاشع شاكيات من هجاء جرير لهن، فعاد إلى الشعر مجدداً يهجو جريراً. وقد سأل بشر بن مروان الأخطل عنهما فقال: «الفرزدق ينحت الصخر وجرير يغرف من بحر»، فلم يرض جرير بهذا الحكم وبدأ عهد الهجاء بينه وبين الأخطل. أما الفرزدق فشكر الأخطل. وبعد وفاة الأخير أقام نفسه شاعراً للتغلبيين. هجا الفرزدق من الشعراء مسكين الدارمي والطرماح الطائي. وعاش طويلاً فقارب المئة وتوفي سنة ١١٤هـ (٧٣٢م).

حفظ الفرزدق الكثير من الشعر الجاهلي وحاول حفظ القرآن الكريم لكنه اكتفى بحفظ قصصه ورددها في شعره. كان كثير الأحاديث حلو

القصص عذب الأسلوب، سريع الجواب، حاضر النكتة، كثير الدعابات وتتداخل دعاباته أحياناً بذاءة اللفظ وفحش القول.

مارس الفرزدق جميع أنواع فنون الشعر التقليدية، لكن الفخر عنده برز أكثر من غيره. حتى في الهجاء كان الفخر بارزاً، أما الرثاء عنده فنوعان: شخصي يرثي فيه أباه وأقرباءه وهو رثاء أقرب إلى الفخر، ورسمي يرثي فيه أرباب السلطان كسليمان بن عبد الملك وبشر بن مروان والحجاج بن يوسف. ومدح الفرزدق يفتقر إلى الإخلاص. تعطي مدائحه صورة عن شؤون الإدارة والاجتماع، فشعره مصدر للتاريخ الأموي جدير بالاهتمام.

يمتاز شعر الفرزدق بطابع السرد القصصي والسرد من مواهب الشاعر، ولو كان للقصة الفنية مقومات معروفة لكان شاعرنا في طليعة أربابها، فله لمحات مختصرة حول قصة آدم وحواء وغرق فرعون في البحر الأحمر. الواقع أن قصائد الفرزدق تمتاز بجزالة تأخذ من قلب السامع بجمال خاص يستند إلى عناصر الكثرة والقوة، لكن الفرزدق أهمل بالمقابل شروط التعبير الصحيح أحياناً وقواعد الصناعة التي تنبه النحاة إلى إهمالها. وكان يستعمل مفردات مهجورة وتعابير قديمة جافة وقد سر أرباب اللغة بذلك فقال بعضهم: «لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب».

٣ ـ ابن قيس الرقيات: هو عبيد الله بن قيس بن شريح بن مالك بن ربيعة المعروف بابن قيس الرقيات. لقب بالرقيات لأنه شبب بثلاث نسوة سمين جميعاً رقية، وهن: رقية بنت عبد الواحد بن أبي سعد من أنسباء الشاعر، وابنة عم لها يقال لها رقية، وامرأة من بني أمية اسمها رقية.

هو شاعر قرشي مشهور نبغ في العهد الأموي وأدى دوراً سياسياً أثناء الثورة الزبيرية. هرب الشاعر إلى الكوفة بعد مقتل مصعب بن الزبير في معركة مسكن على نهر دجيل سنة ٧٣هـ (٦٩٢م) والتجأ إلى عبدالله بن جعفر بن أبي طالب فخص به كثيراً من مدائحه. عندما التقى ابن الرقيات عبدالله بن جعفر قال له: ما نفعني أماني؟ تركت حياً كميت لا آخذ مع الناس عطاء أبداً. فقال له عبدالله: كم بلغت من السن؟ قال: ستين سنة. قال: فعمر

نفسك قال: عشرين سنة لأبلغ الثمانين. قال: كم عطاؤك؟ قال: ألفا درهم فأمر له بأربعين ألف درهم. وقال: ذلك علي لك إلى أن تموت عند ذلك نظم عبيد الله بن قيس الرقيات مقطوعة يمدح بها عبدالله بن جعفر:

تقدت بي الشهباء نحو ابن جعفر   سواء عليها ليلها ونهارها
تزور امرأ قد يعلم الله أنه   تجود له كف قليل غرارها
أتيناك نثني بالذي أنت أهله   عليك كما يثني على الروض جارها

ولابن قيس الرقيات فضلاً عن المدح شعر في الفخر والحماسة وخاصة الغزل. فقد حدث أن التقى قيس برقية بنت عبد الواحد في الطواف تهم بتقبيل الحجر، وكان قد قصد الطواف مع فند مولى عائشة بنت سعد بن أبي وقاص. فأهوى ليستلم الركن ويقبله فصادفها قد سبقت إليه فنفحته بردنها فعلق به أثر الطيب، فقال في ذلك:

سائلاً فنداً خليلي   كيف أردان رقية؟
إنني علقت خودا   ذات دل بختريه

توفي الشاعر في حدود عام ٧٠٥م (٨٦هـ) وقد تناثر شعره في «رسالة الغفران» للمعري و«الأغاني» للأصفهاني و«خزانة الأدب» للبغدادي، ويعد شعره من المصادر المهمة في تاريخ النصف الأول من العهد الأموي إذ يصور أحداث تلك الحقبة بدقة، وكان في انتقال الشاعر من حزب إلى آخر مادة لتصوير الآخذين بالنزعات المتعددة في ذلك العصر.

٤ ـ **كثير عزّة**: هو كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن ربيعة من بني عامر، توفي في ولاية يزيد بن عبد الملك سنة (١٠٥هـ). هو من غلاة الشيعة وأحد عشاق العرب المشهورين وصاحب عزة بنت جميل بن حفص، وله معها حكايات ونوادر مشهورة. كان كثير يزعم أن محمد بن الحنفية لم يمت وأنه سيعود يوماً، وفي ذلك يقول:

ألا قل للوصي فدتك نفسي   أطلت بذلك الجبل المقاما
أضر بمعشر والوك منا   وسموك الخليفة والإماما

للشاعر الكثير من الأبيات تتكلم عن عزة التي التصق اسمها باسمه وأول علاقته بها أنه خرج من منزله يسوق غنمه فالتقى نسوة وسألهن ماء فقلن لعزة: ارشديه إلى الماء. فأرشدته وأعجبته ثم جاءته عزة بدراهم وقالت: يقلن لك النسوة، بعنا بهذه الدراهم كبشاً من ضأنك. فأمر الغلام فدفع إليها كبشاً، وقال: ردي الدراهم وقولي لهن: إذا رحت بكن اقتضيت حقي. فلما مر بهن قلن له: هذا حقك فخذه، فقال: عزة غريمي ولست أقتضي حقي إلا منها. ومضى لوجهه ثم رجع إليهن حين فرغ من بيع غنمه وأنشدهن في عزة:

نظرت إليها نظرة وهي عاتق ... على حين أن شبت وبان نهودها
وقد درعوها وهي ذات مؤصد ... مجوب ولما يلبس الدرع ريدها
من الخفرات البيض ود جليها ... إذا ما انقضت أحدوثة لو تعيدها

الخطابة في العصر الإسلامي

الخطابة كلام نثري فني يلقى شفاهاً في جمهور من الناس لحملهم على اتخاذ موقف معين أو اعتناق مبدأ ما أو رفض حالة قائمة. ومن أجل الإقناع يعتمد هذا الفن على العاطفة والخيال أكثر من اعتماده على التحليل المنطقي وعلى الإيجاز البليغ. انتشر فن الخطابة في العصر الجاهلي انتشاراً واسعاً لكنه لم يبلغ ذروته كما حدث في العصر الإسلامي. فقد كان الجاهليون يستخدمون الخطابة في منافراتهم ومفاخراتهم وفي النصح والإرشاد وفي الحث على القتال والدعوة إلى السلم وغير ذلك. من أبرز خطباء العصر الجاهلي عتبة بن ربيعة، خطيب قريش يوم بدر، وسهيل بن عمرو الإعلم في مكة، وقيس بن الشماس وابنه ثابت خطيب الرسول، وربيعة بن حذار خطيب بني أسد، وسواهم.

أَحَب العرب هذا النوع من الفن خاصة مع قيس بن ساعده الايادي الذي يعتبر نموذجاً للخطابة الجاهلية فهي تقوم على السجع والجمل القصيرة المتقطعة واستعمال التعابير المؤثرة. وقد سمع الرسول بعضهم يخطب أمامه فقال: «إن من البيان لسحراً».

الخطابة في صدر الإسلام

كان الرسول يخطب العرب ويدعوهم إلى دينه الحنيف والدخول في طاعة الله ومحبته. ولما هاجر إلى المدينة أصبحت الخطابة فريضة مكتوبة في صلاة الجمعة والعيدين. وبذلك عرف العرب تنظيماً للخطاية لم يكن معروفاً، وقد ترك الرسول تراثاً ضخماً من الخطب لم يصلنا منه إلا القليل. فمن الخطب القصيرة قوله: «إن المؤمن بين مخافتين: بين عاجل قد مضى لا يدري ماالله صانع به وآجل قد بقي لا يدري ماالله قاض به».

اتبع الخلفاء الراشدون خطى الرسول في الخطابة فابتعدوا عن السجع وافتتحوا بحمد الله وتمجيده والصلاة على رسوله، وكانوا يستعينون بآيات قرآنية وببعض أحاديث النبي. جاء في خطبة للخليفة الراشدي أبي بكر الصديق:

«إلا أن أشقى الناس في الدنيا والآخرة الملوك، إلا أن الفقراء هم المرحومون، إلا أنكم اليوم على خلافة النبوة ومفرق المحجة وأنكم سترون بعدي ملكاً عضوضاً وملكاً عنوداً وأمة شعاعاً ودماً مفاحاً. فإن كانت للباطل نزوة ولأهل الحق جولة يعفو لها الأثر وتحيا بها الفتن وتموت لها السنون فالزموا المساجد واستثيروا القرآن واعتصموا بالطاعة ولا تفارقوا الجماعة».

من أبرز خطباء العصر الإسلامي:

١ ـ **علي بن أبي طالب**: هو أبو الحسن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب القرشي. ولد في مكة المكرمة في حدود سنة ٦٠٠م. توفي والده وهو في السادسة من العمر فتكفله ابن عمه النبي، وتولى تربيته فنشأ على حبه وتبعه في دعوته، فكان أول من أسلم بعد خديجة. وقد أظهر غيرة على الدين والتضحية في سبيله. بعد وفاة الرسول كثر أعداؤه وكانت معركة الجمل وصفين الحد الفاصل لحياته، فقد قتل الإمام علي في ١٧ رمضان سنة ٤٠هـ (٦٦١م) على يد الخارجي عبد الرحمن بن ملجم المرادي.

يعتبر علي بن أبي طالب من أركان الخطابة في العصر الإسلامي، وقد تداولت أقواله من جيل إلى جيل. كان متواضعاً قنوعاً ميالاً إلى الزهد، أظهر في خلافته غيرة على مصلحة المسلمين وشجاعة نادرة في الحروب. ترك الكثير من المؤلفات جمعت في كتاب «نهج البلاغة» وتعتبر الخطب التي ألقاها من أكثر الخطب بلاغة وصدقاً. كان اتباعة ينظرون إليه نظرة تقديس اشتدت وتضاعفت بعد مقتله والتنكيل بأبنائه وأحفاده. كان يخطب في المقاتلين وفي المؤمنين فيظهر روح الفروسية والبطولة والتقشف والورع والتفقه بأمور الدين. هو شخصية غنية جذابة حامت حولها الأقلام ووضعت في نتاجها المؤلفات، تميز بإيمانه الراسخ بحقه هو الذي حمله على الغضب

الشديد والإخلاص، وخير دليل على ذلك الخطبة التي ألقاها الإمام عندما أغار سفيان بن عوف الأسدي بجيش معاوية على الأنبار وقتل عامل علي عليها. بعض ما جاء فيها:

«يا أشباه الرجال ولا رجال حلوم الأطفال وعقول ربات الحجال لوددت أني لم أركم ولم أعرفكم معرفة والله جرت ندماً وأعقبت سدماً. قاتلكم الله لقد ملأتم قلبي قيحاً وشحنتم صدري غيظاً وجرعتموني نغب التهمام أنفاساً وأفسدتم علي رأيي بالعصيان والخذلان. حتى قالت قريش: أن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب. لله أبوهم وهل أحد منهم أشد لها مراساً وأقدم فيها مقاماً مني؟ لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين وها أنا قد ذرفت على الستين لكن لا رأي لمن لا يطاع».

٢ ـ **زياد بن أبيه**: هو زياد بن أبيه أو زياد بن سمية أحد دهاة العرب وقادتها ومن الخطباء المشهورين. كانت أمه أمة للحارث بن كلدة الثقفي الطبيب العربي. ولد زياد في السنة الأولى للهجرة. عينه الإمام علي بن أبي طالب والياً على خراسان فاستطاع بذكائه أن يقضي على الفتن والثورات. أدرك معاوية فطنة زياد فوضعه والياً على البصرة وخراسان وسجستان والسند والبحرين وعمان والكوفة وعرف باسم زياد بن أبي سفيان. أشهر خطب زياد عرفت باسم «البتراء»، أو خطبة الولاية، وقد سميت بالبتراء لأن صاحبها لم يبدأ بالتحميد فبدت بذلك كأنها مبتورة. تمتاز خطبه بألفاظ مختارة لها وقع شديد في الأذن والقلب، فيها ضروب من الصور البيانية كالتشبيهات والاستعارات. غير أنه لا يعتمد السجع، وهي محكمة التنسيق على تسلسل في الأفكار وتكامل في المعاني.

«أما بعد فإن الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء والفي الموفي بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام التي ينبث فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير كأنكم لم تقرأوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته في الزمن السرمدي الذي لا يزول».

٣ ـ **الحجاج بن يوسف:** هو أبو محمد الحجاج بن يوسف بن الحكم من قبيلة ثقيف. ولد في الطائف سنة ٤٢هـ وبدأ حياته يعلم الصبية، ثم انتقل إلى الشام واتصل بوزير عبد الملك روح بن زنباع فجعله في شرطته. وذكر ابن عبد ربه أن الخليفة عبد الملك رأى انحلال عسكره فشكا ذلك إلى روح بن زنباع فقال له: «إن في شرطتي رجلاً لو قلده أمير المؤمنين أمر عسكره لأرحل الناس برحيله وأنزلهم بنزوله، ويقال له الحجاج بن يوسف. قال: فإنا قد قلدناه ذلك. فتسلم الحجاج أمر العسكر وتشدد عليهم وأكرههم على الطاعة. يقول ابن خلكان: «وكان للحجاج في القتل وسفك الدماء والعقوبات غرائب لم يسمح بمثلها ويقال: إن زياد بن أبيه أراد أن يتشبه بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب في ضبط الأمور والحزم والصرامة إلا أنه أسرف وتجاوز الحد وأراد الحجاج أن يتشبه بزياد فأهلك ودمر».

مات الحجاج في وسط عن عمر يقارب أربع وخمسين سنة بسبب أكلة في بطنه وإصابته بالزمهرير، فكانت الكوانين تجعل حوله مملوءة ناراً وتدنى منه حتى تحرق جلده وهو لا يحسّ بها. وشكا ما يشعر به إلى الحسن البصري فقال له: قد كنت نهيتك ألا تتعرض للصالحين فلججت، فقال له: يا حسن لا أسألك أن تسأل الله أن يفرج عني بل أن يعجل قبض روحي ولا يطيل عذابي.

قيل إن عدد الذين قتلهم الحجاج كان عشرين ألفاً ومئة ألف وكان في سجنه بعد موته خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة. ومن أبرز الخطب التي كان يلقيها الحجاج خطبة الولاية المشهورة عندما عينه الخليفة عبد الملك والياً على العراقين، وبعض ما جاء فيها:

«أنا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفوني

والله يا أهل العراق يا معدن الشقاق والنفاق ومساوىء الأخلاق لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها. وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى. إن أمير المؤمنين نثر كنانته فعجم عيدانها فوجدني أمرها عوداً وأصلبها مكسراً فوجهني إليكم ورماكم بي».

اشتهر الحجاج بسياسة العنف الشديد، وأيضاً بفصاحته وبلاغته وحفظ الشعر الغريب. ويقول المبرد عنه: «كان إذا صعد المنبر تكلم رويداً فلا يكاد يسمع ثم يتزيد في الكلام حتى يخرج يده من مطرفه ويزجر الزجرة فيفزع بها أقصى من في المسجد».

النثر الفني في العصر الإسلامي

١ ـ في صدر الإسلام: أثر القرآن الكريم تأثيراً واضحاً في ازدهار النثر وانتشاره لا سيما في الخطابة ورسائل الدواوين. وشجع النبي الكتابة، فقد كان يراسل الملوك والأمراء ويدعوهم إلى الإسلام ويتوخى إيصال فكرته وتبليغ دعوته دون تكلف. سار الخلفاء الراشدون على طريقته فكان همهم الوضوح ومتانة اللغة.

٢ ـ في العصر الأموي: تطور النثر الفني في العصر الأموي بسبب ازدهار الحياة العامة وتحضر العرب والتبادل بين الدولة الإسلامية والأجانب، فضلاً عن الدين الذي يتضمن قواعد روحية ومدنية. ومع تقدم العصر الأموي رأى العرب حاجة إلى تدوين كل المعارف على أنواعها، وظهرت مؤلفات دينية وتاريخية تتكلم عن تاريخ الإسلام والنبوة ومؤلفات تتكلم عن ملوك وأمراء وشعراء أيام العصر الجاهلي. كما اهتموا بإتقان كتابة الرسائل من حيث تنظيم الأفكار وتنميق اللفظ واختيار ما يروق منه للقارىء. ويروى أن المهلب بن أبي صفرة أراد أن يخبر الحجاج عن بعض حروبه فاستقدم كاتبه يحيى بن يعمر ووجه إلى الحجاج هذه الرسالة القصيرة:

«إنا لقينا العدو فمنحنا الله أكتافهم مقتلنا طائفة وأسرنا طائفة ولحقت طائفة برؤوس الجبال وأسافل الأودية ومداخل الكهوف وبتنا بأعالي الجبل وبات العدو بحضيضه».

ومن أبرز الناثرين في العصر الأموي:

عبد الحميد الكاتب: هو عبد الحميد يحيى بن سعد مولى بني عامر بن لؤي بن غالب القرشي. بدأ حياته معلماً للصبية في الكتاتيب. التحق

بديوان الرسائل أيام هشام بن عبد الملك ثم بمروان بن محمد. لازم أميره وبقي معه حتى بعد أن انتصرت عليه الجيوش العباسية، ففر معه إلى مصر حيث قتلا في موقعة بوصير سنة ١٣٢هـ (٧٤٩م). ويروي المسعودي أن مروان قال له حين أيقن بزوال ملكه: «قد احتجت أن تصير مع عدوي وتظهر الغدر بي فإن أعجابهم بأدبك وحاجتهم إلى كتابتك يحوجهم إلى حسن الظن بك» فقال له عبد الحميد: «إن الذي أشرب به علي أنفع الأمرين لك وأقبحها بي وما عندي إلا الصبر حتى يفتح الله تعالى أو أقتل معك».

ترك عبدالحميد عدداً من الرسائل لم يصلنا إلا بعضها وهي رسالة ولي العهد ورسالة الكتاب ورسالة الشطرنج فضلاً عن أقوال متناثرة تناقلتها الكتب.



إن فن الكتابة تطور في العصر الأموي بفضل كتابات ورسائل عبد الحميد، فاتصف أسلوبه بالوضوح وبالألفاظ والمعاني الغريبة وسرد الفكرة الواحدة بعبارات متنوعة ليفهمها القارئ ويرتاح لسماعها. ويعتبر عبدالحميد مدرسة نثرية قائمة بحد ذاتها.

نماذج من العصرين الإسلامي والأمــوي

كعب بن زهير

بـانَـتْ سُـعـادُ، فَـقَـلْـبـي مَـتْـبُـولُ — مُـتَـيَّـمٌ إثْـرَهـا، لَـمْ يُـفْـدَ، مَـكْـبُـولُ[١]
وما سُعادُ، غداةَ البَيْنِ، إذ رَحَلُوا — إلاّ أغَنُّ، غَضيضُ الطَّرْفِ، مَكْحُولُ[٢]
تَجْلُو عَوارِضَ ذي ظَلْمٍ، إذا ابْتَسَمَتْ — كأنَّهُ مُنْهَلٌ بالرَّاحِ، مَعْلُولُ[٣]
كانَتْ مَواعيدُ عُرْقوبٍ لها مَثَلاً — وما مواعيدُها إلاّ الأباطيلُ[٤]
أمْسَتْ سُعادُ بأرْضٍ لا يُبَلِّغُها — إلاّ العِتاقُ النَّجيباتُ المَراسيلُ[٥]
تَسْعَى الوُشَاةُ جَنابَيْها، وقَوْلُهُمُ: — إنَّكَ، يا ابنَ أبي سُلْمى، لمقتولُ[٦]
وقالَ كُلُّ خَليلٍ كُنْتُ آمُلُهُ: — لا أُلْهِيَنَّكَ، إنّي عَنْكَ مَشْغُولُ
فَقُلْتُ: خَلُّوا سبيلي، لا أبا لَكُمُ، — فَكُلُّ ما قَدَّرَ الرَّحْمَنُ مَفْعولُ
كُلُّ ابنِ أُنْثى، وإنْ طالتْ سلامته، — يوماً على آلةٍ حَدْباءَ مَحْمولُ
نُبِّئْتُ أنَّ رَسولَ اللَّهِ أوعَدَني — والعَفْوُ عِنْدَ رَسولِ اللَّهِ مَأمُولُ[٧]
مهلاً، هَداكَ الذي أعْطاكَ نافِلَةَ — القُرآنِ فيهِ مواعيظٌ وتَفْصيلُ[٨]
لا تأخُذَنّي بأقوالِ الوُشاةِ، ولم — أُذْنِبْ، وإنْ كَثُرَتْ فيَّ الأقاويلُ
لَقَدْ أقومُ مَقاماً لو يَقُومُ بهِ — أرى وأَسْمَعُ ما لو يَسْمَعُ الفيلُ
لَظَلَّ يُرْعَدُ، إلاّ أنْ يكونَ لهُ — مِنَ الرَّسولِ، بإذْنِ اللَّهِ، تَنْوِيلُ[٩]
حتى وَضَعْتُ يَميني، لا أُنازِعُها، — في كَفِّ ذي نَقَماتٍ قيلُهُ القيلُ
لَذاكَ أهْيَبُ عندي، إذ أُكَلِّمُهُ — وقيلَ: إنكَ مَنْسوبٌ ومَسْؤولُ[١٠]
مِنْ خادرٍ من لُيوثِ الأُسْدِ مَسْكِنُهُ، — مِنْ بطْنِ عَثَّرَ، غِيلٌ دونَه غيلُ...
إنَّ الرَّسولَ لَنورٌ يُسْتَضاءُ بهِ — مُهَنَّدٌ، من سيُوفِ اللَّهِ، مَسْلُولُ[١١]
في عُصْبَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قالَ قائِلُهُمْ — بِبَطْنِ مكّةَ، لمّا أسلموا: زولوا
زالُوا، فما زالَ أنكاسٌ ولا كُشُفٌ — عِنْدَ اللِّقاءِ ولا ميلٌ مَعازيلُ[١٢]

شُـمُّ الـعَـرانـيـنِ، أبـطـالٌ، لَـبـوسُـهُـمُ مِن نَسْجِ داودَ، في الهَيْجا، سَرابيلُ[١٣]
لا يَـفْـرحـونَ إذا نـالَـتْ رِمـاحُـهُـمُ قَـوْماً، ولَـيـسـوا مـجـازيـعـاً إذا نـيـلـوا
لا يَـقَـعُ الـطَّـعْـنُ إلاَّ فـي نُـحُـورِهِـمِ وما لَهُمْ عَنْ حياضِ المَوْتِ تَهْليلُ[١٤]

هوامش

(١) بانت: بعدت ـ تبول، من التبل: الهيام حتى الضعف والسقم ـ متيّم: مذلَّل ـ مكبول: مقيَّد.
(٢) البين: البعد ـ أغن: صفة لمحذوف تقديره الظبي الذي في صوته غُنّة أي بُحَّة مستحبة ـ غضيض الطرف: منكسر النظر.
(٣) تجلو: تكشف ـ العوارض: الأسنان ـ الظلم: الريق ـ منهل: مُسْقى أول مرّة ـ معلول: مُسْقى ثانية.
(٤) عرقوب: رجل من يقرب يضرب به المثل في إخلافه الوعد.
(٥) العتاق: صفة لمحذوف تقديره النوق ـ العتاق: الأصلية الكريمة ـ المراسيل: السهلة في السير.
(٦) جنابيها: حواليها، حوالي الناقة.
(٧) أوعد: هدّد، يلاحظ الشبه بين اعتذاره واعتذار النابغة.
(٨) النافلة: الزيادة.
(٩) معنى البيت والبيت السابق: قمت مقاماً لو قامه الفيل وسمع ما سمعت لظل يرتجف خوفاً إلى أن يصله العفو والأمان.
(١٠) لذاك: أي محمد.
(١١) لسَيْف: وردت أحياناً: لنور. وهذا البيت نال شهرة واسعة.
(١٢) أنكاس، جمع نكس: ضعيف، جبان ـ كشف، جمع أكشف: الذي لا ترس معه ـ الميل، جمع أميل: الذي لا يثبت على السرج ـ معازيل، جمع معزال: الخالي من السلاح.
(١٣) شم العرانين: مرتفعو الأنوف، أصحاب ـ سرابيل: لابسو الدروع ـ نسج داود: الدروع المنسوبة إلى النبي داود لمتانتها.
(١٤) صدر البيت يعني أنهم لا يديرون ظهورهم ولا يهربون فيقع الطعن في صدورهم ـ حياض الموت: ساحة الحرب ـ تهليل: هرب.

الأخطل

خَفَّ القَطينُ فراحُوا منك، أو بَكَرُوا ... وأزعَجَتْهُمْ نوًى في صَرفِها غِيَرُ[١]

كأنني شاربٌ يومَ استُبِدَّ بهمْ ... من قَرْقَفٍ ضُمِّنَتْها حِمْصُ أو جَدَرُ[٢]

إلى امرئٍ لا تُعَدِّينا نَوافِلُه ... أظفرَه اللّه فَلْيَهْنِئ له الظَّفَرُ[٣]

وتَستَبينَ لأقوامٍ ضلالتُهُمْ ... ويستقيمَ الذي في خدِّه صَعَرُ[٤]

ثمَّ استقلَّ بأثقالِ العِراق، وقد ... كانت له نَقمةٌ فيهمْ، ومُدَّخَرُ[٥]

في نَبعةٍ من قُريشٍ يَعصِبُون بها ... ما إن يُوازي بأعلى نبتِها الشَّجَرُ[٦]

تعلو الهِضابَ، وحَلُّوا في أَرُومَتِها ... أهلُ الرِّباءِ، وأهلُ الفخرِ، إن فَخَرُوا[٧]

حُشْدٌ على الحقِّ، عَيَّافو الخنا، أُنُفٌ، ... إذا ألَمَّتْ بِهم مكروهةٌ صَبَروا[٨]

وإنْ تدجَّتْ على الآفاقِ مُظلِمةٌ ... كان لهم مخرجٌ منها ومُعتَصرُ[٩]

أعطاهُمُ اللّه جَدًّا يُنصَرونَ به ... لا جَدَّ إلا صغيرٌ، بعدُ محتَقَر[١٠]

لم يأشَروا فيه، إذ كانوا مَواليَه، ... ولو يكونُ لقومٍ غيرِهِم أَشِروا[١١]

شُمْسُ العَداوةِ حتى يُستقادَ لهم ... وأعظمُ الناسِ أحلاماً إذا قدِروا[١٢]

لا يَستَقِلُّ ذوو الأضغانِ حَربَهُمُ ... ولا يُبَيِّنُ في عِيدانهم خَوَرُ[١٣]

هُمُ الذينَ يُبارونَ الرياحَ إذا ... قلَّ الطعامُ على العافِينَ أو قَتَروا[١٤]

بني أُميَّةَ! نُعماكُمْ مُجَلِّلةٌ، ... تَمَّتْ فلا مِنَّةٌ فيها، ولا كَدَرُ[١٥]

بني أُميَّةَ! قد ناضلتُ دُونَكُم ... أبناءَ قومٍ هُمُ آوَوا وهُمْ نَصَروا[١٦]

أفحمتُ عنكم بني النجّارِ، قد عَلِمَتْ ... عُليا مَعَدٍّ، وكانوا طالما هَدَروا[١٧]

حتى استكانُوا، وهم مني على مَضَضٍ، ... والقولُ يَنفُذُ ما لا تنفذُ الإبَرُ

بني أُمَيَّةٍ! إني ناصحٌ لَكُمْ، ... فلا يَبيتَنَّ فيكم آمِناً زُفَرُ[١٨]

واتَّخِذوه عدوًّا، إن شاهِدَه، ... وما تَغَيَّبَ من أخلاقِه دَعَرُ[١٩]

إنَّ الضغينةَ تَلقاها، وإن قَدُمَتْ، ... كالعَرِّ يكمُنُ حيناً ثم يَنتشرُ[٢٠]

وقد نُصِرَتَ، أميرَ المؤمنينَ، بنا … لمَّا أتاكَ ببطنِ الغُوطَةِ الخبرُ[٢١]

يُعرِّفونك رَأسَ ابنِ الحُبابِ، وقد … أضحى وللسيفِ في خيشومه أثرُ[٢٢]

والحارثُ بنُ أبي عَوفٍ لعبنَ به … حتى تَعاوَرَه العقبان والسُبَرُ[٢٣]

وقيسُ عَيْلانَ، حتى أقبلوا رَقَصاً … فبايعوك جِهاراً، بعدما كفروا[٢٤]

فلا هَدى اللّه قيساً من ضلالتِهِمْ! … ولا لَعاً لبني ذَكوانَ، إذْ عثَروا[٢٥]

ضجُّوا من الحرب، إذ غَضَّت غواربَهم، … وقيسُ عَيلانَ من أخلاقِها الضجَرُ[٢٦]

وقد أصابتْ كِلاباً من عَدواتِنا … إحدى الدواهي التي تُخْشى وتُنْتَظَر[٢٧]

أما كُليبُ بنُ يربوعٍ فليس لهمْ … عندَ التَّفارُطِ إيرادٌ ولا صَدَرُ[٢٨]

قومٌ أنابتْ إليهمْ كلُّ مُخزِيَةٍ … وكلُّ فاحشةٍ سُبَّت بها مُضَرُ[٢٩]

الآكِلونَ خبيثَ الزادِ وحدَهُمُ … والسائلونَ بظهرِ الغيبِ ما الخبرُ

وأقسَمَ المجدُ حقاً لا يحالِفُهم … حتى يُحالِفَ بَطْنَ الراحةِ الشَّعَرُ

هوامش

(١) خف: أسرع وتحول. القطين: جماعة المقيمين والمجاورين. راحوا: في المساء. بكروا: ساروا في الصباح. أزعجتهم: حملتهم على الرحيل. النوى: البعد والتحول. الصرف: نوائب الدهر. غير: تبدل وتغير. المعنى: لقد ارتحل جيراننا، يدفعهم إلى ذلك تقلب الدهر وحدثانه التي تغير الناس من حال إلى حال.

(٢) استبد بهم: غلب عليهم. قرقف: خمرة حادة تقرقف صاحبها أي ترعده. حمص وجدر: بلدان. المعنى: إن ارتحال الأحبة قد أفقدني وعيي، فشعرت كأنني شربت خمرة حادة من خمر حمص أو جدر. فأفقدتني كل صواب.

(٣) لا تعدينا: لا تفوتنا. نوافله: عطاياه. أظفر الله: إشارة إلى أن خلافة الأمويين من عند الله، وفي هذا تكريس للحق الإلهي بالحكم.

(٤) الصعر: إمالة الوجوه والشموخ بالأنف كبراً. يقول: إن هؤلاء قد تبين لهم ضلالهم، وبعد أن كانوا يشمخون بأنوفهم ويصعرون خدودهم تكبراً بأنهم آل البيت وأفضل الناس، أصبحوا خاضعين للأمويين واستنامت وجوههم ونظراتهم وهدأت ثوراتهم.

(٥) استقل بأثقال العراق: تغلب عليه وحمل أعباءه. النقمة: البلاء الحسن. المدخر: ما يخبأ للعدو من بطش وخطّة. تمكن عبد الملك من السيطرة على العراق بما أظهر من بلاء حسن وبطش وقوة.

(٦) النبعة: نوع من الشجر الصلب الذي يكبر ويرتفع. يعصبون بها: يلتفون حولها. شبّه الأسرة الأموية بشجرة النبع العالية التي تعطي أجود الرماح والنبال كما يخرج الأمويون الأشراف، قواد الدولة وعظماءها.

(٧) أرومتها: أصلها. أهل الرباء: أهل العظمة. وفي أرومة شجرة النبع هذه بنو مروان أهل الفخر والعظمة.

(٨) عيافو الخنا: كارهون الذل. أنف: أصحاب رفعة، إذا أصابهم مكروه صبروا عليه.

(٩) تدجت: خيمت. مظلمة: يقصد بها الأمر الخطير أو الأزمة الكبرى. المعتصر: طريق النجاة. وإن خيمت عليهم أزمة كبرى أو ثورة، خرجوا منها منتصرين.

(١٠) الجد: الحظ. في هذا البيت تنويه بما كان الأمويون يريدون إقراره في أذهان الناس وهو أن خلافتهم من الله وحقهم فيها مقدس، وشأنهم عظيم وكل شأن سوى ذلك حقير.

(١١) لم يأشروا: لم يبطروا فتغرهم النعمة. مواليه: أصحابه وأهله. فهم لا تبطرهم النعمة كسواهم.

(١٢) شمس العداوة: أشداء على العدو. يستقاد لهم: يقدم لهم الخضوع ويسلم بقيادتهم ورياستهم. الأحلام: جمع حلم وللحلم معان كثيرة منها الصبر، ومنها العقل الراجح، والتسامح. ولعل هذا المعنى الأخير هو المقصود: عداوتهم شديدة على أعدائهم الذين

يعانون منها حتى يسلّموا لبني أمية بالأمر فإذا فعلوا فإن الأمويين لا ينتقمون وإنما يعفون عند المقدرة.

(١٣) ذوو الأضغان: الأعداء الذين يحملون في نفوسهم ضغينة أي بغضاً. يبين: يظهر. في عيدانهم: في قواهم ورماحهم. الخور: الضعف. فأعداؤهم لا يستقلون حربهم، وهم لا يظهر في قواهم ضعف أو خور.

(١٤) يبارون الرياح: يسبقونها. العافين: المحتاجين. قتروا: بخلوا على أنفسهم من ضيق ذات اليد. عندما تحلّ الأزمات الاقتصادية نرى الأمويين يسابقون الرياح إلى مساعدة المحتاجين.

(١٥) نعماكم: فضلكم وإحسانكم. مجللة: مغطية. أي عامة لجميع الناس. المنة: التقريع بالإحسان. الكدر: ما يعكر الشيء ويزيل عنه الصفو والبهجة. إن فضلكم يعم جميع الناس ولا يكدروه منّ.

(١٦) ناضلت دونكم: حاربت من أجلكم. هم آووا وهم نصروا: يقصد بهم الأنصار إذا آووا النبي ونصروه. ينوه بفضله على بني أمية وهجائه الأنصار من أجلهم.

(١٧) أفحمت عنكم: أسكت. بنو النجار: جماعة من زعماء الأنصار وذوي النفوذ فيهم وهم قوم حسان بن ثابت. عليا معد: قريش. هدروا: رددوا الكلام الذي فيه تهديد وتوعد. لقد أسكت عنكم بني النجار بعد أن كانوا يهجونكم ويؤذونكم.

(١٨) زفر: هو زفر بن الحارث الكلابي، زعيم القيسية في معركة مرج راهط ضد الأمويين. وهنا يشير الأخطل إلى حادثة مؤداها أنه دخل على عبد الملك فوجده جالساً مع زفر بن الحارث جلسة ودية فغضب الأخطل لأن قوم زفر أعداء لتغلب وصعب عليه أن يقرب الأمويين أعداء قبيلته. فعرض به وأغرى عبد الملك بطرده من مجلسه. قائلاً: نصيحتي لكم يا بني أمية ألا تأمنوا جانب زفر.

(١٩) شاهده: حاضره وتعني أيضاً لسانه. الدعر: الفساد. فحاضره وغائبه أي علانيته وسره لؤم وفساد.

(٢٠) العر: الجرب. وهنا يشير إلى أن عداوة زفر وقومه لبني أمية كمرض الجرب يحتفي حيناً ثم يظهر وهو يعرض أيضاً بقول لزفر قاله من قبل وهو:

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى ... وتبقى حزازات الصدور كما هِيَا

ومعناها الأيام تمر، وقد تحدث مصالحات، ولكن حزازات القلوب أي بغضاءها تظل كما هي.

(٢١) في هذا البيت يقول للخليفة بأن بني تغلب حلفاء له، وأن لهم فضلاً عنده ومآثره كثيرة.

(٢٢) ابن الحباب: سيد من قيس عيلان قتله بنو تغلب انتصاراً لأمية. الخيشوم: أقصى الأنف. من هذه المآثر قتل ابن الحباب وحمل رأسه إليك في غوطة دمشق على رأس رمح.

(٢٣) تعاوره: تداول نهشه. العقبان والسبر: طيور جارحة. وقتلنا الحارث بن أبي عوف وتركنا جثته طعمة للطيور الجوارح.

(٢٤) رقصاً مسرعين. بايعوك: أقروا بولايتك وحكمك. كما جعلنا قيس عيلان تسرع إليك وتخضع لك وتبايعك.

(٢٥) لالعاً دعوة يقال عند تمني الشر زنسان، ومعناها: لا أعانه الله. عثروا: سقطوا على الأرض.

(٢٦) عضت غواربهم: كناية عن أنها أزعجتهم، ومعناها الأصلي: عقرت أكتافهم. وتقال للإبل ولكل دابة: أزعجتهم الحرب عندما عضت أكتافهم فناءوا بها وانهزموا، وهذا شأنهم دائماً.

(٢٧) الدواهي: المصائب: وأنزلنا ببني كلاب مصيبة عظيمة يحسب لها كل حساب.

(٢٨) كليب بن يربوع: قوم جرير. التفارط: التزاحم، وقوم جرير خاملون لا شأن لهم عند تفاخر القبائل.

(٢٩) أنابت إليهم: اتجهت نحوهم. المخزية: الأمر المعيب. أي أن كل عيب اتجه نحوهم، وكل فاحشة سبت بها مضر الحمراء إنما سببها بنو كليب بن يربوع.

الفــرزدق

هـذا الـذي تـعـرِفُ الـبـطـحـاءُ وَطـأتَـهُ — والـبـيـتُ يـعـرِفُـهُ، والـحِـلُّ والـحَـرَمُ[1]
هـذا ابـنُ خـيـرِ عـبـادِ الـلّـه كـلِّـهـمُ — هـذا الـتـقـيُّ، الـنـقـيُّ الـطـاهِـرُ الـعـلَـمُ
هـذا ابنُ فـاطـمـةٍ، إن كـنـتَ جـاهِـلَـه — بـجَـدِّه أنـبـيـاءُ الـلّـهِ قـد خُـتِـمـوا[2]
ولـيـس قـولُـك: مَـن هـذا؟ بـضـائِـره — الـعُـرْبُ تـعـرِفُ مَـنْ أنـكَـرْتَ والـعَـجَـمُ[3]

❀ ❀ ❀

كـلـتـا يـديـهِ غِـيـاثٌ عـمَّ نـفـعُـهُـمـا — يُـسـتـوكَـفـانِ، ولا يـعـرُوهُـمـا عَـدَمُ[4]
سَـهـلُ الـخـلـيـقـةِ، لا تُـخـشـى بـوادِرُهُ — يَـزِيـنُـه اثـنـان: حُـسْـنُ الـخَـلْـقِ والـشـيَـمُ[5]
حَـمَّـالُ أثـقـالِ أقـوامٍ إذا افـتـدَحـوا، — حُـلْـوُ الـشـمـائِـلِ، تـحـلُـو عـنـده نَـعَـمُ[6]
مـا قـالَ: لا، قَـطُّ إلاَّ فـي تَـشَـهُّـدِهِ — لـولا الـتـشـهُّـدُ، كـانـت لاَءَهُ نَـعَـمُ[7]
عـمَّ الـبـريَّـةَ بـالإحـسـان، فـانـقـشـعـت — عـنـهـا الـغـيـاهِـبُ، والإمـلاقُ والـعَـدَمُ[8]
إذا رأتْـهُ قـريـشٌ قـال قـائـلُـهـا — إلـى مـكـارمِ هـذا، يـنـتـهـي الـكَـرَمُ
يُـغـضـي حـيـاءً، ويُـغـضَـى مـن مـهـابـتـه، — فـمـا يُـكَـلَّـمُ إلا حـيـنَ يـبـتـسِـمُ[9]
يَـكـادُ يُـمـسِـكُـه، عِـرفـانَ راحـتِـه، — ركـنُ الـحـطِـيـمِ، إذا مـا جـاء يَـسـتـلِـمُ[10]

❀ ❀ ❀

الـلّـه شـرّفـه قِـدمـاً، وعـظّـمـه، — جـرى بـذاكَ لـه فـي لـوحـهِ الـقَـلـمُ[11]
أيُّ الـخـلائـق لـيـسـت فـي رِقـابـهـم — لأوَّلـيَّـةِ هـذا، أوْلَـهُ، نِـعَـمُ
مـن يَـشْـكُـرِ الـلّـهَ، يَـشـكُـرْ أوّلـيَّـةَ ذا — فـالـديـنُ مـن بـيـت هـذا، نـالَـه الأُمَـمُ
يُـنـمـي إلـى ذُروة الـديـنِ الـتـي قَـصُـرَتْ — عـنـهـا الأكُـفُّ، وعـن إدراكـهـا الـقـدَمُ[12]
مَـن جَـدُّهُ دانَ فـضـلُ الأنـبـيـاءِ لـه — وفـضـلُ أُمَّـتِـهِ، دانـت لـه الأُمَـمُ
مُـشـتـقَّـةٌ مـن رسـولِ الـلّـهِ نَـبـعَـتُـه — طـابـت مـغـارِسُـه والـخِـيـمُ والـشِّـيَـمُ[13]

يَنشقُّ ثوبُ الدُّجى عن نور غرَّتِه ... كالشمسِ تنجابُ عن إشراقِها الظُّلَمُ

من معشَرٍ حبُّهم دينٌ، وبُغضُهم ... كفرٌ، وقُربُهُمُ منجى ومُعْتَصَمُ[١٤]

مُقَدَّمٌ بعدَ ذِكرِ اللّه ذكرُهُمُ ... في كل بدءٍ، ومختومٌ به الكَلِمُ[١٥]

إنْ عُدَّ أهلُ التُّقَى كانوا أئِمَّتَهُم ... أو قيلَ: مَن خيرُ أهلِ الأرض؟ قيلَ هُمُ

لا يستطيعُ جوادٌ بُعدَ غايَتِهم، ... ولا يُدانيهم قومٌ، وإن كَرُمُوا

هُمُ الغيوثُ، إذا ما أزمةٌ أَزَمَتْ، ... والأُسدُ، أُسدُ الشَّرَى، والبأسُ مُحتدِمُ

لا يُنقِصُ العُسْرُ بَسطاً من أكفِّهم ... سيانَ ذلك، إن أثَرُوا وإن عَدِمُوا

يُستَدْفَعُ الشرُّ والبلوى بحبِّهمِ ... ويُستَرَبُّ به الإحسانِ والنِّعَمُ

هوامش

(١) البطحاء: أرض منبسطة ومسيل واسع في وسطها مكة. الوطأة: موضع القدم. البيت: الكعبة. الحل: ما جاوزه الحرم من الأرض. والحرم: ما لا يحل انتهاكه، ويراد به مكة وما جاورها من أرض. يقول: إن الممدوح يعرفه أهل الدنيا قاطبة.

(٢) فاطمة: بنت الرسول وزوج الإمام علي جد زين العابدين، أي أنه ابن بنت محمد خاتم النبيين.

(٣) ضائره: مضرّ به أي محط من قدره.

(٤) غياث: غوث وعون ومطر. استوكف: استقطر الماء واستدعى جريانه. عراه: ألمّ به. العدم: الفقر وفقدان الشيء.

(٥) الخليقة: الطبع. البادرة: الحدة، أو ما يبدو من الإنسان عند غضبه. الشيم: الأخلاف. يقول: هو حليم لا يخشى غضبه.

(٦) افتدح وفدح: أثقل. الشمائل: الطباع، الخصال. أي أنه يساعد من تحل بهم المصائب ويجد لذّة في الإجابة بنعم على كل طلب معونة.

(٧) التشهد: قول المسلم: أشهد أن لا إلّه إلا الله.

(٨) انقشعت: انجلت. الغياهب: الظلمات. الإملاق: الفقر.

(٩) يغضي: يخفض الطرف. أي أنه يغض طرة حياة، لكن الناس لعظم هيبته لا يرفعون إليه أبصارهم إلا إذا ابتسم لهم إيناساً.

(١٠) الراحة: الكف. الركن: الجانب الأقوى. الحطيم: ما بين ركن الكعبة والباب، وقيل جدار الكعبة، يستلم: يلمس للتبرك. أي أن حجر الكعبة نفسه يعرف كف زين العابدين فيكاد يمسكه أي يحبسه عنده شغفاً به.

(١١) اللوح: الكتاب الذي يسطر فيه القضاء والقدر لكل إنسان، أي أنه كتب له التعظيم منذ القدم.

(١٢) ينمي: ينسب. وقد ورد الشطر الثاني في بعض الروايات: عن نيلها عرب الإسلام والعجم.

(١٣) نبعته: شجرته، أي أصله الكريم. الخيم: السجية والطبيعة. يقول إن شجرته من أصل شجرة النبي وقد طالبت مغارسه وطابت سجاياه وأخلاقه.

(١٤) معشر: قوم. معتصم: ملجأ.

(١٥) أي إن المسلم بعد أن يذكر الله في بدء الكلام وختامه يصلي ويسلم على النبي محمد وآله. فلذلك قال: ذكرهم بعد ذلك الله.

جميـــل بـــن معمـــر

فـرح الوشـاة

لقد فَرِحَ الوَاشُون أنْ صَرَمَتْ حَبْلي بُثَيْنَةُ أو أبْدت لنا جانِبَ البُخلِ[1]
يَقولونَ: مَهْلاً يا جَميلُ، وإنّني لأُقسِمُ ما لي عَنْ بُثَينَةَ مِنْ مَهلِ
أحِلْماً؟ فَقَبْلَ اليَوْمِ كان أوانُهُ أمْ أخشى؟ فَقَبْلَ اليَوْمِ أوعِدْتُ بالقَتْلِ
لقد أنكَحُوا جَهْلاً نُبَيْهاً ظَعينَةً لَطيفةَ طيِّ الكَشْحِ، ذاتِ شوى خَدلِ[2]
إذا ما تَراجَعْنَا الذي كانَ بَيْنَنا، جرى الدَّمْعُ مِنْ عَينَيْ بثينَةَ بالكُحْلِ
ولو تركتْ عقلي معي ما طَلَبْتُهَا، ولكن طلابيها لما فات مِنْ عَقلي[3]
أرانيَ لا ألْقَى بُثَيْنَةَ مَرَّةً، مِن الدَّهرِ، إلاّ خائفاً، أو على رَحْلِ
خَليلَيَّ، فيما عِشْتُمَا، هَلْ رَأيْتُمَا قتيلاً بَكَى، من حُبِّ قاتِلِهِ، قَبْلي
كِلانا بكى، أو كادَ يبكي صَبابةً إلى إلفِهِ، واستَعْجلَتْ عَبرةٌ قَبلي
فإنْ وَجِدَتْ نَعْلٌ بأرْضٍ مُضِلَّةً مِنَ الأرضِ، يوماً فاعْلَمي أنها نَعْلي

❀ ❀ ❀

ريعـان الشبـاب

ألاَ لَيْتَ رَيْعَانَ الشَّبابِ جَديدُ ودهراً تَوَلّى، يا بُثَيْنَ، يَعُودُ
ألا ليتَ شِعري، هَلْ أبيتَنَّ ليلةً بوادي القُرى؟ إنّي إذاً لَسَعيدُ
وقد تَلْتَقي الأشْتَاتُ بعد تَفَرُّقٍ وقد تُدرَك الحاجاتُ وهْيَ بَعِيدُ

❀ ❀ ❀

(١) صرمت حبلي: قطعت مودتي.
(٢) نبيه: زوج بثينة ـ ظعينة: امرأة، كناية عن بثينة ـ الشوى: الأطراف ـ الخدل: الممتلىء.
(٣) طلابيها: طلبي إياها.

عمر بن أبي ربيعة

وهل يخفى القمر

هَيَّجَ القلبَ مَغانٍ وَصِيَرْ دارساتٌ قد علاهُنَّ الشَّجَر[1]

ورياحُ الصّيفِ قد أزرتْ بها، تَنسِجُ التُرْبَ فُنوناً، والمطر[2]

ظَلْتُ فيها، ذاتَ يوم، واقفاً أسألُ المنزلَ: هل فيه خبر؟[3]

للتي قالت لأترابٍ لها قُطُفٍ، فيهنَّ أُنسٌ وخَفَر[4]

إذ تَمَشَّيْنَ بجوٍّ مُونِقٍ، نَيِّرِ النَبْتِ، تَغْشَاهُ الزَهَر[5]

بِدِماثٍ سَهْلَةٍ، زَيَّنها يَومُ غَيْمٍ لم يخالطهُ قَتَر[6]

فعرفنَ الشَّوقَ في مُقْلَتها وَحَبابُ الشَّوقِ يُبْديه النَّظر[7]

قلنَ، يَسْتَرضِينَها: مُنْيَتُنَا لو أتانا اليومَ، في سرٍّ، عمر

بينما يَذْكُرْنَني أبْصَرنَني دونَ قَيْدِ المَيْلِ، يعدو بي الأغر[8]

قالت الكبرى: أتَعرِفْنَ الفتى؟ قالت الوسطى: نعم هذا عمر

قالت الصُغرى، وقد تَيَّمْتُهَا قد عرفناه، وهل يخفى القمر؟

ذا حبيبٌ لم يُعَرِّجْ دوننا، ساقَهُ الحَيْنُ إلينا، والقدر[9]

فأتانا حينَ ألقى بَرْكَهُ جَمَلُ الليل عليه، واسبَطَر[10]

ورضابُ المِسْكِ من أثوابِهِ مَرْمَرُ الماءَ عليه، فَنَضَر[11]

قد أتانا ما تَمنَّينا، وقد غُيِّبَ الإبرامُ عنّا، والكدر[12]

هوامش

(١) مغان: منازل ـ صير، جمع صيرة: حظيرة للماشية.
(٢) أزرت بها: عبثت بها ـ والمطر: أي أن المطر كذلك ينسج الترب فنوناً.
(٣) ظلت: ظللت.
(٤) أتراب: رفيقات، اللواتي هن من عمر واحد ـ قطف: رشيقات الخطى ـ خفر: حياء.
(٥) جو مونق: جو جميل.
(٦) دماث: أرض سهلة ليّنة ـ قتر: غبار.
(٧) حباب الشوق: علاماته.
(٨) الأغر: الجواد الذي في جبينه بياض.
(٩) أي أن هذا الحبيب لم يكن يقصدنا، إنما الظروف ساقته إلينا.
(١٠) البرك: صدر البعير، والمعنى: حين امتدت ظلمة الليل ـ اسبطر: انتشر.
(١١) مرمر الماء: نثر الماء.
(١٢) الإبرام: الضجر ـ الكدر: ما يحزن وينغص.



الفصل الثالث

العصر العباسي

شعـــراء العصـــر العبـــاسي

١ ـ بشار بن برد

هو بشار بن برد بن يرجوخ، فارسي الأصل، وينتمي بولائه إلى بني عقيل، وهي قبيلة من بني عامر، وعامر من قيس عيلان. قال ابن خلكان: «ذكر له أبو الفرج الأصفهاني ستة وعشرين جداً أسماؤهم أعجمية، فأضربت عن ذكرها لطولها واستعجامها، وربما يقع فيها التصحيف والتحريف، فإنه لم يضبط شيئاً منها، فلا حاجة إلى الإطالة فيها بلا فائدة».

وينتهي نسبه عند أحد ملوك الفرس القدماء هو يُستاسْب بن لهراسْف الذي ذكره الطبري في تاريخه. ولد بشار سنة ٩٦هـ أي ٧١٤م.

كان بشار بن برد شديد الافتخار بنسبه فيقول:

رب زي تــاج كــريــم الــجــد كــآل كــســرى أو كــآل بــرد

لكنه على الرغم من افتخاره هذا، لم يكن يجهل حقيقة وضعه. لقد كان يدرك أن جده من سبي طخارستان، سباه المهلب بن أبي صفرة الذي تولى خراسان من قبل الحجاج، وأن أباه برد نشأ على الرق في البصرة عند «خيرة» القريشية امرأة المهلب، فوهبته لامرأة من بني عقيل بعد أن زوجته، وأعتقته في ما بعد فانتسب إلى بني عقيل بالولاء. وولد بشار مكفوفاً، ولم يبصر النور في كنف والد فقير يحترف الطيانة. هكذا نشأ بشار مظلم النظر وطيب العرق ومهين المنبت. تجول في خاطره ذكريات الأجداد والماضي، وما كانوا عليه من مجد، فتطير نفسه إليهم لتعيش معهم وتشاطرهم ولو لبرهة من الوقت عز القصور ومتعة

الملك. ثم لا تلبث أن تهبط من سماء الخيال إلى دنيا الحقيقة، فإذا به الضرير العاجز، والمولى المستهان، وابن برد الطيان.

وبسبب عماه، كني بشار أبا معاذ، أي المدعو له بالحفظ والعناية. كما لقب بالمرعث، أي المحلى بالرعاث وهي حلى تعلّق بالأذنين. وقال أبو العلاء المعري: «إن أم بشار تزوجت ثلاثة، فولدت منهم ثلاثة فبشار أكمه، والآخر أصم، والثالث أعرج» وسخر الكثيرون من أخويه ومن عماه، فكان يقابلهم بالكبرياء، والهجو والسخر، ويفخر بعماه، ويحمد الله عليه فلا يرى من يبغض.

واتخذ عدد كبير من الشعراء مثل حماد عجرد وأبي هاشم الباهلي من عاهته مادة لهجائهم، وكان هو ينتهز الفرصة ليثأر من المبصرين. وجاءه مرة رجل وسأله عن منزل رجل يريده، فراح يدله وهو لا يفهم. فأخذه بيده وقاده وهو يقول:

أعمى يقود بصيراً، لا أبا لكم قد ضلَّ من كانت العميان تهديه

حتى إذا وصل إلى منزل الرجل قال: هذا هو منزله يا أعمى.

واستطاع بفضل ذكائه جعل عماه مصدر نبوغه وقوة شعره فقال:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا، ليل تهاوى كواكبه

فقيل له: «ما قال أحد أحسن من هذا التشبيه، فمن أين لك هذا ولم تر الدنيا قط؟». فقال: «إن عدم النظر يقوي ذكاء القلب، ويقطع عني الانشغال بما يُنظر إليه من الأشياء، فيتوفر حسه وتزكو قريحته». وأنشد:

عميت جنيناً، والذكاء من العمى، فجئت عجيب الظن للعلم مَوئلا
وغاض ضياء العلم للعين رافداً لقلبٍ، إذا ما أحزن الشعر، أسهلا

نظم بشار الشعر باكراً ومال به إلى الهجاء. وكان يقول: «هجوت جريراً فأعرض عني واستصغرني، ولو أجابني لكنت أشعر الناس». وكان وهو صغير، إذا هجا أحداً يتعرض للضرب الشديد، فقالت أمه يوماً لوالده:

«كم تضرب هذا الصبي الضرير، أما ترحمه؟»، فيجيب: «بلى والله إني لأرحمه، ولكنه يتعرض للناس فيشكونه إلي». ولما سمع بشار جواب أبيه قال: «يا أبت إن هذا الذي يشكونه مني إليك هو قول الشعر، وإني إن ألممت عليه أغنيتك وسائر أهلي، فإن شكوني إليك، قل لهم: أليس الله يقول ليس على الأعمى حرج».

وقيل إن سليمان بن هشام بن عبد الملك كان مقيماً بحران، فذهب بشار إليه ومدحه بقصيدة مطلعها:

نأتك على طول التجاور زينب   وما شعرت أن النوى سوف تشعب

فأعطاه سليمان خمسين ألف درهم، فلم يرض بها وانصرف عائداً إلى العراق حيث استقدمه يزيد بن هبيرة وأجازه. وقد جاء في الأغاني: «كان في البصرة ستة من أصحاب الكلام: عمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء، وبشار الأعمى، وصالح بن عبدالقدوس وعبدالكريم بن أبي العوجاء، ورجل من الأزد هو جرير بن حازم».

ويبدو أن بشار صادق أصحاب الكلام من شيوخ المعتزلة أمثال واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد. ثم مال عنهم وقال بالرجعة، أي الإيمان بالرجوع إلى الدنيا بعد الموت، فجافاه واصل وشهره في المجامع، فهجاه بشار قائلاً:

ما لي أشايع غزالاً له عنق   كنقنق الدو إن ولى وإن مثلا
عنق الزرافة ما بالي وبالكم   تكفرون رجالاً كفروا رجلا

ولما انتقلت الخلافة إلى بني عباس، لم يتصل بالخليفة الأول، وعندما آلت الخلافة إلى المنصور ثار عليه العلويون بقيادة محمد وإبراهيم ابني عبدالله بن حسن بن الحسين بن علي، فتضامن معهم بشار ونظم قصيدة في هجاء المنصور ومدح إبراهيم، مطلعها.

أبا جعفر ما طول عيشي بدائم   ولا سالم عما قليل بسالم

غير أن الثورة فشلت، وقتل الأخوان، فما كان من بشار إلا أن حور القصيدة وجعلها في هجاء أبي مسلم الخرساني.

وتردد إلى الخليفة المهدي ومدحه في عدة قصائد فأجازه المهدي لكنه منع عنه العطاء في ما بعد بسبب إصراره على التغزل بالنساء في شعر فاحش. فغضب بشار ورحل إلى البصرة وهجا المهدي وذكر زوجته الخيزران. وألقي القبض على بشار وهو سكران وجلد حتى الموت سنة ١٦٨هـ/ ٧٨٤م بتهمة الزندقة.

كان بشار «ضخم الجثة، مجدور الوجه، جاحظ المقلتين، قد تغشاهما لحم أحمر، فكان أقبح الناس عمى، وكان أشد الناس تبرماً بالناس».

ومن أقوال بشار في هجاء حماد عجرد الذي يتهمه فيه بالزندقة:

يا ابن نهيا، رأس علي ثقيل، واحتمال الرأسين خطب جليل
أدعُ غيري إلى عبادة الاثنين فإني بواحد مشغولُ
يا ابن نهيا بَرِئتُ منك إلى الله جِهاراً، وذاك مني قليلُ

ومن أشعاره المدحية، القصيدة التي مدح فيها عمر بن هبيرة ومما جاء فيها:

وجيش كجنح الليل يزحف بالحصا وبالشكوك والخطّي حمراً ثعالبُه
غَدَوْنَا له والشمسُ في خدرِ أمها تُطالعنا والطلُّ لم يجرِ ذائبُه
كأن مُثارَ النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبُه
إذا الملك الجبار صعّر خدّه مشينا إليه بالسيوف نعاتبُه
إذا كنت في كل الأمور معاتباً صديقك لم تلقَ الذي لم تعاتبُه
فعِش واحداً أوصِل أخاك فإنه مقارفُ ذنبٍ مرّة ومجانبُه
إذا أنت لم تشرَب مراراً على القذى ظمئتَ وأيّ الناسِ تصفو مشاربُه

حال عمى بشار دون رؤيته للجمال الأنثوي، لذلك جاء غزله حسياً مادياً يصف فيه لوعة اللذة. وأظهر وصفه لغناء القيان أن حاسة العمى قد عوض عنها حس مرهف وسمع دقيق وذوق رفيع. وجاء في «الأغاني»: «كانت في البصرة قينة لبعض ولد سليمان بن علي وكانت محسنة بارعة

الظرف، وكان بشار صديقاً لسيدها ومداحاً له. فحضر مجلسه يوماً والجارية تغني، فسر بحضوره وسكر ونام.

«ونهض بشار، فقالت: يا أبا معاذ، أحب أن تذكر يومنا هذا في قصيدة ولا تذكر فيها اسمي ولا اسم سيدي، وتكتب بها إليه. فانصرف بشار وكتب قصيدة وجه أبياتها إليها، فبعث إليه سيدها بألفي دينار...».

وذات دل كأن البدرَ صورتُها ... باتت تغني عميدَ القلبِ سكرانا
«إن العيون التي في طرفها حورُ ... قتلننا ثم لم يحيينَ قتلانا»
فقلت أحسنتِ يا سؤلي ويا أملي ... فاسمعيني جازاك اللّهُ إحسانا
قالت مهلاً، فدتكَ النفسُ، أحسنُ من ... هذا لِمَن كان صبَّ القلبِ حيرانا
يا قوم أذني لبعض الحي عاشقةٌ ... والأذن تعشقُ قبل القلبِ أحياناً
فقلت أحسنت أنت الشمس طالعةٌ ... أضرمت في القلبِ والأحشاءِ نيرانا...
فحركت عودَها ثم انثنت طرباً ... تشدو به ثم لا تخفيه كتمانا...
لو كنتُ أعلمُ أن الحبَّ يقتلني ... أعددتُ لي قبل أن ألقاك أكفانا...

٢ ـ أبو نواس

المعروف عنه أنه الحسن بن هانىء بن عبد الأول بن الصباح، وأن جده كان مولى الجراح بن عبدالله الحكمي والي خراسان، وأن أباه كان من جند مروان بن محمد وهو من الشام وأمه جلبان وهي فارسية من الأهواز. كُني بأبي نواس لذؤابتين (الذؤابة: الضفيرة من الشعر إذا كانت غير ملوية) كانتا تنوسان على عاتقه وهو صغير. وكان نسبه غير العريق يسبب له الإحراج لذلك كان يخفيه لئلا يهجى.

ولد أبو نواس حوالي سنة ٧٥٧م في الأهواز في فارس حيث بقي إلى أن مات والده وهو في الثانية عشرة من عمره، فتوجه مع أمه إلى البصرة. وعندما شب جعلته أمه يعمل عند عطار كبار لعود البخور.

غير أن نفسه كانت ميالة إلى الأدب، فراح يخالط المسجديين ومجان الأدب وأبي عمرو بن العلاء. فاكتسب ثقافة واسعة وأدباً وعلماً، لكن هذا الأمر أضر بأخلاقه، فمال إلى التهتك باكراً.

ثم اتصل بوالبة بن الحباب الأسدي الشاعر الكوفي الخليع، واختلفت الروايات حول لقائه به. فمنهم من قال إنه التقى به عند العطار، فخرج به إلى الأهواز ومن ثم إلى الكوفة. وعني ابن الحباب بتخريج أبي نواس في الشعر، وعلمه أدبه وشعره وطبعه بأخلاقه وعرفه بأصحاب المجان. وبقي أبو نواس لفترة من الزمن يعاشر مجموعة من أصحاب الخلاعة أمثال حماد عجرد ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد. واعتبر أبو نواس أن أفضل وسيلة لاتقان اللغة العربية الفصحى هي العيش في وسط العرب ومخالطتهم في حياتهم اليومية. فطلب من أستاذه أن يسمح له بالتوجه إلى البادية مع وفد بني أسد. وافق والبة على طلبه، وعاش في البادية سنة كاملة عرف خلالها حياة الخيام وخشونة العيش... أكسبت حياة البادية هذا الشاعر فصاحة ولسناً، لكنها جعلته يهجوها وأثارت غضبه على القبائل العربية.

وبعد أن غادر البادية، عاد أبو نواس إلى الكوفة حيث بقي مع أستاذه والبة، ومن ثم عاد إلى البصرة حيث تعرف إلى أبي زيد الأنصاري الذي علمه الغريب من الألفاظ، وعبد الواحد بن زياد العبدي الذي درسه الحديث، ويحيى القطان وأزهر السمان، وغيرهم من كبار محدثي البصرة.

وبعدما أصبح أبو نواس ضليعاً في رواية الشعر وفي علوم اللغة والحديث وبعلم الكلام وبالحكمة الهندية والفلسفة اليونانية، توجه إلى بغداد حيث كان هارون الرشيد يتربع على عرش الحكم. وتمكن من الاتصال به، فأعجب الرشيد بشعره، وقربه منه وأنعم عليه. غير أن هارون الرشيد، رأى أنه ليس من الحكمة أن يجعل الشاعر الخليع مختصاً بقصره، لا سيما وأنه شديد الحرص على وقار الخلافة وعلى تقاليد الدين، فتشدد مع أبي نواس. فعاد إلى معاشرة مجان بغداد أمثال داود بن رزين الواسطي، والحسين بن الضحاك، وعمرو الوراق، وعنان الجارية. وكانوا يجتمعون على ضفة نهر أو في منزل فيشربون الخمرة وينظمون الشعر. ومن ثم غادر بغداد متوجهاً إلى مصر حيث امتدح الخصيب واليها الذي أغدق عليه بالهدايا. ويقول بعض الرواة أن الخصيب أعطاه في ما بعد ثلاث جوائز تتألف كل واحدة منها من

١٠٠٠ دينار وقال له: «ارتحل فما لك مقام عندنا». فعاد أبو نواس إلى بغداد وهجا الخصيب واتهمه بالبخل.

وكان أبو نواس قد عرف الأمين لمدة من الزمن، فلما بويع له بالخلافة قربه مدة خلافته التي دامت خمس سنوات. ولما قتل الأمين ووصل المأمون إلى الحكم، أصيب أبو نواس بالخوف وتوقف عن الشرب والمجون واللهو ومات تائباً سنة ٨١٤م ودفن في مقابر الشونيزي.

وصف ابن منظور أبي نواس، فقال: «كان حسن الوجه، رقيق اللون، حلو الشمائل، ناعم الجسم، عظيم الرأس. شعره منسدل على وجهه وقفاه دائماً. وكان ألثغ بالراء يجعلها غيناً. وكان نحيفاً وفي حلقه بحة لا تفارقه».

كان أبو نواس شديد التعصب للفرس ولحضارتهم ومآثرهم. وكان يفضلهم على العرب، وقد ظهر ذلك في وضوح في هجائه للعرب أكانوا يمنيين أم عدنانيين، ومن أقواله في هذا الخصوص:

ألا كل بصري يرى أنما العلى ... ملهمة سحق لهن جرينُ
فإن تغرسوا نخلاً فإنّ غراسنا ... ضِرابٌ وطعنٌ في النحور سخينُ
وإن أك بصرياً فان مهاجري ... دمشقُ، ولكن الحديث شجونُ
مجاورُ قوم ليس بيني وبينهم ... أواصرُ إلا دعوةٌ وظنونُ
إذا ما دعا باسمي العريف أجبته ... إلى دعوةٍ مما علي تهونُ
لأزدِ عمانٍ بالمهلب نزوةٌ، ... إذا افتخر الأقوامُ ثم تلينُ
وبكرٌ ترى أن النبوة أنزلت ... على مسمعٍ في الرحمِ، وهو جنينُ
وقالت تميمٌ لا نرى أن واحداً ... كأحتفنا حتى المماتِ يكونُ
فما لمتُ قيساً بعدها في قتيبةٍ ... وفخرٍ به، إن الفخارَ فنونُ

لكنه على الرغم من كرهه للعرب، رأى أنه من الأفضل له أن ينتمي إلى قبيلة عربية ليصحح بها نسبه. فادعى أولاً أنه من ولد عبيد الله بن زياد بن ظبيان، من بكر بن وائل، فقيل له: «إن الرجل الذي تدعي إليه لا عقب له، لأنه فُلج ومات ولا ولد له. فلو قلت من ولد أبان بن زياد أخي عبيد

الله لقبلنا معك». فادعى أنه تميمي وتعصب للنزارية وهجا اليمانية. ومن ثم ترك النزارية وانتسب إلى اليمانية، وعلى الرغم من ذلك ظل يميل إلى الشعوبية الفارسية.

ترك أبو نواس ديواناً ضخماً نجد فيه أخباره مع القيان فضلاً عن قصائد المدح والهجاء والرثاء والعتاب والخمر والمجون والغزل. وقال أبو عبيدة: «أبو نواس في المحدثين مثل امرىء القيس في المتقدمين، فتح لهم هذه الفطن، ودلهم على المعاني، وأرشدهم إلى طريق الأدب والتصرف في فنونه» وقال أبو حاتم السجستاني: «كانت المعاني مدفونة حتى أثارها أبو نواس».

٣ ـ أبو العتاهية

هو إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان العنزي بالولاء، كنيته أبو إسحاق، وغلبت عليه كنية أخرى فدعي أبو العتاهية. ولد سنة ٧٤٧م ونشأ في الكوفة من أم مولاة لبني زهرة ووالد يعمل كحجام. عمل أول الأمر مع أخيه في صناعة الجرار. ومنهم من قال إن أخاه فقط كان يعمل في صنع الجرار، ولما سئل عن ذلك قال: أنا جرار القوافي وأخي جرار التجارة.

إتصل بالمهدي وأخذ منه جوائز كثيرة. وبعد وصول ابنه موسى الهادي إلى الحكم مدحه في قصيدة، فرضي عنه وأغدق عليه بالمال. وفي عهد هارون الرشيد، أصبح أبو العتاهية من أقرب المقربين إلى الخليفة، فحصل منه على الكثير من المال، وروى مخارق المغني: «لما تنسك أبو العتاهية ولبس الصوف أمره الرشيد أن يقول شعراً في الغزل، فامتنع، فضربه الرشيد ستين عصاً، وحلف ألا يخرج من حبسه حتى يقول شعراً في الغزل. فلما رفعت المقارع عنه قال أبو العتاهية: كل مملوك حر والمرأة طالق إن كان الكلام سنة إلا بالقرآن أو بلا إله إلا الله محمد رسول الله. فتحزن الرشيد وأمر أن يحبس في دار ويوسع عليه، ولا يمنع من دخول من يريد إليه. قال مخارق: كانت الحال بينه وبين إبراهيم الموصلي لطيفة، فكان يبعثني إليه أتعرف خبره. فإذا دخلت وجدت بين يديه ظهراً ودواة، فيكتب إلي ما يريد وأكلمه، فمكثت هكذا سنة.

«واتفق أن إبراهيم الموصلي صنع صوتاً، وقال لي: اذهب إلى أبي العتاهية حتى تغنيه هذا الصوت. فأتيته في اليوم الذي انقضت فيه يمينة، فغنيته إياه. فكتب إلي بعد أن غنيته: هذا اليوم تنقضي فيه يميني، فأحب أن تقيم عندي إلى الليل. فأقمت عنده نهاري كله، حتى إذا أذن الناس المغرب، كلمني فقال: يا مخارق، قل لصاحبك أما والله لقر أبقيت للناس فتنة إلى يوم القيامة، فانظر أين أنت من الله غداً. قال مخارق: فكنت أول من أفطر على كلامه، فقلت: دعني من هذا، هل قلت شيئاً للتخلص من هذا الموضع؟ فقال: نعم قد قلت في امرأتي شعراً، قلت: هاته، فأنشدني:

مـن لـقـلـب مـتـيـمٍ مـشـتـاقِ شـفّـه شـوقُـه وطـولُ الـفـراقِ

فكتبتها وصرت إلى إبراهيم، فصنع فيها لحناً، ودخل بها على الرشيد، فكان أول صوت غناه، إياه في ذلك المجلس. وسأله لمن الشعر والغناء، فقال إبراهيم: أما الغناء فلي، وأما الشعر فلأسيرك أبي العتاهية. فقال: أوقد فعل؟ قال: نعم، فدعا به وقال للخادم: كم ضربنا أبا العتاهية؟ قال: ستين عصا. فأمر له بستين ألف درهم، وخلع عليه وأطلقه».

وبعد موت هارون الرشيد مدح أبو العتاهية ابنه محمد الأمين، وبعد مقتل الأمين طلبت زبيدة أم الأمين أن ينظم لها أبو العتاهية شعراً في المأمون، فنظم شعراً على لسانها، وأمرت له بعشرين ألف درهم. وتوفي أبو العتاهية في بغداد سنة ٨٢٥م.

يقال عن أبي العتاهية أنه كان ضعيف البنية، ودقيق العظم وقليل اللحم وأبيض اللون وحسن الهيئة. وكان مولعاً بالنساء، واشتهر بحب عتبة جارية زوجة المهدي، فلما صدته ورفضت أن تتزوجه ارتدى الصوف وتزهد وودع اللهو والشرب، غير أن الناس اتهموه بالزندقة.

كان أبو العتاهية يقول: «لو شئت أن أجعل كلامي كله شعراً لفعلت»، وهذا دليل واضح على مقدرته الفائقة في الشعر. وهجا عدداً من الشعراء منهم والبة بن الحباب الأسدي وسلم الخاسر وعبدالله بن معن بن زائدة الشيباني الذي قال فيه:

لقد بلغت ما قالا فما باليت ما قالا
ولو كان من الأسد لما صال ولا جالا
فصغ ما كنت حليت به سيفك خلخالا
ما تصنع بالسيف إذا لم تك فتالا
أرى قومك أبطالاً وقد أصبحت بطالا

وتناول أبو العتاهية الغزل أيضاً في شعره، لكن الكثيرين اعتبروه ضعيفاً إجمالاً. وجاء في الأغاني: «قال مسلم بن الوليد: كنت مستخفاً بشعر أبي العتاهية، فلقيني يوماً وسألني أن أصير إليه، فجاءني بلون واحد فأكلنا، وأحضر لي ثمراً فأكلنا، وجلسنا نتحدث، وأنشدته أشعاراً في الغزل، وسألته أن ينشدني، فقال:

بالله يا قرة العينين زوريني قبل الممات، وإلا فاستزيريني

ثم أنشدني:

رأيت الهوى جمر الغضا، غير أنه على حره في صدر صاحبه حلو

ثم أنشدني:

يصاب فؤادي حين أرمى، ورميتي تعود إلى نحري، ويسلم من أرمي

فقلت: لا والله، يا أبا إسحاق، ما يبالي من أحسن أن يقول مثل هذا الشعر ما فاته من الدنيا».

وأكثر ما اشتهر به أبو العتاهية، شعره الزهدي الذي وصلنا منه اليوم حوالي ٥٠ بيتاً. وهو يرتكز على الوعظ ودعوة الناس إلى الابتعاد عن ملذات الدنيا والتوبة والعمل الصالح. وعالج أيضاً القضايا الاجتماعية داعياً إلى إصلاح الأخلاق وحسن المعاشرة. ومن أقواله في المال:

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل

وقال الأصمعي عنه: «شعر أبي العتاهية كساحة الملوك يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والخزف والنوى».

٤ ـ أبو تمام

هو حبيب بن أوس الطائي المعروف بأبي تمام. ولد سنة ٧٨٨م في قرية جاسم من إقليم حوران في جنوب سوريا. كان أبوه مسيحياً اسمه تدوس العطار، ولما أسلم أبو تمام حول اسم أبيه إلى أوس. وأورد ابن خلكان أن حبيب نشأ في دمشق وعمل عند أحد الحاكة، ثم سافر إلى فسطاط مصر حيث راح يتردد على مسجدها الجامع حيث عمل كساقٍ للماء، واستمع إلى كل المباحثات العلمية والأدبية واللغوية التي كانت تجري فيه.

بدأ حياته الشعرية التكسبية في مصر حيث مدح عياش بن لهيعة الحضرمي، ومن ثم هجاه لأنه لم يعطه ما أراده وبقي في مصر لمدة خمس سنوات، ومن ثم عاد إلى الشام ومن بعدها إلى حمص حيث التقى بالبحتري وأعجب به وقلده في بعض شعره. وبعد أن سمع بعودة المأمون ظافراً إلى العراق، توجه إليه ومدحه، لكنه لم يحفل به. فانصرف الشاعر عن البلاط حتى وصول المعتصم إلى الحكم، فامتدحه بعدة قصائد وأشهرها البائية.

ومن ثم اتصل بالواثق ومدحه في قصيدتين، كما مدح كبار القوم كآل سهل، وآل وهب، وآل طاهر. وكان أبو تمام يقوم برحلات طويلة، حبس أثناء واحدة منها في همذان حيث أقام في ضيافة أبي الوفاء بن سلمة. وانتقل بعد ذلك إلى الموصل حيث توفي سنة ٨٤٦م، في أواخر خلافة الواثق.

كان أبو تمام مديد القامة، أسمر اللون، وكان يحرص على أن يبدو بمظهر الأعراب العريقين، وقد عابه النقاد أمثال الآمدي والجرجاني والعسكري على ذلك. وكان شديد الاعتداد والزهو بالنفس، ومسرفاً في الإنفاق وفي طلب اللذة. لقد مال إلى اللهو والغناء وشرب الخمرة، لكنه لم يجاهر بالفحش في أقواله وشعره. ومن أبرز ما تميز به أبو تمام ذاكرته القوية، ونقل عنه قوله: «لم أنظم الشعر حتى حفظت سبعة عشرة ديواناً للنساء خاصة دون الرجال».

امتاز شعر أبو تمام بالجزالة وقوة السبك وحسن الإخراج والتأنق في البيان والبديع والشغف بالإغراب لفظاً ومعنى، مما قسم النقاد إلى فريقين:

فريق يزري به ويشهر غرائبه وأخطاءه، وفريق يرى فيه مثال الشاعر العبقري، فيدافع عنه ويبين محاسنه. ونقل صاحب الأغاني خبراً عن محمد بن جابر الأزدي، وكان يتعصب لأبي تمام، قال: «أنشدت دعبل بن علي شعراً لأبي تمام ولم أعلمه أنه له، ثم قلت له: كيف تراه؟ قال: أحسن من عافية بعد يأس، فقلت: إنه لأبي تمام، فقال: لعله سرقه».

ونجد في شعر أبي تمام الكثير من الإشارات التاريخية لعلاقات الأمراء مع بعضهم البعض، وخلافاتهم. . . .

وافتخر بعروبته المستحدثة، وبقبيلته، وبشعره الذي كان يتظاهر البعض بعدم فهمه، فيرد عليهم فازدراء، كما جرى له في مجلس عبدالله بن طاهر في خراسان حيث قال:

أهنّ عوادي يوسف وصاحبه فعزماً، فقد ما أدرك السؤل طالبه

فقال له أحدهم: «لم لا تقول ما يفهم؟» فأجابه: «ولم لا تفهم ما يقال؟».

٥ ـ البحتري

هو الوليد بن عبيد، لقب بالبحتري نسبة إلى جده بحتر من قبيلة طيء. ولد سنة ٨٢١م في بلدة منبج من أعمال حلب حيث نشأ وترعرع وتلقى دروسه الأولى. بدأ بالوصف وهو حديث السن، ثم وقع في غرام زرقية الحلبية فمدحها. ومن حلب انتقل إلى حمص حيث لقي أبا تمام وتتلمذ على يده في الشعر. وتوجه في ما بعد إلى بغداد حيث امتدح الواثق ووزيره ابن الزيات والحسن بن وهب. ولم يقم في العراق إلا بعد أن بويع للمتوكل بن المعتصم فمدحه هو ووزيره الفتح بن خاقان حتى قتلا معاً على مرأى من ناظريه. فآب إلى منبج ومدح المعتز، وظل يتنقل بين العراق والشام حتى حوالي سنة ٨٩٢. وأثناء ولاية المعتضد سكن في منبج وبقي فيها حتى وفاته.

وقال صاحب الأغاني عنه: «كان البحتري من أوسخ خلق الله ثوباً

وآلة، وأبخلهم على كل شيء. وكان له أخ وغلام معه في داره فكان يقتلهما جوعاً، فإذا بلغ منهما الجوع أتياه يبكيان، فيرمي إليهما بثمن أقواتهما مضيقاً مقتراً ويقول: كلا! أجاع الله أكبادكما، وأطال جهادكما!».

ويتميز شعر البحتري الذي جمع القديم والحديث بوضوح الصور واتساق التأليف، وموسيقى التعبير، وسلامة الديباجة ودقة الصياغة. لذلك شبه النقاد شعره بسلاسل الذهب بسبب تماسكه وانسجامه، مما دفع ابن رشيق إلى القول: «إنه شيخ الصناعة الشعرية».

وقال ابن الأثير: «وأما أبو عبادة البحتري فإنه أحسن في سبك اللفظ على المعنى وأراد أن يشعر فغنى. ولقد حاز طرفي الرقة والجزالة على الإطلاق... أتى في شعره بالمعنى المقدود من الصخرة الصماء، في اللفظ المصدغ من سلاسة الماء». أما شوقي ضيف فقال عنه: «هو يحافظ على التراث الفني في مادته وصورته ولا ينزع به منزع ثقافي إلى العدول عن الطريق المألوف... فهو يحافظ على أساليب الشعر الموروثة، وهو شاعر بدوي لا يستطيع أن ينهض بما ينهض به أبو تمام من التعبير عن الرقي العقلي الذي صادف العقل الحضري».

٦ ـ ابن الرومي

هو ابن الحسن علي بن العباس بن جريج، رومي الأصل من ناحية أبيه، فارسي من ناحية أمه، ولد في بغداد سنة ٨٦٣م حيث أمضى حياته، وكان شديد الخوف من السفر عامة. تعلم ابن الرومي اللغة والأدب والعلوم وأعجب بالأخطل، لكنه لم يقلده، ومال إلى المعتزلة في مبادئه وتصرفاته.

اتصل ببني العباس وبعبدالله بن عيسى بن جعفر بن المنصور، لكنه لم يتصل بالخلفاء العباسيين، على الرغم من أنه مدح بعضهم كالمستعين والمعتضد. وأدت قلة عطائهم إلى تحول مدحه إلى عتاب ومن ثم إلى هجاء.

لم ينل ابن الرومي من مدحه على ما كان يتوقعه، فأصيب بضيق بخلقه

واضطراب في أعصابه وخلل في مقاييسه العقلية وراح يميل إلى التشاؤم والتطير. وأصيب بالشيب ومن ثم بالصلع واصفر وجهه وضعف سمعه وبصره وتقوس ظهره. وقد قال في وصف نفسه:

* سلبت سواد العارضين، وقبله بياضهما المحمود، إذ أنا أمرد

* وأضحت قناة الظهر قوس متنها

وقد كان معدولاً، وإن عشت فخخا

وأحدث نقصان القوى بين ناظري

وسمعي، وبين الشخص والصوت، برزخا

* أنا من خف واستدق فما يثقل أرضاً، ولا يسد فضاء

* شغفت بالخرّد الحسان وما يصلح وجهي إلا لذي ورع،

كي يعبد الله في الفلاة، ولا يشهد فيه مساجد الجمع

وكتب صاحب معاهد التنصيص عن تشاؤم ابن الرومي: «إن أصحابه كانوا يرسلون إليه من يتطير من اسمه فلا يخرج من بيته أصلاً، ويمتنع من التصرف سائر يومه. وأرسل إليه بعض أصحابه غلاماً حسن الصورة اسمه حسن، فطرق الباب عليه، فقال: من؟ قال: حسن. فتفاءل به وخرج، وإذا على باب داره حانوت خياط قد صلب عليها درفتين كهيئة اللام ألف. ورأى تحتها نوى تمر، فتطير وقال: هذا يشير بألا تمر. ورجع ولم يذهب معه. وكان الأخفش الأصغر علي بن سليمان يقرع عليه الباب إذا أصبح. فإذا قال: من القارع؟، قال: مرة بن حنظلة، ونحو ذلك من الألفاظ التي يتطير بذكرها. فيحبس نفسه في بيته، ولا يخرج يومه أجمع».

عانى ابن الرومي من حرمان من الحنان بسبب موت أمه وأخيه الأكبر وزوجته وأولاده الثلاثة. وعلى الرغم من ذلك، ظل شديد الذكاء، ومرهف الحس، ودائم التنبه لمواضع النقص عند البشر.

ظل ابن الرومي على هذا النحو حتى لاقته المنية سنة ٨٩٦م عن ٦٠ عاماً. وقد ذكر بن خلكان أنه مات مسموماً، إذ أن أبا الحسين القاسم بن

عبيد الله بن وهب، وزير المعتضد، كان يخاف هجاء الشاعر، فدعاه إلى مائدته، ودس السم في طعامه. فلما أحس بالسم قام، فقال الوزير: إلى أين؟ فقال: إلى حيث أرسلتني. فقال له: سلم على والدي، فقال ابن الرومي: ليست طريقي إلى النار.

قال ابن رشيق في ابن الرومي: «وكان ابن الرومي ضنيناً بالمعاني حريصاً عليها، يأخذ المعنى الواحد ويولده. فلا يزال يقلبه ظهراً بطن، ويصرفه في كل وجه، حتى يميته ويعلم أنه لا مطمع فيه لأحد... وهو أولى الناس باسم شاعر». وقال ابن خلكان: «صاحب النظم العجيب، والتوليد الغريب، يغوص على المعاني النادرة، فيستخرجها من مكامنها، ويبرزها في أحسن صورة ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره، ولا يبقى فيه بقية». وقال العميدي صاحب الإبانة في كلامه على المتنبي: «لا أقيسه في امتداد النفس، وعلم اللغة، والاقتدار على ضروب الكلام، وتصوير المعاني العجيبة، والتشبيهات الغريبة، والحكم البارعة، والآداب الواسعة بابن الرومي».

كان شعر ابن الرومي تعبيراً صادقاً عن شخصيته، ورفيقه الدائم، وحاجة يومية كالماء والهواء، لا غنى له عنها. حتى ليصح القول أن شعر ابن الرومي هو شخصية منظومة بإخلاص وصراحة وطبيعة.

واستحدث ابن الرومي في فن الوصف التصوير الهزلي، فيبالغ في رسم خطوط المصوَر البارزة ويمد حدودها على غير نسبة، مما يثير الضحك. من ذلك وصف اللحى الطويلة والأنوف البارزة، والوجوه الطويلة كوجه عمرو، والأحدب، وجاحظ العينين.

٧ ـ أبو الطيب المتنبي

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي الكندي، المعروف بالمتنبي. كان والده يعمل سقاء في الكوفة، في محلة كندة ويعرف باسم عبدان السقاء. وولد المتنبي في تلك المنطقة فنسب إليها سنة ٩١٥م.

وكان منذ صغره محباً للعلم والثقافة، فقرأ وحفظ كل ما وقعت عليه يده. ثم انتقل مع والده إلى الشام حيث جالس الزجّاج وابن السراج والأخفش وابن دريد وأبي علي الفارسي وتعلم منهم الكثير.

ونشأ المتنبي في عصر كثرت فيه الدعوات السياسية والدينية، وشهدت الخلافة تفسخاً في رقعتها بعد إعلان عدد من الأمراء استقلالهم عن بغداد، فأراد أن يدعو هو أيضاً إلى بدعة جديدة في الدين، لارواء غليله المتعطش إلى السيادة، ومكنته من ذلك فصاحة لسانه وثقافته. فدعا إلى بيعته قوماً من الشباب، وأخذت منهم دعواه أنه علوي. وعظم أمره حتى وصلت أخباره إلى والي البلدة الذي أمر بسجنه. فاستعطفه المتنبي قائلاً:

دعوتك لما براني البلاءُ	وأوهنَ رجلي ثقلُ الحديدِ
وقد كان مشيهما في النعالِ	فقد صار مشيهما في القيودِ
تعجّل في وجوب الحدود	وحدي قبيلَ وجوبِ السجودِ

فأطلق الوالي سراحه، وتوجه إلى بادية السماوة حيث ادّعى النبوة وجمع حوله قوماً من قبائل كلب وكلاب وعبس. فما كان من الأخشيديين إلا أن اشتكوه إلى لؤلؤ أمير حمص، ففرق أتباعه وسجنه، ومن ثم حرره بعد توبته. ومن بعد هذه الحادثة راح ينظم الشعر ويمدح الأمراء.

وفي سنة ٩٤٤م كان سيف الدولة بن حمدان أميراً على حلب، وهو من محبي الشعر والنثر، فجمع في بلاطه عدداً من الشعراء، من بينهم أبو فراس الحمداني والسَريُّ الرفّاء وابن خالويه النحوي. وقدم سيف الدولة إلى أنطاكية وزار أبو العشائر الحمداني والتقى في داره بالمتنبي الذي مدحه، ومن ثم ذهب معه إلى حلب. وكان أبو فراس الحمداني من ألد أعدائه وقد قال يوماً إلى سيف الدولة: «إن هذا المستشرق كثير الإدلال عليك، وأنت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاث قصائد، ويمكن أن تفرق ٢٠٠ دينار على ٢٠ شاعراً يأتون بما هو خير من شعره». وجرت في ما بعد مناظرة لغوية بين المتنبي وابن خالويه النحوي، فقام ابن خالويه وضرب وجه المتنبي بمفتاح فشجه. ولما لم يحرك سيف الدول أي ساكن، غضب المتنبي وتركه متوجهاً

إلى دمشق ومن ثم إلى مصر حيث كان يحكم كافور الأخشيدي سنة ٩٥٧م.

كان رجل يهودي يدعى ابن ملك، والياً على دمشق في ذلك الوقت فطلب من المتنبي أن يمدحه، فرفض. وتوجه إلى الرملة حيث أحسن استقباله أميرها الحسن بن طغج، ووجه كافور رسالة إلى أمير الرملة يطلب فيها من المتنبي أن يتوجه إلى مصر.

كان كافور الأخشيدي عبداً أسود اللون، مخصي، ومثقوب الشفة السفلى، وعظيم البطن، ومشقق القدمين. كان أول الأمر عبداً لأبي بكر محمد بن ملفج، فتوفي سيده عن ولد صغير، فانفرد كافور بخدمته حتى استبد بالملك دونه. وقبل المتنبي بمدحه، لأنه وعده بالحصول على ولاية يكون هو سيدها وولي أمرها. ولقد لمح المتنبي في أكثر من مرة إلى سيف الدولة في أشعاره. وفي سنة ٩٦٢م خرج خفية من مصر، ونظم قصائد في هجاء كافور الذي وعد ولم يف بوعوده.

وتوجه إلى الكوفة حيث مدح أبا الفوارس. وفي سنة ٩٦٥م أرسل عضد الدولة إلى المتنبي يستزيره، فسار إلى شيراز ومدحه وحظي عنده بما كان يأمل. ثم ودعه بقصيدة مدحية سنة ٩٦٥م وتوجه إلى بغداد.

كان برفقة المتنبي أثناء توجهه إلى بغداد ابنه محسَّد وبعض غلمانه. وقبل وصوله إلى المكان المنشود هاجمه فاتك بن أبي جهل الأسدي مع رجاله. فقتل المتنبي وابنه وغلام له اسمه مفلح. كان ذلك في شهر أيلول من سنة ٩٦٥م. أما سبب هذا الهجوم فهو كما ذكر يوسف البديعي في «الصبح المنبي عن حيثية المتنبي» أن المتنبي كان قد هجا أم رجل اسمه ضبة، فأقسم خاله فاتك على أن ينتقم له.

كان المتنبي متميزاً بشهامته، وصبره، وحميته، وعفته، وبعده عن حياة اللهو والمجون وكرهه للخمرة. حتى أنه كان يشترط على ممدوحيه ألا ينشدهم إلا جالساً، وألا يقبل الأرض بين أيديهم، فيرضون رغبة في شعره. ومن غريب صفات المتنبي بخله وحرصه، وقد يكون السبب في ذلك الفقر الذي عانى منه في صغره.

أما إذا أردنا معرفة سر شهرة شعر المتنبي، فيتبين لنا أنه يكمن في قوته ومتانة أسلوبه وكثرة الأبيات الحكمية فيه، أضف إلى ذلك أن الحساد ساهموا في ذلك من دون أن يدروا. وانقسم الأدباء في ثلاثة فرق حول شعر المتنبي فمنهم من يعتقد أن لا أهمية له وأنه مسروق بجملته، وعلى رأس هذا الفريق الساحب بن عباد. وقسم آخر يفضله على سائر الشعراء، وفي طليعته أبو العلاء المعري. أما الفريق الثالث، فهو يعتقد أنه لو لم يكن المتنبي عظيماً لما قامت حوله ضجة، بدأت في حياته ولما تخمد بعد.

تناول المتنبي في شعره المدح، وكانت طريقته في ذلك بين التقليد والإبتكار، إذ كان يبدأ قصيدته أحياناً بالغزل، لينتقل في ما بعد إلى المدح. وفي مرات أخرى كان يستخدم طريقة أخرى فيها الكثير من الابتكار والخلق.

أما الهجاء، فلم يكن يعرف فيه للسخرية معنى، بل كان جارحاً لاذعاً، يمس في العمق. فهو إذا هجا أظهر كل حقده للمهجو، لدرجة أنه لو أراد مدحه في ما بعد لما استطاع أن يمحو وصمات العار التي ألحقها به. ومن أشهر الذين هجاهم كافور الأخشيدي وابن كبغلغ وضبة.

وعالج المتنبي في قصائده الرثاء، لكنه كان يترفع عن المصيبة ويقابل حوادث الدهر بالصبر، فهو شاعر الأفكار والحكم، لا تتملكه الإحساسات الرقيقة، ولا تضل عقله شوارد القلب المختلفة. ومن الذين رثاهم جدته وأبي شجاع فاتك.

أما في ما يتعلق بالفخر، فهو لم ينظم قصائد مستقلة بل جاءت أبياته الفخرية موزعة في قصائده، وجعل نفسه فوق غيره من البشر وهو مصدر كل فخر وشرف:

لا بقومي شرفت، بل شرفوا بي ... وبنفسي فخرت لا بجدودي

وبهم فخر كل من نطق الضاد ... وعوذ الجاني وغوث الطريد

وقسّم الناس إلى فئتين، تضم الأولى الشجعان والكرام والأحرار وبعض الملوك. أما الفئة الثانية فهي تشمل اللئام والعبيد أمثال كافور وبعض الشعراء الحساد.

وقال ابن الأثير في المتنبي: «إذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها وأشجع من أبطالها، وقامت أقواله مقام أفعالها، حتى تظن الفريقين قد تقابلا، والسلاحين قد تواصلا».

٨ ـ أبو فراس الحمداني

هو أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان بن حمدون الحمداني التغلبي، شاعر معروف وبطل بارز، وهو ينتمي إلى أسرة أمراء معروفين. ولد في العراق، وقيل في منبج، في سنة ٩٣٢م، والده هو أبو العلاء سعيد عم سيف الدولة، غير أنه قتل سنة ٩٣٥ على يد ابن أخيه ناصر الدولة بسبب المزاحمة على إمارة الموصل.

نشأ أبو فراس في بلاط سيف الدولة ابن عمه في حلب، وكبر على الفخر بجده وأبيه وأعمامه وابن عمه سيف الدولة. وما إن شب أبو فراس حتى دخل إلى صفوف الجيش ليدافع عن البلاد ضد هجمات الروم. وكان عندما ينتهي القتال يعود إلى البلاط ليدرس الشعر وينافس الأدباء، وكانت له شجارات عديدة مع المتنبي. ووثق فيه ابن عمه وولاه على إمارة منبج وهو دون العشرين من عمره. وكانت هذه الإمارة أخطر ثغر من ثغور الدولة الحمدانية وأسهل طريق ينفذ منه البيزنطيون إلى بلاد الشام، فسهر على حمايتها ودافع عنها ضد الروم، ورد عنها غارات القبائل التي ثارت على الحمدانيين.

واستمر أبو فراس على هذا النحو إلى أن وقع في الأسر في مغارة الكحل سنة ٩٥٩م، وحمل بعدها إلى خرشنة. وسرعان ما نجى من هذا الحصن، ومنهم من يقول أنه فر، ومنهم من يقول أن سيف الدولة فداه. وقال ابن خلكان: «يقال إنه ركب فرسه وركض به، فأهوى به من أعلى الحصن إلى الفرات، والله أعلم».

وفي سنة ٩٦٢، وقع في الأسر مرة ثانية، مع سبعين من رجاله ونقل إلى القسطنطينية حيث بقي أربع سنوات، ولم تكن تصله في تلك الفترة أخبار

ابن عمه والمشاكل التي كانت تواجهه، فراح ينظم الأشعار التي عرفت «بالروميات»، يشكو فيها من إبطاء سيف الدولة بافتدائه، ويتألم من انصرافه عنه، ويبث حنينه إلى أمه العجوز وأهله وأصدقائه وإلى منبج. وفي سنة ٩٦٦ دفع ابن عمه فديته وأطلق سراحه. ولم تمض أشهر قليلة حتى توفي سيف الدولة وكان لأبي المعالي، ابن أخت أبي فراس مولى اسمه قرغويه وكان محباً للسلطة، فنادى بسيده ملكاً على حلب ودخل أبو فراس إلى حمص وولى نفسه عليها. غير أن قرغويه قاد جيشه ضده وقتله في سنة ٩٦٨م. ويقول ابن خلكان: «بلغني أن أبا فراس أصبح، يوم مقتله، حزيناً كئيباً، وكان قد قلق في تلك الليلة قلقاً عظيماً. فرأته ابنته امرأة أبي العشائر كذلك، فأحزنها حزناً شديداً وبكت. فقال هذه الأبيات ورجله في الركاب، وإنما قال ذلك كالذي ينعي نفسه».

أبنيتي لا تجزعي — كل الأنام إلى ذهاب

نوحي علي بحسرة — من خلف سترك والحجاب

قولي، إذا كلمتني — وعييت عن رد الجواب:

زين الشباب أبو فراس — لم يمتع بالشباب

لم يكن أبو فراس يحب أن يطلق عليه اسم الشاعر، لأنه كان يقدم الفروسية والشجاعة على أية صفة أخرى وكان شديد الفخر والاعتداد بنفسه وبإبائه، على الرغم من الأسر الذي وقع فيه. وكان محباً للهو والمرح وشرب الخمر. لذلك ورد في قصائده وصف دقيق لمجالس الأنس. وتمتاز الروميات برقة العاطفة وصدق الطبيعة.

٩ ـ أبو العلاء المعري

هو أبو العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان التنوخي المعري. ولد سنة ٩٧٣ في بلدة معرة النعمان وأصيب بمرض الجدري وهو في الرابعة من عمره، فأصيب بالعمى.

لقنه والده مبادىء اللغة العربية، ثم تتلمذ على يد بعض علماء بلدته،

ومن ثم اعتكف في منزله يطالع الكتب ويحفظ الشعر حتى بلغ العشرين من عمره. وبين سنتي ٩٨٨ و٩٩٤ توجه إلى حلب حيث التقى بعلماء اللغة وتعلم عنهم الكثير وذهب إلى المكتبات والجوامع لتلقي العلوم والمعارف. وفي سنة ١٠٠١ ذهب إلى طرابلس ومر باللاذقية حيث تعلم على يد بعض الرهبان على الديانة المسيحية واليهودية.

ثم رجع إلى المعرة واستقر في منزله وسمى نفسه «رهين المحبسين» وراح يؤلف حول اللغة والشعر والفقه. عاش المعري ناعم البال من غير ترف. وكان سريع الاستيعاب، كثير الحفظ، يكاد يجمع في جعبته مفردات العربية بكاملها، فيتبين صحيحها من زائفها وأصيلها من منحولها.

توفي أبو العلاء في ٢٠ أيار ١٠٥٧م بعد أن اشتد عليه المرض، وطلب أن يكتب على قبره:

هذا ما جناه أبي علي   وما جنيت على أحد

طالع أبو العلاء المعري الشعر العربي من العصر الجاهلي إلى يومه، فصنف الشعراء والكتاب وأظهر نقاط ضعفهم ومواضع إجادتهم. وقد استند في ذلك على ثقافته اللغوية العميقة، وصفاته الخلقية والأدبية وتتلمذ على المدرسة الشامية. فاختصر ديوان أبي تمام وشرحه وسماه «ذكرى حبيب»، وديوان البحتري وسماه «عبث الوليد»، وديوان المتنبي وسماه «معجز أحمد».

وكانت له محاولات شعرية في قصائد «سقط الزند» التي دار فيها حول الفنون الشائعة وتصرف بالمعاني المعروفة ونحت بالعبارة الموشاة بصور البديع.

يعتقد أبو العلاء أن الإنسان ضعيف الإرادة وميال إلى الشرّ وشديد الانقياد إلى هواه. وبما أن الحياة حافلة بالمغريات والفساد، يجب أن يستمع إلى عقله لتفادي شرورها وإلا تلوث بأقذارها. أما في ما يتعلق بشرب الخمرة والاستسلام للملذات الدنيوية، فلقد نبذها أبو العلاء لأن الدين يحرّمها. ووقف من المرأة موقفاً قاسياً، وطلب من الرجال أن يمنعوا المرأة

من التبرج وأن يصونوها في البيت وأن يمنعوها من ارتياد المجتمعات العامة، لأنها أخطر سبل الإغواء. وكذلك رفض الزواج تفادياً للمتاعب وإشفاقاً على الذرية من شقاء الدنيا، وقال في هذا الصدد:

إذا شئت يوماً وصلة بقرينة ... فخير نساء العالمين عقيمها

واعتبر أن الفساد العام يبدأ في الحكم وأصحابه لذلك قال:

* مل المقام فكم أعاشر أمة ... أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها ... وعدوا مصالحها وهم أجراؤها
* يسوسون الأمور بغير عقل ... فينفذ أمرهم ويقال ساسهْ
فأف من الحياة وأفٍّ مني ... ومن زمن رئاسته خساسهْ

أما في ما يتعلق بالدين والإيمان، فاعتبر أن لا يقيمة للفروض الدينية إن لم تقرن بالعمل الصالح والنهي عن الشر:

* سبِّح وصلِّ وطف بمكة زائراً ... سبعين، لا سبعاً، فلستَ بناسكِ
جهل الديانة من إذا عرضتْ له ... أطماعُه، لم يلف بالمتماسكِ
* ما الخير صومٌ يذوب الصائمون له ... ولا صلاةٌ ولا صوف على الأجسادِ
وإنما هو ترك الشر مطرحاً ... ونفضك الصدر من غل ومن حسدِ

وأهم المؤلفات التي تركها أبو العلاء المعري: «لزوم ما لا يلزم»، ديوان «سقط الزند»، و «رسالة الغفران» و «رسالة الملائكة»، و «رسائل أبي العلاء».

أعلام النثر العباسي

١ ـ ابن المقفع

هو روزبه بن داذويه، أصله من جور في بلاد فارس، وهي فيروزباد الحالية، حيث ولد سنة ٧٢٤م. كان والده يعمل للحجاج بن يوسف الذي ولاه خراج خراسان، فامتدت يده إلى أموال الجباية، فعذبه الحجاج في البصرة حتى تقفعت يده، أي تقبضت وتشجنجت أصابعها، فعرف بالمقفع.

نشأ ابن المقفع في البصرة، ودفعه والده إلى الدراسة. فأتقن العربية على أبي جاموس ثور بن يزيد، وأبي الغول الأعرابي، حتى تفوق فيها. وأسلم روزبه في ما بعد، فعرف باسم عبدالله وكني أبا عمرو ثم أبا محمد ثم انتقل إلى كرمان واتصل بداود بن يزيد بن عمر بن هبيرة، فكتب له، على ما جاء في «الفهرست».

وعند انهيار الدولة الأموية، تقرب من العباسيين واتصل بابناء علي أعمام السفاح والمنصور وهم عيسى واسماعيل وسليمان، وانتقل معهم إلى البصرة.

كان دين ابن المقفع الأساسي هو المجوسية الملقحة بالمزدكية والمانوية. وذكر ابن خلكان، أنه بعد قدومه إلى البصرة أسلم على يد عيسى بن علي. غير أن الكثيرين ظلوا يشكون في إسلامه، واتهموه بالزندقة. وقال الخليفة المهدي: «ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع» وكان يضم مجلسه في البصرة كبار القوم أمثال معن بن زائدة، ومسلم بن قتيبة، وعبد الحميد الكاتب...

وعندما أصبح سفيان بن معاوية المهلبي والياً على البصرة، عامله ابن المقفع بازدراء، لأنه عدو قديم له. فكان إذا دخل عليه يوماً قال: «السلام عليكما»، ويعني بذلك نفسه وأنفه الطويل.

وفي سنة ٧٥٩م، أوعز المنصور إلى سفيان بقتل ابن المقفع. ويروى أن سفيان قال له: «ليس علي في هذه المثلة بك حرج لأنك زنديق وقد أفسدت الناس»، وقتله شر قتلة.

من كتبه: الأدب الكبير، والأدب الصغير، ورسالة الصحابة، وكليلة ودمنة.

يعد ابن المقفع من أئمة البلاغة العربية، وهو صاحب «السهل الممتنع»، ولقد شرح ذلك بقوله: «البلاغة المثلى هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها. إياك والتتبع لوحشي الكلام طمعاً في نيل البلاغة، فإن ذلك هو العي الأكبر». وقال الراغب الأصبهاني: «كان ابن المقفع كثيراً ما يقف إذا كتب. فقيل له في ذلك فقال: إن الكلام يزدحم في صدري فأقف لتخيره». وقال فيه أبو عيناء: «كلامه صريح، ولسانه فصيح، وطبعه صحيح. كأن بيانه لؤلؤ منثور، وروض ممطور».

٢ ـ الجاحظ

هو إمام الأدباء وحجة المفكرين في العصر العباسي الثاني وهو عمرو بن بحر بن محبوب، من موالي كنانة، وكان جده أسود اللون ويعمل جمالاً لعمرو بن قلع الكناني. ولد في البصرة سنة ٧٧٥م.

كان دميم الهيئة، بشع المنظر، قصير القامة، ناتىء العينين، لذلك لقب بالجاحظ. وقال على سبيل التفكهة أخباراً كثيرة عن قبح صورته منها: «ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده، فلما رأني استبشع منظري، فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني». وقال أيضاً: «رأيت في سامراء، امرأة طويلة، وكنت على طعام. فاردت أن أمازحها، فقلت: انزلي كلي معنا، فقالت: اصعد أنت حتى ترى الدنيا».

جالس الجاحظ المسجديين وعاشرهم، وطلب العلم في الكتاتيب واكترى دكاكين الوراقين ليطالع ليلاً ما يقدر عليه. فألم بثقافة واسعة وبكثير من مجاري الحياة العقلية والأدبية.

وانتقل في ما بعد إلى بغداد وجالس الأصمعي وأبا زيد الأنصاري، فأتقن اللغة ودرس النحو على الأخفش، وتتلمذ لأبي اسحق إبراهيم بن سيار البلخي المشهور باسم «النظام».

وبعد أن اكتملت شخصيته الأدبية بدأ بالتأليف، وأعجب الخليفة المأمون بكتابه «الإمامة»، فاستقدمه إلى حاشيته وولاه ديوان الرسائل، لكنه استقال منه بعد ثلاثة أيام.

في سنة ٨٣٥م اختار الخليفة المعتصم محمد بن عبد الملك المعروف بابن الزيات وزيراً له، ثم صار وزيراً لخلفه الواثق، وكان من أصدقاء الجاحظ، فراح يمتدحه ويكتب له الرسائل. وعندما بويع المتوكل، عين القاضي أحمد بن أبي دؤاد، وزيراً له. فألقي القبض على ابن الزيات وقتله تعذيباً في تنور. حاول الجاحظ الهرب، لكن رجال ابن أبي دؤاد سرعان ما القوا عليه القبض وأدخلوه على القاضي الذي قال له: «والله ما علمتك إلا متناسياً للنعمة، كفوراً للصنيعة، معدناً للمساوىء، والأيام لا تصلح منك لفساد طويتك ورداءة دخلتك». فأجابه الجاحظ: «خفض عليك، أيدك الله، فوالله لأن يكون لك الأمر علي خير من أن يكون لي عليك، ولأن أسيء أحسن في الأحدوثة عنك من أن أحسن مشيء، ولأن تعفو عني في حال قدرتك أجمل بك من الانتقام مني». فقال ابن أبي دؤاد: «قبحك الله، ما علمتك إلا كثير تزويق الكلام...» ثم جلبوا الحداد وأمروه بتعنيف ساق الجاحظ وتطويل أمرها قليلاً، ففعل. فقال الجاحظ: «اعمل عمل شهر في يوم، وعمل يوم في ساعة، وعمل ساعة في لحظة. فإن الضرر على ساقي وليس بجذع ولا ساجة». وقال القاضي لمحمد بن منصور: «أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه. يا غلام صر به إلى الحمام، واحمل إليه تخت ثياب».

وانقطع الجاحظ إلى القاضي سنة كاملة وقدم له كتاب «البيان والتبيين» فأجازه. واتصل من بعده بابنه الويلد وبالفتح بن خاقان.

ولما تقدم به العمر، أصيب بطرف فالج، فعاد إلى البصرة حيث أمضى بقية حياته. وقال المبرد: «دخلت على الجاحظ في آخر أيامه، فقلت له: كيف أنت؟ فقال: كيف يكون من نصفه مفلوج لو نشر بالمناشير لما أحس به، ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآلمه». وتوفي سنة ٨٦٨م، ويقول البعض أن مجلدات الكتب سقطت عليه وقتلته.

ومن مؤلفات الجاحظ كتاب «البيان والتبيين» وكتاب «البخلاء» و «العشق والنساء» و «طبقات المغنيين» و «الرد على الأنصاري» و «القيان» و «كتاب العثمانية» وكتاب «الحيوان»...

فلاسفة العصر العباسي

١ ـ الكنـدي

نشأ أبو يعقوب الكندي (القرن التاسع للميلاد) نشأة علمية ودرس في الكوفة حيث كان والده والياً للعباسيين، ثم تابع تعليمه في البصرة، وسافر في ما بعد إلى بغداد حيث اتصل بكبار علمائها ومنهم المأمون. وأطلع في بغداد على آراء المعتزلة وأسهم في نشاطهم الفكري، لكنه حافظ على استقلال آرائه.

وكان الكندي أول فيلسوف حاول التوفيق بين الفلسفة والدين. فنظر أولاً في مدلول الفلسفة، ثم بحث في مضمونها، وتطرق إلى الكون والجوهر والعرض، وماهية النفس ومآلها، وقوة العقل وأنواع الإدراك.

ومن أهم انجازات الكندي، أنه قلص الفرق بين الشريعة والفلسفة، إذ جعل التقريب بين التعليم الديني والمبدأ الفلسفي نقطة انطلاق لتفكيره. ثم قال إن القضايا الكلامية والفلسفية هي فروع من أصل وأجزاء من كل. وعمد الكندي إلى تبني بعض مقررات الفلسفة ومن ثم ألف منها ومما يقابلها في الشريعة مذهباً يوفق في نظره بين الفلسفة والشريعة. واعتبر أن الهدف من الفلسفة والشريعة واحد. فالفلسفة هي علم الأشياء بحقائقها، فالغاية منها إدراك الحقيقة، والشريعة تعلم الإنسان ما هو حق. غير أنه فرق ما بين الفلسفة والشريعة في ما يتعلق بالوسيلة التي تؤدي إلى إدراك هذه الحقيقة. فمصدر الحق في الشريعة هو الوحي، أما الحقيقة الفلسفية فهي وليدة الجهد الفكري، لذلك هي معرضة للخطأ. واعتقد أن الشريعة تساعد على توضيح الغامض من الفلسفة، كما تساعد تفاصيل الفلسفة على فهم غوامض الشريعة.

٢ ـ الفارابي

الفارابي هو أبو نصر محمد بن طرفان، ولد سنة ٨٧٠م في فاراب من بلاد الترك وراء النهر وإليها نسب. وعندما بلغ سن الشباب توجه إلى بغداد حيث درس الفلسفة عند أبي بشر متى بن يونس والمنطق على يد يوحنا بن حيلان، واللغة عند ابن السراج. وكان ضليعاً بالعلوم والفلسفة والطب والرياضيات والكيمياء والموسيقى واضطر في ما بعد إلى الانتقال إلى حلب، بعد وقوع فتنة في بغداد، والتحق ببلاط سيف الدولة واحتل مركز الصدارة في مجلس أمير حلب يناقش ويناظر، ثم مال إلى التقشف والزهد والعزلة ونبذ أمور الدنيا. وقيل أنه توفي سنة ٩٥٠م.

وفق الفارابي في كتابه «الجمع بين رأيي الحكيمين» بين آراء أفلاطون وأرسطو، واعتبر أن الخلاف ظاهري وحسب وانهما على اتفاق في أصول الفلسفة ومقاصدها وأغراضها وحاول في كتابه «آراء أهل المدينة الفاضلة» التوفيق بين الحكمة والشريعة واعتبر أنه على الملك أن يكون فيلسوفاً ونبياً في الوقت نفسه.

اعتمد الفارابي في التوفيق بين الدين والفلسفة على مبدأين أساسيين هما:

١ ـ الأصل الواحد للفلسفة والدين وهو الله. فمرد الشريعة إلى الوحي، والوحي من عند الله، ومرد الفلسفة إلى الطبيعة، والطبيعة من صنع الله.

٢ ـ تلقي النبي والفيلسوف المعرفة من ينبوع العلم الإلهي: غير أن النبي يتلقاه بواسطة جبريل حامل الوحي، ويتلقاه الفيلسوف من العقل الفعال وهو أسمى العقول. والفرق بين النبي والفيلسوف هو أن النبي يتلقى الحقائق متجلية بصورها وأشكالها فتبدو له مماثلاتها الحسية كما تبدو ماثلة في عالم الأجسام، أما الفيلسوف فيستخرج الحقائق من قرائنها بالاستنتاج والاستدلال، فيأخذها مجردة عن الملابسات المادية.

واعتبر الفارابي أن للمدينة الفاضلة أساسين هما التعاون والسعادة. ويكون التعاون فكرياً فيؤدي إلى تفهم الله والوجود، وعملياً يؤدي إلى ممارسة الفضيلة وعمل الخير. ورأى أن المجتمع قد ينشأ إما عن طريق القهر، أو بواسطة القربى والمصاهرة، أو بالاشتراك في الإيمان أو نتيجة لمناخ جامع وجغرافيا واحدة. والمجتمعات اما كاملة تشمل المعمورة أو الأمة، أو ناقصة تشمل القرية أو المحلة أو السكة أو المنزل.

وشبّه المدينة الفاضلة بالبدن الصحيح الذي تتعاون أعضاؤه في سبيل تتميم الحياة، مع اختلاف عمل كل عضو منها، وعلى رأسها القلب. والرئيس في المدينة هو بمثابة القلب في البدن. وينبغي أن يتحلى الرئيس باثنتي عشرة خصلة: سليم البدن، وجيد الفهم، وجيد التصور، وحسن العبارة، ومحب للتعليم، وغير شره، وصادق، وغير لجوج في العدل، وقوي العزيمة، وجسور، ومؤات لكل ما يراه حسناً وجميلاً. وإذا لم تتوفر هذه الصفات في شخص واحد، فتتوزع على مجموعة حاكمة، شرط أن تكون الحكمة في شخص، فإن خلت المدينة من الفلاسفة غمرها الجهل وأصبح مصيرها الانهيار.

أما مضادات المدينة الفاضلة فهي المدينة الجاهلة والمدينة الفاسقة والمدينة المتبدلة والمدينة الضالة.

٣ ـ ابن سينا

هو أبو علي الحسين بن علي بن سينا (٩٨٠ ـ ١٠٣٧)، الملقب بالشيخ الرئيس. ولد في قرية «أفشنة» الفارسية، ومن ثم انتقل مع أهله إلى بخارى حيث كانت الفارسية لغة البلاط، والعربية لغة الديوان والمراسلات. درس العلوم على أنواعها من الفقه إلى الفلسفة والطب، ثم انتقل إلى خوارزم حيث بقي حوالي ١٠ سنوات، ومنها ذهب إلى جرجان فالري، ثم إلى همذان حيث بقي ٩ سنوات، ومن ثم دخل في خدمة علاء الدولة بأصفهان، وتوفي في همذان.

عالج ابن سينا قضية النفس وعرّفها بقوله: «هي كمال أول لجسم طبيعي آلي»، وبها تكون الكمالات الأولية في صدور الأفعال، وهي صورة الجسد وقوته وكماله، وهي خالدة لا تفنى بفناء الجسد.

ولإثبات وجود النفس، يعطي ابن سينا عدة أدلة، نذكر منها «دليل الحدس» وفيه يقول: «إنك إذا رجعت إلى أنيتك ودخيلة أمرك لا تغفل عن وجود ذاتك. . . حتى أن النائم في نومه، والسكران في سكره، لا يغفل عن ذاته. . . وإنك لو عدت إلى ذلك لوجدت أنك قد غفلت عن كل شيء، إلا عن ثبوت أنيتها». وأعطى مثل «الرجل الطائر أو المعلق في الفضاء لإثبات أن إدراك الأنا» لا يكون بواسطة الجسد بل بقوة خارجة عنه: «ويجب أن يتوهم الواحد منا أنه خلق دفعة واحدة، وخلق كاملاً، ولكنه صحب بصره على مشاهدة الخارج، وخلق في هواء أو خلاء لا يصدمه فيه الهواء صدماً يشعر به، وفرق بين أعضائه فلا تتلاقى، ولا تتماس. هذا الرجل لا يشك في إثباته لذاته موجوداً، ولا يثبت طرفاً من أعضائه، ولا باطناً من أحشائه، ولا قلباً ولا دماغاً، بل هو يثبت ذاته ولا يثبت لها طولاً ولا عرضاً ولا عمقاً». وأعطى دليل «التذكر والاستمرار» للقول ان في الإنسان قوة غير الجسد تحفظ أعماله وتجمع الشتيت الزمني، وهذه القوة التي تجمع بين الماضي والحاضر هي النفس.

واعتبر أن النفس خالدة لأنها جوهر بسيط والبسيط لا ينحل ولا يفسد. والنفس أيضاً حياة وطبيعتها منافية للموت، وليس لها استعداد للفناء ولا هي تقبل الفساد وعليه فالنفس بسيطة، حية، خالدة. وليس الجسم علة النفس ولا قوامها، فهي التي تتدبر أمره وتقوده إلى الفعل والإدراك.

٤ ـ الغزالي

ولد أبو حامد الغزالي في قرية غزالة التابعة لمنطقة طوس من أعمال خراسان سنة ١٠٥٩م. توفي والده وهو لا يزال صغيراً، فتولى تربيته صديق لوالده، ثم انتقل إلى جرجان ومن ثم إلى نيسابور حيث اتصل بأبي المعالي الجويني إمام الحرمين، فاستكمل درس الكلام والجدل والمنطق والفلسفة.

ثم تولى التدريس في مدرسة الوزير السلجوقي نظام الملك في بغداد حيث ذاع صيته. غير أنه أصيب بمرض فشل عن علاجه الأطباء، فاضطر إلى السفر إلى البيت الحرام حيث كرس وقته للصلاة والتأمل. ثم رجع إلى نيسابور وإلى مسقط رأسه حيث توفي سنة ١١١١م. ومن أهم مؤلفاته: «مقاصد الفلاسفة» و «تهافت الفلاسفة» و «إحياء علوم الدين» و«المنقذ من الضلال» ورسالة «أيها الولد».

اتخذ الغزالي نور الإيمان نقطة الانطلاق ومبدأ المعرفة للوصول إلى العلم اليقيني، وقد قال في ذلك: «العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم». وظل يبحث عن العلم اليقيني من دون أن يجده حتى قذف الله في صدره نوراً استطاع به أن يتخلص من شكه. وتبين له أن «الكشف» وحده كفيل بأن يدرك أكثر المعارف، إنه مفتاح المعرفة، ولن يؤتي هذا المفتاح إلا من آمن بالنبوة.

واعتبر الغزالي أن الإنسان هو على صورة الله وله وجود قائم بذاته له صفاته وجوهره وأعماله. والإنسان هو صورة مصغرة للكون وانعكاس لحقيقة العالم الأكبر. والنفس بنظره هي مركز الشهوات المؤدية إلى الهلاك، وموضع الترفع والتسامي المؤدي إلى السعادة الأبدية. وهي مرآة صدئة يجب أن تصقل، ومتى صقلت انعكست فيها صورة العالم الأعلى.

نماذج من العصر العباسي

بشار بن برد

هجاء أبي جعفر المنصور

كان بشار مبعداً عن البصرة عندما ثار فيها إبراهيم عبدالله العلوي يريد الخلافة لأخيه محمد الثائر في المدينة، فأرسل الشاعر إلى إبراهيم بهذه القصيدة من الكوفة يهجو بها أبا جعفر المنصور ويحرض على قتله ويضم إلى ذلك أبياتاً يمدح بها الثائر ويشير عليه:

أبا جَعفرٍ! ما طولُ عَيشٍ بدائِمٍ؛ ... ولا سالِمٌ، عمّا قليلٍ، بسالمِ

على المَلِكِ الجَبّارِ يَقتَحِمُ الرّدى، ... ويَصرَعُهُ في المأزِقِ المُتَلاحِمِ[1]

كأنّكَ لم تَسمَعْ بقَتلِ مُتَوَّجٍ ... عظيمٍ، ولم تَسمَعْ بفَتكِ الأعاجِمِ

تَقَسّمَ كِسرَى رَهطُهُ بسيوفِهِمْ، ... وأمسَى أبو العبّاسِ أحلامَ نائِمِ[2]

وقد كانَ لا يَخشَى انقلابَ مكيدَةٍ ... علَيهِ، ولا جَريَ النُّحوسِ الأشائِمِ[3]

مُقيماً على اللّذّاتِ، حتى بدَتْ لهُ ... وجوهُ المَنايا حاسراتِ العَمائِمِ[4]

وقد تَرِدُ الأيّامُ غُرّاً، وربّما ... وَرَدنَ كُلوحاً، بادياتِ الشّكائِمِ[5]

---

(١) المأزق: المضيق. المتلاحم: المتلاصق بالمتحاربين.

(٢) تقسم: قطع. رهطه: قومه. أبو العباس: كنية الوليد بن يزيد. مات مقتولاً متهماً بالكفر والمجون.

(٣) الأشائم: جمع الأشأم أي الكثير الشؤم.

(٤) حاسرات العمائم: كاشفات الرؤوس. كناية عن وقوع الشر.

(٥) غراً: بيضاً مشرقة، من غرة الجواد. كلوحاً أي كالحة: عابسة مكشرة بادية الأسنان. الشكائم: جمع الشكيمة وهي حديدة اللجام المعترضة في فم الفرس. شبه الأيام بالخيول العابسة البقادية الشكائم لتكشيرها، وهي في حالة الضيق والشدة.

ومَروانُ قد دارَتْ على رأسِهِ الرّحى، ... وكانَ، لِما أجرَمتَ، نَزرَ الجَرائِمِ[1]

فأصبَحتَ تَجري سادراً في طريقِهِمْ، ... ولا تَتّقي أشباهَ تلكَ النّقائِمِ[2]

تَجَرّدتَ للإسلامِ تَعفو طَريقَهُ، ... وتُعري مَطاهُ لليُوثِ الضّراغِمِ[3]

فما زِلتَ، حتى استَنصرَ الدّينُ أهلَهُ ... عليكَ، فعاذوا بالسّيوفِ الصّوارِمِ[4]

فرُمْ وَزَراً يُنجيكَ يا ابنَ سَلامةٍ، ... فلَستَ بناجٍ من مَضيمٍ وضائِمِ[5]

لحَا اللّهُ قَوماً رأسوكَ علَيهِمُ، ... وما زِلتَ مَرؤوساً خَبيثَ المَطاعِمِ

أقولُ لبَسّامٍ، علَيهِ جَلالَةٌ، ... غَدا أريحيّاً عاشقاً للمَكارِمِ

منَ الفاطِميّينَ الدّعاةِ إلى الهُدى ... جِهاراً، ومَن يَهديكَ مثلُ ابنِ فاطمِ؟

سِراجٌ لعَينِ المُستَضيءِ، وتارَةً ... يَكونُ ظَلاماً للعَدوّ المُزاحِمِ:

إذا بَلَغَ الرّأيُ المَشورَةَ، فاستَعِنْ ... برأيِ نَصيحٍ أو نَصيحَةِ حازِمِ

ولا تَجعلِ الشّورى علَيكَ غَضاضَةً، ... فإنّ الخَوافي قُوّةٌ للقَوادِمِ

وما خَيرُ كَفٍّ أمسَكَ الغُلُّ أُختَها، ... وما خَيرُ سَيفٍ لم يُؤيَّدْ بقائِمِ

إذا كنتَ فرداً، هَرّكَ النّاسُ مُقبِلاً؛ ... وإن كنتَ أدنَى، لم تَفُزْ بالعَزائِمِ

فأذنِ، على القُربَى، المُقرِّبَ نفسَه، ... ولا تُشهِدِ الشّورى امرأً غيرَ كاتِمِ

وحارِبْ، إذا لم تُعطَ إلاّ ظُلامَةً، ... شَبا الحَربِ خيرٌ من قَبولِ المَظالِمِ

وخَلِّ الهُوَينا للضّعيفِ، ولا تَكُنْ ... نَؤوماً، فإنّ الحَزمَ ليسَ بنائِمِ

---

(١) مروان بن محمد: آخر خلفاء بني أمية. قتله أبو العباس السفاح في مصر. الرحى: الطاحون ويكنى بها عن شدة الحرب وحومة الموت فيها.

(٢) سادراً: غير مبال ولا يهتم بما يصنع. النقائم: جمع النقيمة وهي الانتقام.

(٣) تعفو: تمحو. مطاه: ظهره. الليوث: الأسود. الضراغم جمع الضرغام وهو الأسد أو صفة له. يقول: أخذت تمحو طريق الإسلام، وتجعل ظهره مركباً لأعدائه.

(٤) فما زلت: أي فما زلت تفعل ذلك. استنصر الدين أهله: أي أن الدين دعا العلويين أهل البيت إلى نصرته. عاذوا: لاذوا واعتصموا. الصوارم: السيوف القواطع.

(٥) الوزر: الملجأ. سلامة: أم المنصور. وقد جعل بشار موضعها يا ابن وشيكة؛ وهي أم أبي مسلم الخراساني، عندما قلب القصيدة وحولها إلى مدح المنصور وهجاء أبي مسلم. مضيم وضائم: مظلوم وظالم. أي من مظلوم قهرته أو ظالم يقهرك.

فإنكَ لا تَستَطرِدُ الهَمّ بالمُنى، ولا تَبلُغُ العَليا بغَيرِ المَكارِمِ
فما قَرَعَ الأقوامَ مثلُ مُشَيَّعٍ أريبٍ، ولا جَلّى العَمى مثلُ عالِمِ

ترك الغزل

يا مَنظَراً حَسَناً رأيتُهْ، مِن وَجهِ جارِيَةٍ فَدَيتُهْ
بَعَثَتْ إليّ تَسومُني بُردَ الشّبابِ، وقد طَوَيتُهْ
واللّهِ رَبِّ مُحَمّدٍ، ما إنْ غَدَرتُ، ولا نَوَيتُهْ
أمسَكتُ عنكِ، ورُبّما عرَضَ البَلاءُ، وما ابتَغَيتُهْ
إنّ الخَليفَةَ قد أبَى، وإذا أبَى شَيئاً أبَيتُهْ
ومُخَضَّبٍ رَخصِ البَنا نِ بكَى عليّ، وما بكَيتُهْ
قامَ الخَليفَةُ دونَهُ، فصَبرتُ عنهُ، وما قَلَيتُهْ
ونَهاني المَلِكُ الهُما مُ عنِ النّسيبِ، وما عصَيتُهْ
لا بلْ وَفَيتُ فلَمْ أضِعْ عَهداً، ولا وأياً وأيتُهْ
وأنا المُطِلُّ على العِدا، وإذا غَلا عِلْقٌ، شَرَيتُهْ
أُصفي الخَليلَ، إذا دَنا، وإذا نأى عَنّي، نأيتُهْ
ويَشُوقُني بَيتُ الحَبيـ ـبِ، إذا اذكَرتُ، وأينَ بَيتُهْ؟

لم يطل ليلي

لم يَطُلْ لَيلي، ولكن لم أنَمْ، ونَفَى عنّي الكَرى طَيفٌ ألَمّ
وإذا قُلتُ لها: جُودي لَنا، خرَجتْ بالصّمتِ عن لا ونَعَمْ
نَفّسي يا عَبدَ عنّي، واعلَمي أنّني، يا عبدَ، من لحمٍ ودَمْ
إنّ في بُردَيّ جِسماً ناحِلاً، لو تَوَكّأتِ علَيهِ، لانهَدَمْ
خَتَمَ الحبُّ لها في عُنُقي، موضعَ الخاتمِ، من أهلِ الذّمَمْ

الأذن العاشقة

يا قَومُ، أُذني لبَعضِ الحَيّ عاشِقَةٌ، والأُذنُ تَعشَقُ قَبلَ العَينِ أحيانَا

قالوا: بمَن لا ترى تَهذي؟ فقلتُ لهم: الأذنُ كالعَينِ تُوفي القَلبَ ما كانَا[1]
هَلْ مِن دَواءٍ لمَشغوفٍ بجارِيَةٍ، يَلقى بلُقيانِها رَوحاً ورَيحانَا[2]؟

يا رحمة الله حلّي!

قال هذه الأبيات في جارية اسمها رحمة الله:

يا أطيَبَ النّاسِ ريقاً غيرَ مُختَبَرٍ، لولا شَهادَةُ أطرافِ المَساويكِ
قد زُرتِنا مَرّةً في العامِ واحِدةً، ثَنّي، ولا تَجعَليها بَيضةَ الدّيكِ[3]
يا رَحمةَ اللّهِ، حُلّي في مَنازِلِنا، حَسبي برائحَةِ الفِردوسِ من فِيكِ

صفة حسناء

يا لَيلَتي تَزدادُ نُكرَا، من حُبّ مَن أحبَبتُ بِكْرَا
حَوراءُ إن نظَرَتْ إلَيـ ـكَ، سقَتك بالعينينِ خَمرَا[4]
وكأنّ رَجعَ حَديثِها قِطَعُ الرّياضِ، كُسينَ زَهرَا[5]

غضبة مضرية

إذا ما غَضِبنا غَضبَةً مُضَرِيّةً، هَتكنا حِجابَ الشّمسِ، أو تُمطرَ الدِّما[6]

---

(١) توفي: تبلغ.
(٢) الروح: الراحة والسرور.
(٣) على اعتقاد العامة أن الديك يبيض مرة في السنة.
(٤) الحوراء: أي حوراء العينين، من الحور وهو شدة البياض والسواد في العين مع استدارة الحدقة ورقة الجفون.
(٥) يقول: إن حديثها جميل فيه ألوان متنوعة كأزهار الرياض.
(٦) حجاب الشمس: شعاعها. هتكنا: فضحنا. أو: بمعنى إلى أن أو حتى. يقول: إذا ما غضبنا غضبة شريفة عرف بها أهل مضر، سللنا سيوفنا للقتال ففضحنا بلمعانها لمعان أشعة الشمس لأنها أشد بريقاً من الشمس. وتظل الشمس مفضوحة في نورها إلى أن تمطر دماء أعدائنا، فتكتسي بها سيوفنا، فيذهب لمعانها. وفي هذا البيت إيجاز حذف لا يظهر فيه المعنى إلا بشرح مسهب.

خلَقنا سَماءً فوقَنا بنُجومِها — سُيوفاً، ونَقعاً يَقبضُ الطَّرفَ، أقتَما[1]
وإنّا لَقَومٌ ما تَزالُ جِيادُنا — تُساوِرُ مَلكاً، أو تُناصِبُ مَقنَما[2]
إذا ما أعَرنا سَيّداً مِنْ قَبيلَةٍ — ذُرى مِنبَرٍ، صَلّى علَينا وسَلّما[3]

آراؤه وعقائده

الجبرية

طُبِعتُ على ما فيّ غَيرَ مُخَيَّرٍ — هَوايَ، ولو خُيّرتُ كنتُ المُهذَّبَا
أُريدُ فلا أُعطى، وأُعطى ولم أُرِدْ، — وقَصّرَ عِلمي أنْ أنالَ المُغَيَّبَا
فأُصرَفُ عن قصدي، وعلمي مُقصِّرٌ، — وأُمسي، وما أُعقِبتُ إلاّ التّعَجّبَا

البعث والحساب

كيفَ يَبكي لمَحبَسٍ في طُلول، — مَن سيُفضي لحَبسِ يومٍ طويلِ[4]
إنّ في البَعثِ والحِسابِ لَشُغلاً — عن وُقوفٍ برَسمِ دارٍ مُحيلِ[5]

مجوسيّة

إبليسُ أفضَلُ من أبيكُمْ آدَمٍ، — فتَبَصّروا، يا مَعشَرَ الفُجّارِ
النّارُ عُنصُرُهُ، وآدمُ طينَةٌ، — والطّينُ لا يَسمُو سموَّ النّارِ

---

(١) نقعاً: غباراً. يقبض: ضد يبسط. الطرف: البصر. أقتم: أسود.

(٢) تساور: تواثب. تناصب: تقاوم.

(٣) يقول: نحن أصحاب المنابر، وهي ملك لنا؛ فإذا أعرنا سيد قبيلة منبراً ليخطب عليه، بدأ بالصلاة والسلام على محمد وآله، ومحمد من مضر فكأنه صلى وسلم على مضر كلها. والشاعر ينتسب إلى بني عقيل بالولاء، وعقيل من بني عامر، وعامر قيسية مضرية.

(٤) المحبس: اسم مكان من الحبس أي الوقف ويريد به حبس الإبل على الطلول الدوارس للبكاء على الأحبة. سيفضي: سيصير. حبس يوم طويل: أي عذاب الآخرة.

(٥) محيل: من أحال الشيء أتت عليه أحوال أو تغير من حال إلى حال.

أبــو العتاهيــة

إنه واحد:

ألا! إنّــنــا كــلّــنــا بــائِــدُ، وأيُّ بَـــنــي آدَمٍ خــالِــدُ؟
وبَــدؤهــمُ كــانَ مِــن رَبّــهِــمْ، وكــلٌّ إلــى رَبّــهِ عــائِــدُ
فـيـا عَـجَـبـا! كـيـفَ يُـعـصَـى الإلَـ ـهُ، أم كـيـفَ يـجـحـدُه الـجـاحـدُ؟
وفــي كــلّ شــيءٍ لــهُ آيَــةٌ، تَــدُلّ عــلــى أنّــهُ واحِــدُ

وخذ ما أنت محتاج إليه

أرى الـدّنـيـا، لـمـن هـيَ فـي يَـديـهِ، عَـذابـاً كُـلّـمـا كَـثُـرَتْ لَـدَيـهِ
تُـهـيـنُ الـمُـكـرِمـيـنَ لـهـا بـصُـغـرٍ، وتُـكـرِمُ كـلَّ مَـن هـانَـتْ عـلَـيـهِ
إذا اسـتَـغـنَـيـتَ عَـن شـيءٍ فـدَعْـهُ، وخُـذْ مـا أنـتَ مُـحـتـاجٌ إلَـيـهِ

ذم الفقر

يُــكــرَمُ الــمَــرءُ، وإنْ أمــ ـلَــقَ أقــصــاهُ بَــنُــوهُ[1]
لــو رأى الــنّــاسُ نَــبــيّــاً ســائِــلاً مــا وَصَــلُــوهُ
لا تَــرانــي آخِــرَ الــدّهــ ـرِ بــتَــســآلٍ أفُــوهُ[2]
أنــتَ مــا اســتَــغــنَــيــتَ عــنْ صــا حــبــكَ الــدّهــرَ أخــوهُ
فــإذا احــتَــجْــتَ إلَــيــهِ ســاعَــةً مَــجّــكَ فُــوهُ[3]

---

(١) أملق: افتقر واحتاج.
(٢) آخر الدهر: أبد الدهر.
(٣) مجك: لفظك وبصقك.

وقفة على القبور

يـا مَـعـشَـر الأمـواتِ، يـا ضِـيـفـانَ تُـر ... بِ الأرضِ كَـيفَ وَجَدتُـمُ طَعـمَ الثّرَى
أهـلَ الـقُـبـورِ مَحا الـتّرابُ وُجوهَكُمْ ... أهـلَ الـقُـبـورِ تَـغَـيّرَتْ تـلـكَ الـحِـلَـى
أأُخَـيَّ لـم يَـقِـكَ الـمَـنـيّـةَ إذْ أتَـت ... ما كـانَ أطـعَـمَـكَ الـطّبـيبُ وما سـقَـى
أأُخَيَّ لـم تُـغـنِ الـتّـمـائِـمُ عَـنكَ ما ... قد كُـنتُ أحـذَرُهُ عـلَـيكَ ولا الـرُّقَـى[1]
أأُخَيّ، كـيفَ وَجـدتَ مَسّ خُشونـهِ الـ ... ـمأوَى وكـيـفَ وجَـدتَ ضِـيـقَ الـمُـتّـكَـا

خانك الطرف

خـانَـكَ الـطّـرفُ الـطَّـمـوحُ، ... أيّـهـا الـقَـلـبُ الـجَـمُـوحُ!
لِـدَواعـي الـخَـيـرِ والـشّـ ... ـرّ، دُنُـــــوٌّ ونُـــــزُوحُ
هـل لِـمَـطـلـوبٍ بِـذَنـبٍ، ... تَـوبَـةٌ مِـنـهُ نَـصُـوحُ؟
كـيـفَ إصـلاحُ قُـلـوبٍ، ... إنّـمـا هُـنّ قُـرُوحُ؟
أحـسَـنَ الـلّـهُ بِـنـا، إ ... نّ الـخَـطـايـا لا تَـفُـوحُ
فـإذا الـمَـسـتـورُ مِـنّـا، ... بَـيـنَ ثَـوبَـيـهِ فُـضُـوحُ
كَـم رأيـنـا مِـن عَـزيـزٍ، ... طُـوِيَـتْ مِـنـهُ الـكُـشُـوحُ[2]
صـاحَ مِـنـهُ بِـرَحـيـلٍ، ... صـائـحُ الـدّهـرِ الـصَّـدُوحُ
مـوتُ بـعـضِ الـنّـاسِ، فـي الأر ... ضِ، عـلـى قـومٍ فُـتُـوحُ
سَـيَـصِـيـرُ الـمَـرءُ، يـومـاً، ... جَـسَـداً مـا فـيـهِ رُوحُ
بَـيـنَ عَـيـنَـيْ كـلّ حَـيٍّ، ... عَـلَـمُ الـمَـوتِ يَـلُـوحُ
كُـلّـنـا فـي غَـفـلَـةٍ، والـ ... ـمَـوتُ يَـغـدو ويَـرُوحُ
لِـبَـنـي الـدّنـيـا، مِـنَ الـدّنْـ ... ـيـا، غَـبُـوقٌ وصَـبُـوحُ[3]
رُحـنَ فـي الـوَشـيِ، وأصـبَـحـ ... ـنَ عـلَـيـهِـنّ الـمُـسُـوحُ

---

(١) التمائم: جمع التميمة وهي العوذة تعلق في العنق ليتوقى بها مس الجن. الرقى، جمع الرقية: العوذة التي ينفث فيها الرقاء لاستجلاب النفع أو الضرر في زعمهم.
(٢) الكشوح، جمع الكشح: وهو ما بين السرة ووسط الظهر.
(٣) الغبوث: شراب المساء. الصبوح: شراب الصباح.

كُلُّ نَطَّاحٍ، مِنَ الدَّهْـ   ـرِ، لَهُ يومٌ نَطُوحُ
نُحْ على نَفْسِكَ، يا مسـ   ـكينُ، إنْ كُنتَ تَنُوحُ
لَتَموتَنَّ، وإنْ عُـ   ـمِّرْتَ، ما عُمِّرَ نُوحُ!

أبـــو تمـــام

فتـح عموريـة

قال يمدح المعتصم، ويذكره انتصاره على الروم في واقعة عمورية سنة ٨٣٧م:

ألسّيفُ أصدَقُ أنباءً مِنَ الكُتُبِ، في حَدّهِ الحَدُّ بينَ الجِدّ واللّعِبِ[١]

بِيضُ الصّفائحِ، لا سودُ الصّحائفِ، في مُتونِهِنّ جَلاءُ الشّكّ والرِّيَبِ[٢]

والعِلمُ في شُهُبِ الأرماحِ، لامِعَةً، بينَ الخَميسَينِ، لا في السّبعةِ الشُّهُبُ[٣]

أينَ الرّوايَةُ، بل أينَ النّجومُ وما صاغوهُ من زُخرُفٍ فيها، ومن كَذِبِ؟

تَخَرُّصاً، وأحاديثاً مُلَفَّقَةً لَيسَتْ بنَبعٍ، إذا عُدّتْ، ولا غَرَبِ[٤]

عَجائِباً، زَعَموا الأيّامَ مُجَفِلَةً عَنهنّ، في صَفَرِ الأصفارِ، أو رَجَبِ[٥]

---

(١) الكتب: أي كتب السحر والتنجيم. الحد: الفاصل.

(٢) الصفائح: جمع الصفيحة وهي السيف العريض. الصحائف: جمع الصحيفة وهي القرطاس المكتوب. المتون: جمع المتن، ومتن السيف: صحفته.

(٣) الشهب الأولى: أسنة الرماح لما فيها من البريق. الخميسين: الجيشين. الشهب الثانية: السيارات السبع، وهي عندهم: زحل، والمشتري، والمريخ، والشمس، والزهرة، وعطارد، والقمر.

(٤) تخرصاً: كذباً. النبع: شجر صلب تصنع منه القسي. الغرب: شجر هش أي رخو لين. يقول: أحاديث ملفقة ليس لها أصل قوي ولا ضعيف.

(٥) مجفلة: ذاهبة منقلعة. عنهن: الضمير يعود على عجائباً. والمراد ما تحدثه عجائب النجوم من تدمير العالم فتمضي معه الأيام. صفر ورجب: من الأشهر العربية. الأصفار: جمع صفر، يقال صفر الأصفار: وهو يدل على الخلو لأن الأصفار أيضاً =

وخَوّفُوا النّاسَ مِن دهياءَ مُظلِمَةٍ، ... إذا بَدا الكَوكَبُ الغربيُّ ذو الذَّنَبِ

وصَيّروا الأبرُجَ العُليا مُرَتَّبَةً، ... ما كانَ مُنقَلِباً، أو غَيرَ مُنقَلِبِ[1]

يَقضونَ بالأمرِ عَنها، وهيَ غافِلَةٌ، ... ما دارَ في فَلَكٍ، منها، وفي قُطُبِ[2]

لو بَيّنَتْ قَطُّ أمراً، قَبلَ مَوقِعِهِ، ... لم يَخفَ ما حَلّ بالأوثانِ والصُّلُبِ[3]

فَتحُ الفُتوحِ، تَعالى أنْ يُحيطَ بِهِ، ... نَظمٌ منَ الشّعرِ، أو نَثرٌ من الخُطَبِ[4]

فَتحٌ، تَفَتَّحُ أبوابُ السّماءِ لَهُ، ... وتَبرُزُ الأرضُ في أثوابِها القُشُبِ[5]

يا يَومَ وَقعَةِ عَمّوريّةَ، انصَرَفَتْ ... عَنكَ المُنى حُفَّلاً، مَعسولةَ الحَلَبِ

أبقَيتَ جَدّ بني الإسلامِ في صُعُدٍ، ... والمُشرِكينَ ودارَ الشّركِ في صَبَبِ[6]

= جمع الصفر وهو الخالي. جعل المنجمون هذا الشهر ميقاتاً لتدمير العالم وخلوه من السكان، وجعلوا رجب كذلك لأن مادته تدل على الخوف والعظمة. يقال: رجب: فزع وهاب وعظم.

(١) الأبرج: جمع البرج. وبروج السماء اثناء عشر، وهي عند المنجمين مرتبة على ثلاثة أقسام: المنقلبة، وهي أربعة: الحمل والسرطان والميزان والجدي. والثابتة، وهي أربعة: الثور والأسد والعقرب والدلو. وذوات الجسدين، وهي أربعة أيضاً: الجوزاء والسنبلة والقوس والحوت.

(٢) ما، في قوله ما دار: مفعول به من يقضون. القطب: كوكب لا يبرح مكانه يدور عليه الفلك، وهو بين الجدي والفرقدين.

(٣) الصلب: جمع الصليب. يقول: لو صح أن الكواكب تبين الأمور قبل وقوعها، لما خفي على المنجمين مصير الروم يوم عمورية. وكان المعتصم قد استشار المنجمين قبل زحفه، فزعموا أن الزمان غير موافق للفتح، فلم يحفل بأقوالهم، وغزا عمورية، وافتتحها.

(٤) أن يحيط به: أي أن يحيط بوصفه.

(٥) القشب: الجدد. يقول: إنه فتح من الله تعيد له الأرض والسماء.

(٦) المنى: جمع المنية وهي الرغبة. حفلا جمع حافل، مأخوذ من قولهم: ناقة حافل أي مجتمعة اللبن. معسولة: ممزوجة بالعسل. الحلب: اللبن المحلوب. يقول: ذهبنا إلى هذه الحرب، ونحن نتمنى الانتصار والفتح، فرجعنا وأمانينا حافلة بأطيب العواقب وأحلاها.

(٧) الجد: الحظ. المشركين: الذين يجعلون لله شريكاً ويريد بهم الروم. دار الشرك: أي عمورية. صبب: ما انحدر من الأرض ضد صعد.

أُمٌّ لهم، لو رَجَوْا أن تُفتَدى، جَعلوا فِداءَها كلَّ أُمٍّ بَرَّةٍ وأبِ[1]
وبَرزَةُ الوَجهِ، قد أعيَتْ رِياضَتُها كِسرَى، وصَدّتْ صُدوداً عن أبي كرِبِ[2]
مِنْ عَهدِ إسكَندرٍ، أو قَبلَ ذلك، قد شابَتْ نَواصي اللّيالي، وهيَ لم تَشِبِ[3]
بِكرٌ، فَما افتَرَعَتها كَفُّ حادِثَةٍ، ولا تَرَقَّتْ إلَيها هِمّةُ النُّوبِ[4]
حتى إذا مَخَضَ اللّهُ السّنينَ لها، مَخضَ البَخيلةِ، كانتْ زُبدةَ الحُقِبِ[5]
أتَتهُمُ الكُربَةُ السّوداءُ سادِرَةً مِنها، وكانَ اسمُها فَرّاجَةَ الكُرَبِ[6]
جرَى لها الفألُ نَحساً، يومَ أنقِرَةٍ، إذْ غُودِرَتْ وَحشةَ السّاحاتِ والرَّحَبِ[7]
لمّا رأتْ أُختَها بالأمسِ قد خَرِبَتْ، كانَ الخَرابُ لها أعدى من الجَرَبِ[8]
كم بَينَ حيطانِها من فارِسٍ بَطَلٍ، قاني الذّوائبِ مِنْ آني دَمٍ سَرَبِ[9]

---

(١) برة: صادقة كثيرة البر. هذه رواية الديوان. ورواية الصولي في أخبار أبي تمام: كل أم منهم.

(٢) البرزة: الحيية. وقيل هي: المرأة البارزة المحاسن التي تظهر للرجال. فعلى المعنى الأول يقول: إن عمورية كانت كالمرأة المتخفرة تصد عن كل طالب وراغب. وعلى المعنى الثاني يقول: هي مع بروزها ممتنعة لا يقدر عليها، أعجزت كسرى فارتد عنها، وامتنعت على أبي كرب اليماني أحد الملوك التابعة.

(٣) وهي لم تشب: أي بقيت على جدتها، مع تقدم زمانها، لسلامتها من نكبات الغزو والفتح.

(٤) يقول: بقيت عذراء لم تنلها يد حادثة من حوادث الدهر، ولا سمت إليها همة النوائب.

(٥) مخض اللبن: حركة ليستخرج زبدته. مخض البخيلة: أي الحريصة على لبنها لا تفرط فيه. الحقب: الدهر.

(٦) الكربة: الحزن يأخذ في النفس. سادرة: لا تبالي ما تصنع. يقول: أتتهم (أي الروم) الكربة السوداء القاسية من عمورية عندما سقطت بيد المسلمين، وكانوا لمناعتها يسمونها فراجة الكرب.

(٧) نحساً: رواية الديوان، ورواية الصولي: برحاً. الرحب: جمع الرحبة وتسكن الحاء، وهي من المكان ساحته ومتسعه. غودرت: الضمير يعود إلى أنقرة. وكان المعتصم قد استولى عليها قبل بلوغه عمورية.

(٨) أختها: أي أنقرة.

(٩) القاني: الأحمر. الذوائب: الشعب المنسدل من وسط الرأس إلى الظهر. الآني: الذي انتهى حره. السرب: السائل.

بِسُنّةِ السّيفِ والخَطّيِّ، مِن دَمِهِ، لا سُنّةِ الدّينِ والإسلامِ، مُختَضِبِ[1]
لقَد تَركتَ، أميرَ المُؤمنينَ، بها، للنّارِ يَوماً ذَليلَ الصّخرِ والخَشَبِ[2]
غادَرتَ فيها بَهيمَ اللّيلِ، وهوَ ضُحًى يَشُلُّهُ، وَسطَها، صُبحٌ منَ اللّهَبِ[3]
حتى كأنّ جَلابيبَ الدّجَى رَغِبَتْ عن لَونِها، أو كأنّ الشّمسَ لم تغِبِ[4]
ضَوءٌ مِنَ النّارِ، والظّلماءُ عاكِفَةٌ، وظُلمَةٌ من دُخانٍ، في ضُحًى شحبِ[5]
فالشّمسُ طالعَةٌ من ذا، وقد أفَلَتْ، والشّمسُ واجِبَةٌ من ذا، ولم تَجِبِ[6]
تَصَرّحَ الدّهرُ، تَصريحَ الغَمامِ، لها، عن يومِ هَيجاءَ، منها، طاهرٍ جُنُبِ[7]
لم تَطلُعِ الشّمسُ فيهِ، يومَ ذاكَ، على بانٍ بأهلٍ، ولم تَغرُبْ على عَزَبِ[8]
ما رَبعُ مَيّةَ، مَعمُوراً، يُطيفُ بهِ غَيلانُ، أبهَى رُبًى من رَبعِها الخَرِبِ[9]

---

(١) الخطي: الرمح. يقول: هو مختضب من دمه بحكم السيف والرمح، وهذه هي السنة التي أجريت عليه أحكامها لا سنة الدين الإسلامي لأنه نصراني.

(٢) يوماً: مفعول به من تركت.

(٣) بهيم الليل: ليل لا ضوء فيه. يقهل: يحمله. هذه رواية الديوان، ورواية أخبار أبي تمام للصولي: يشله: أي يطرده. وسطها: أي وسط عمورية.

(٤) الجلابيب: الثياب الواسعة، ويريد بها كثافة الظلام وشدته. رغب عن الشيء: ضد رغب فيه.

(٥) شحب: متغير اللون. يقول: ضوء النار ظهر ليلاً فصيره نهاراً، وتحول إلى دخان في الصباح فجعله شاحب اللون. الضحى: يغلب عليها التأنيث، وتذكر.

(٦) طالعة من ذا: أي من ضوء النار. أفلت: غابت. واجبة: غائبة. من ذا: أي من الدخان. لم تجب: لم تغب.

(٧) تصرح: انكشف وانجلى. تصريح الغمام: انجلاؤه وظهور الشمس. جنب: نجس. يقول: انجلى الدهر لعمورية عن يوم حرب طاهر نجس منها. ويريد بذلك أنه طاهر لما فيه من جهاد ديني ظافر، نجس لما فيه من انتهاك الأعراض.

(٨) بان بأهل: متزوج. يريد أنه قتل في هذا اليوم كل متزوج وعزب من الروم.

(٩) مية: هي مي بنت مقاتل صاحبة ذي الرمة الشاعر. غيلان: اسم ذي الرمة، وهو من محسني شعراء صدر الإسلام، يتصور الشاعر دار مية عامرة تكتنفها البهجة والنضارة، وغيلان يطيف بها، يغني صاحبته بشعره، فيزيد الديار بهجة ورواء. ثم يقول: إن ديار مي على جمالها وبهجتها وهي في مثل هذه الحال، ليست أبهى عندي من ربع عمورية الخرب. جعل منظر الخراب أجمل من منظر العمران.

ولا الخُدُودُ، وإن أُدمينَ من خَجَلٍ، أشهَى إلى ناظري مِن خَدّها التّرِبِ[1]
سَمَاجَةٌ، غَنِيَتْ مِنّا العُيُونُ بها عَن كلّ حُسنٍ بَدا، أو مَنظرٍ عجبِ[2]
وحُسنُ مُنقَلَبٍ تَبدو عَواقِبُهُ، جاءَتْ بَشاشَتُهُ عن سوءِ مُنقَلَبِ[3]
لم يَعْلَمِ الكُفرُ كَم من أعصُرٍ كَمنتْ لَهُ المَنيّةُ، بَينَ السُّمرِ والقُضُبِ[4]
تَدبيرُ مُعتَصِمٍ باللّهِ، مُنتَقِمٍ للّهِ، مُرتَقِبٍ في اللّهِ، مُرتَهِبِ[5]
ومُطعِمُ النّصلِ، لم تَكهَمْ أسِنّتُهُم يوماً، ولا حُجبتْ عن روح مُحتجِبِ[6]
لم يَغزُ جَيشاً، ولم يَنهَضْ إلى بَلَدٍ، إلاّ تَقَدَّمَهُ جَيشٌ منَ الرُّعُبِ[7]
لو لم يقُدْ جَحفَلاً يومَ الوَغى، لَغَدا من نَفسِهِ وحدَها في جَحفَلٍ لَجِبِ[8]
رَمَى بكَ اللّهُ بُرجَيها، فهَدَّمَها، ولو رَمَى بكَ غيرُ اللّهِ، لم تُصِبُ[9]

---

(١) وإن ادمين: رواها الصولي ولو ادمين. الترب: الكثير التراب. يقول: وليست الحسان، إذا زادها احمرار الخجل جمالاً، أشهى إلى ناظري من أرض عمورية التي كثر فيها التراب بعد خرابها.

(٢) السماجة: ضد الملاحة. يقول: إن الخراب قبيح بذاته، ولكن خراب عمورية أغنى عيوننا عن كل حسن يبدو لها، لأن فيه يتمثل ظفر المسلمين بأعدائهم.

(٣) المنقلب: التحول والتغير من حال إلى حال. تبدو عواقبه: رواها الصولي تبقى عواقبه.

(٤) لم يعلم: وتروى لو يعلم. السمر والقضب: الرماح والسيوف.

(٥) منتقم لله: أي ينتقم له من أعداء دينه، ويريد به الإسلام. مرتقب في الله، مرتهب: أي أنه يراقب في الله العقاب فيخشاه ويحذره. ورواية الصولي: مرتغب بدلاً من مرتهب. وفي هذا البيت نوع من البديع يعرف بالتشطير، وهو أن يجعل كل شطر سجعة مخالفة لصاحبتها في الشطر الآخر.

(٦) لم تكهم: لم تكل. محتجب: أي مدرع ممتنع بسلاحه.

(٧) لم يغز جيشاً: في رواية لم يغز قوماً. ورواها الصولي: لم يرم قوماً ولم ينهد إلى بلد. يقول: إن العدو إذا بلغه أن المعتصم خرج لقتاله استولى عليه الرعب قبل أن يصل إليه الخليفة.

(٨) الجحفل: الجيش. لجب: كثير العدد، عظيم الجلبة. وقوله: في جحفل لجب: تجريد.

(٩) كانت أسوار عمورية قد تهدم جانب منها بين برجين، قبل أن يهاجمها المعتصم. فبنى بطريقها ظاهره بالحجارة، وترك الخلل في باطنه. فلما جاءها المعتصم، خرج إليه رجل من المسلمين كان قد أسره الروم، فتنصر وتزوج فيهم، فدله على ثلمة السور، فسدد إليها المجانيق، فصدعها، واستولى على البرجين، ثم على المدينة فهدمها.

مِن بَدِ ما أشْبوها، واثقِينَ بها، والـلّهُ مِفتاحُ بابِ المَقِلِ الأشِبِ[1]

وقالَ ذو أمرِهِمْ: لا مَرتَعٌ صَدَدٌ للسّارِحينَ، وليسَ الوِردُ من كَثَبِ[2]

أمانِياً، سَلَبَتهُمْ نُجحَ هاجِسِها، ظُبَى السّيوفِ، وأطرافِ القَنا السُّلُبِ[3]

إنّ الحِمامَينِ: من بِيضٍ ومن سُمُرٍ، دلوا الحياتَينِ: مِن ماءٍ ومن عُشُبِ[4]

لَبّيتَ صَوتاً زِبَطرِيّاً، هَرَقتَ لَهُ كأسَ الكَرَى، ورُضابَ الكُرَّدِ العُرُبِ[5]

عَداكَ حَرُّ الثّغورِ المُستَضامَةِ عن بَردِ الثّغورِ، وعن سَلسالِها الحَصِبِ[6]

أجَبتَهُ مُعلِناً بالسّيفِ، مُنصَلِتاً، ولَو أجَبتَ بغَيرِ السّيفِ، لم تُجِبِ[7]

---

(١) أشبوها: حصنوها. المعقل: الحصن. الأشب: الحصين. أخذ عليه تشبيه الله بالمفتاح.

(٢) ذو أمرهم: صاحب أمرهم، رئيسهم، والضمير يعود على الروم. المرتع: الموضع المخضب. صدد: قريب. للسارحين: أي للمسلمين الذين سرحوا مطاياهم لترعى. وليس الورد من كثب: أي ليس الماء قريباً منهم.

(٣) أمانياً: منصوبة على المصدرية. الهاجس: الذي يحدث نفسه بما يخطر ويوسوس لها والمراد به ذو أمرهم. والضمير في هاجسها يعود إلى الأماني. ظبي السيوف: شفارها. القنا: الرماح. السلب: الطويلة.

(٤) يقول: إن موت الأعداء بالسيوف وموتهم بالرماح كانا كدلوين يستقيان لنا حياة الماء وحياة العشب، أي أن سيوفنا ورماحنا كذبت أماني رئيس الروم، فحملت لهم الموت، وحملت لنا الحياة إذ قربتنا من الماء والعشب.

(٥) زبطرياً: نسبة إلى زبطرة، وهي بلدة في تركيا آسيا بين ملطية وسميساط. وكان ملك الروم قد خرج إليها قبل واقعة عمورية، فاستباحها قتلاً وسبياً. وقوله صوتاً زبطرياً: إشارة إلى ما روي من أن هاشمية سبيت، فصاحت وهي في أيدي الروم: «وامعتصماه!». الرضاب: الريق. الخرد: جمع الخريدة وهي المرأة الطويلة، السكوت الخفرة، والبكر. العرب: جمع العروب وهي المرأة المتحببة لزوجها. والمعنى: أنه منع نفسه راحة النوم وفارق نساءه تلبية لذلك الصوت.

(٦) عداك عنه: صرفك عنه. الثغور: المواضع التي يخاف منها هجوم العدو. المستضامة: التي أصابها ضيم، ويريد بها زبطرة وغيرها من الأماكن التي أوقع بها قيصر الروم. وقوله: حر الثغور: قد يراد به الحر بمعناه، وقد يراد به حر نار الحرب. الثغور الثانية: المباسم، أي ثغور نسائه اللواتي صرفته الحرب عنهن، وتستحسن البرودة في الثغر. السلسال: العذب البارد، استعاره للريق. الحصب: المكان الكثير الحصى، والمراد هنا الأسنان البيض في ثغور النساء.

(٧) أجبته: الضمير يعود إلى صوتاً زبطرياً منصلتاً: مجرداً. وقوله: لم تجب، أي لم يكن ذلك منك جواباً للصوت الصارخ.

حتى تَرَكْتَ عَمودَ الشِّرْكِ مُنقَعِراً، ولم تُعَرِّجْ على الأوتادِ والطُّنُبِ[1]

لمَّا رأى الحَربَ رأيَ العَينِ تَوفَلِسٌ، والحَربُ مُشتَقَّةُ المَعنى مِنَ الحَرَبِ[2]

غَدا يُصَرِّفُ بالأموالِ حَزْيَتَها، فعَزَّهُ البَحرُ ذو التَّيّارِ والعُبُبِ

هَيهاتِ، زِعزِعَتِ الأرضُ الوَقُورُ بهِ عن غزوِ مُحتسِبٍ، لا غزوِ مُكتسِبِ[3]

لم يُنفِقِ الذَّهَبَ المُرْبي بكَثرَتِهِ على الحَصَى، وبهِ فَقرٌ إلى الذَّهَبِ[4]

إنّ الأُسُودَ أُسُودَ الغابِ، هِمَّتُها يَومَ الكَريهَةِ في المَسلُوبِ لا السَّلَبِ[5]

وَلّى، وقد ألجَمَ الخَطِّيُّ مَنطِقَهُ بسَكتَةٍ تَحتَها الأحشاءُ في صَخَبِ[6]

أحسَى قَرابينَهُ صَرفَ الرّدى، ومضَى يَحُثُّ أنجَى مَطاياهُ مِنَ الهَرَبِ[7]

مُوَكِّلاً بِيَفاعِ الأرضِ، يُشرِفُهُ من خِفّةِ الخَوفِ، لا من خِفّةِ الطّرَبِ[8]

---

(١) عمود الشرك: أي عمورية. منقعراً: مقطوعاً من أصله. الطنب: حبال طويلة تشد بها الخيمة، وأراد بالأوتاد والطنب بقية المدن والقرى في الأنضول. يقول: إن المعتصم اكتفى بعمورية فلم يغز بقية المدن والقرى لأنه متى سقط عمود الخيمة فلا قيمة بعده للحبال والأوتاد.

(٢) توفلس: تيوفيل بن ميخائيل قيصر الروم. الحرب: ذهاب المال والحرمان منه.

(٣) يصرف: يدفع. خزيتها: ذلها وبليتها. عزه: غلبه وقهره. التيار: موج البحر الهائج. العبب: المياه المتدفقة. يقول: لما رأى ملك الروم حصار عمورية حاول أن يدفع بلية الحرب وعار الانكسار بالمال، وهو يعلم أن المال ذاهب: «الحرب مشتقة المعنى من الحرب». فراسل المعتصم يطلب الصلح ويعرض عليه مالاً ليرتد عنه، فأبى المعتصم وسما عليه وغلبه بما عنده من مال وفر يبذله ولا يسأل عنه، وهو البحر الفياض بجوده وكثرة أمواله.

(٤) هيهات: أي هيهات أن يقبل المال. الوقور: الرزينة التي لا تتزعزع. به: الضمير راجع إلى المعتصم. المحتسب: طالب الأجر عند الله.

(٥) المربي: الزائد.

(٦) همتها: مقصدها. الكريهة: الحرب. يقول: إن الفارس الشجاع يقصد في الحرب إلى خطف الأرواح لا إلى سلب المال. وهذا مثل أرسله الشاعر.

(٧) يقول: هرب توفلس ساكتاً كأن رمح المعتصم وضع لجاماً في فمه، فلا يستطيع الكلام. ولكن قلبه كان في وجيب واضطراب من شدة الرعب.

(٨) أحسى: سقى. قرابينه: خواصه وقواده. يحث: يسوق. أنجى: أسرع.

(٩) اليفاع: ما ارتفع من الأرض. يشرفه: يعلوه.

إنْ يَعدُ من حَرّها عَدوَ الظّليمِ، فقد أوسَعتَ جاحِمَها من كَثرَةِ الحَطبِ[1]
تِسعونَ ألفاً، كآسادِ الشّرى، نضِجتْ جُلودُهمْ، قبلَ نَضجِ التّينِ والعنَبِ[2]
يا رُبّ حَوباءَ، لمّا اجتُثّ دابِرُهمْ، طابَتْ، ولو ضُمّختْ بالمِسكِ، لم تَطِبِ[3]
ومُغضَبٍ، رَجَعَتْ بِيضُ السّيوفِ به حَيَّ الرّضَى عن رَداهم، مَيّتَ الغضَبِ
والحَربُ قائِمَةٌ في مأزِقٍ لَجِبٍ، تَجثُو الرّجالُ بهِ، صُعراً، الى الرُّكَبِ[4]
كم نِيلَ تحتَ سَناها، من سنى قمَرٍ، وتحتَ عارِضِها، من عارِضٍ شَنِبِ[5]
كم كانَ في قَطعِ أسبابِ الرّقابِ بها، إلى المُخَدَّرَةِ العَذراءِ مِن سَبَبِ[6]
كم أحرَزَتْ قُضُبُ الهِنديّ، مُصلَتَةً، تَهتَزّ مِن قُضُبٍ، تَهتَزّ في كُثُبِ[7]

---

(١) حرها: الضمير يعود على الحرب. الظليم: ذكر النعام. أوسعت: ملأت وأشبعت. جاحمها: وقودها وشدة اشتعالها. يقول للمعتصم: إن هرب توفلس لم يخمد نار الحرب لأنك أحرقت المدينة، فزدت نارها اشتعالاً.

(٢) الشرى: مأسدة، يضرب المثل بشدة أسودها. يشير إلى كذب المنجمين الذين زعموا أن المدينة لا تؤخذ إلا في الصيف بعد نضج التين والعنب.

(٣) الحوباء: النفس، أو النفس الآثمة، ويريد بها نفساً من نفوس المسلمين المحاربين. اجتث: اقتلع من أصله. دابرهم: آخرهم، والضمير عائد إلى الأعداء. طابت: طهرت وزكت، والتذت.

(٤) المأزق: المكان الضيق. اللجب: ذو الجلبة. صعراً: جمع أصعر وهو الذي يميل وجهه كبراً وعطرسة. يقول: كانت الحرب قائمة في مضيق يصعب فيه الانتقال والكر، فكان المتقاتلون على كبريائهم وغطرستهم، يجثون على ركبهم ليتجالدوا بالسيوف.

(٥) سناها: ضياؤها، والضمير يعود على الحرب. وأراد بالسني: ضياء نار الحريق. سنى قمر: أي ضياء وجه كالقمر، ويريد به وجه السبية الرومية. عارضها: سحابها المعترض في الأفق، ويريد به دخان نار الحريق. العارض الثانية: السن التي في عرض الفم، وما يبدو من الوجه عند الضحك. الشنب: البارد، والمراد: أسنان باردة الريق. والوصف هنا للسبايا أيضاً.

(٦) أسباب الرقاب: حبالها، أي عروقها. بها: الضمير يعود على الحرب. من سبب: أي من وسيلة يتوصل بها إلى العذراء، ويريد بها السبية.

(٧) القضب: جمع القضيب وهو السيف اللطيف والقطاع. مصلتة: مسلولة. تهتز: أي مهتزة، والمراد: سبيات تهتز من قدود كالقضب أي كالأغصان. الكثب: جمع الكثيب، وهو التل من الرمل. يريد أن هذه القدود قائمة على أوراك ثقيلة، فهي كالأغصان في كثبان من الرمل.

بِيضٌ، إذا انتُضِيتْ من حُجبها، رَجعتْ أحَقّ بالبِيضِ أبداناً، من الحُجُبِ[١]
خَليفَةَ اللّهِ، جازَى اللّهُ سَعيَكَ عَنْ جُرثومَةِ الدِّينِ والإسلامِ، والحَسَبِ[٢]
بَصُرتَ بالرّاحةِ الكُبرى، فلم تَرَها تُنالُ إلاّ على جِسرٍ منَ التّعَبِ[٣]
إن كانَ بينَ صروفِ الدّهرِ من رَحِمٍ، مَوصُلَةٍ، أو ذِمامٍ غيرِ مُنقَضِبِ[٤]
فبَينَ أيّامِكَ اللاّتي نُصِرتَ بها، وبَينَ أيّامِ بَدرٍ أقرَبُ النّسَبِ[٥]
أبقَتْ بني الأصفَرِ المُصفَرّ، كاسمِهِمُ صُفرَ الوُجوهِ، وجَلّتْ أوجُهَ العرَبِ[٦]

الحبيب الأول

ألبَينُ جَرّعَني نَقيعَ الحَنظَلِ، والبَينُ أثكَلَني، وإن لم أُثكَلِ
ما حَسرَتي أنْ كِدتُ أقضي، إنّما حَسَراتُ قَلبي أنّني لم أفعَلِ
نَقّلْ فؤادَكَ حيثُ شئتَ من الهَوَى، ما الحُبُّ إلاّ للحَبيبِ الأوّلِ
كم مَنزِلٍ، في الأرضِ، يألَفُهُ الفتى، وحَنينُهُ، أبَداً، لأوّلِ مَنزِلِ

---

(١) بيض: سيوف. انتضيت: جردت. من حجبها: من أغمادها. بالبيض أبداناً: أي بالسبيات البيض الأبدان. الحجب: ستور النساء.

(٢) سعيك: عملك ودفاعك. الجرثومة: الأصل. الحسب: الشرف.

(٣) الراحة الكبرى: أي راحة الآخرة ونعيم الجنة. جسر من التعب: إشارة إلى الصراط، وهو عند المسلمين جسر ممدود على متن جهنم، يعبر عليه الناجون إلى الجنة بتعب وجهد؛ وهو يرمز إلى أن الجنة لا تنال بدون تعب ومشقة.

(٤) صروف الدهر: ورواها الصولي: مرور الدهر. من رحم: أي من صلة وقرابة. الذمام: العهد. منقضب: منقطع.

(٥) يجعل بين غزوة عمورية وغزوة بدر التي انتصر فيها النبي على القرشيين، صلة من النسب المقدس، على اعتبار أن قريشاً والروم كليهما من المشركين.

(٦) أبقت: الضمير يعود إلى أيامك. الأصفر: جد ملوك الرو ويسميه العرب الأصفر بن روم بن يعصو بن إسحق، كما ذكر القاموس. المصفر: الذي به صفرة والمراد بها شقرة الشعر ولونه الذهبي. والظاهر أن العرب أطلقوا على الروم هذا الاسم نظراً للون شعورهم، وهم يستنكرون الشقرة ويعيرون بها بعضهم بعضاً، ولا يمدحون غير الشعر الأسود. صفر الوجوه: أي صفر الوجوه مثل اسمهم، من الرعب والانكسار. جلت: من فعل جلى الشيء: أظهره وجعله يتجلى.

أبو نواس

حامل الهوى

حَامِلُ الهوَى تَعِبُ، يَسْتَخِفُّهُ الطَّرَبُ
إنْ بَكَى يُحَقُّ لَهُ، لَيسَ مَا بِهِ لَعِبُ[1]
تَضْحَكِينَ لاهِيَةً، والمُحِبُّ يَنْتَحِبُ
تَعجَبِينَ مِن سَقَمِي، صِحّتي هيَ العَجَبُ
كُلّمَا انقَضَى سببٌ مِنكِ، جاءَني سَبَبُ

(١) من المواضع التي تخرج فيها ليس عن وجه استعمالها هي أن تدخل على المبتدأ والخبر مرفوعين، فيكون اسمها ضمير الشأن لتعظيم الشيء، والجملة بعدها في محل نصب خبراً لها. مثال ذلك: ليس الأمر هين، أو كقول أبي نواس هنا: ليس ما به لعب.

البحتـــــري

وصف البركة

قال يمدح المتوكل، ويصف بركته:

مِيلُوا إلى الدّارِ، مِن لَيلى، نُحَيّيها، نَعَمْ، ونَسألُها عَن بَعضِ أهليهَا[1]
يــا دِمــنَــةً، جــاذَبَــتــهــا، تَبيتُ تَنشُرُها، طَوْراً، وتَطويها[2]
لا زِلتِ في حُلَلٍ، للغَيثِ ضافيَةٍ يُنيرُها البَرقُ، أحياناً، ويُسديها[3]
تَروحُ بالوابِلِ الدّاني رَوائِحُها، على رُبُوعِكِ، أو تَغدو غَواديها[4]
إنّ البَخيلَةَ لم تُنعِمْ لسائِلِها، يَومَ الكَثيبِ، ولم تَسمَعْ لداعيها[5]
مَرّتْ تأوَّدُ، في قُربٍ، وفي بُعُدٍ، فالهَجرُ يُبعِدُها، والدّارُ تُدنيها[6]

❀ ❀ ❀

يا مَن رأى البِركَةَ الحَسناءَ رؤيتُها، والآنِساتِ، إذا لاحَت مَغانيها[7]

---

(١) من ليلى: أي الخالية من ليلى.

(٢) الدمنة: ما اسود من آثار الدار بالبعر والرماد وغيرهما. يقول: إن الريح تهب عليها من جهات مختلفة، فحيناً تشكف التراب عن رسومها، وحيناً تغطيها.

(٣) الحلل: الثياب لها بطانة، مفردها حلة، والمراد هنا بالثياب: الغيوم. ينيرها: يمد خيوطها عرضاً. يسديها: يمد خيوطها طولاً.

(٤) الروائح: غيوم المساء. الغوادي: غيوم الصباح.

(٥) البخيلة: حبيبته. الكثيب: المرتفع من التل، وقوله: يوم الكثيب: أي يوم رآها هناك.

(٦) تأود: تتثنى.

(٧) رؤيتها: فاعل الحسناء. المغاني: المنازل، واحدها مغنى. والظاهر أنه كان حول البركة بيوت لاغتسال الجواري.

بحَسبِها أنّها، في فَضلِ رُتبَتِها، ... تُعَدّ واحدَةً، والبَحرُ ثانيها

ما بالُ دِجلَةَ كالغَيرَى تُنافِسُها ... في الحُسنِ، طَوراً، وأطواراً تُباهيها

أمَا رأتْ كالىءَ الإسلامِ يَكْلَؤها ... مِن أنْ تُعابَ، وباني المَجدِ يَبنيها[1]؟

كأنّ جنّ سُلَيمانَ الذينَ وَلُوا ... إبداعَها، فأدَقّوا في مَعانيها[2]

فلَوْ تَمُرّ بها بِلْقيسُ عَن عُرُضٍ، ... قالتْ: «هيَ الصّرْحُ!» تَمثيلاً وتَشبيها[3]

تَنصَبّ فيها وُفودُ الماءِ مُعجَلَةً، ... كالخَيل جاريَةً مِن حَبلِ مُجريها

كأنّما الفِضّةُ البَيضاءُ سائِلَةً ... مِنَ السّبائِكِ تَجري في مَجاريها

إذا عَلَتها الصَّبا، أبدَتْ لَها حُبُكاً ... مثلَ الجَواشِنِ، مَصقُولاً حَواشيها[4]

فحاجبُ الشّمسِ، أحياناً، يُضاحِكُها، ... ورَيّقُ الغَيثِ، أحياناً، يُباكيها

إذا النّجومُ تَراءَتْ في جَوانِبِها ... لَيلاً، حَسِبتَ سَماءً رُكّبتْ فيها

لا يَبلُغُ السّمَكُ المَحصورُ غايَتَها، ... لبُعدِ ما بَينَ قاصِيها ودانِيها[5]

يَعُمنَ فيها بأوساطٍ مُجَنَّحَةٍ، ... كالطّيرِ تَنقَضّ في جَوٍّ خَوافيها[6]

لَهنّ صَحنٌ رَحيبٌ في أسافِلِها، ... إذا انحَطَطْنَ، وبَهوٌ في أعاليها[7]

---

(١) الكالىء: المانع والحارس. وكالىء الإسلام: الخليفة.

(٢) الذين: خبر كأن لا نعت الجن. ولوا: من ولي الأمر أي تولاه.

(٣) بلقيس: ملكة سبأ وكانت معاصرة لسليمان الحكيم. وفدت عليه من اليمن لتسمع حكمته. وتقول الرواية العربية إن سليمان كان يسخر الجن فتطيعه. فأمرهم أن يبنوا له صرحاً يستقبلها فيه. فبنوا صرحاً من قوارير أخضر، وجعلوا له طوابيق (قطع الآجر الكبير) من قوارير كأنها الماء. وجعلوا في باطن الطوابيق صوراً من أجناس سمك البحر ودوابه. ثم أطبقوه. فلما دخلت بلقيس، حسبته لجة وماء فرفعت ثيابها. فالشاعر يشبه بركة المتوكل في جمالها ودقة صنعها بصرح سليمان. عن عرض: من جانب.

(٤) الحبك: تجعد الماء وتكسره. واحدتها حبيكة. الجواشن: الدروع، مفردها جوشن.

(٥) غايتها: نهايتها.

(٦) الخوافي: الريش الصغار في جناح الطائر بعد القوادم، مفردها خافية. شبه أجنحة السمك النابتة في أوساطها بخوافي الطير حين تنقض كاسرة أجنحتها للانحدار.

(٧) الصحن: الساحة. البهو: البيت الواسع.

صُورٌ إلى صُورَةِ الدُّلْفِينِ، يُؤنِسُها — مِنهُ انزِواءٌ بعَينَيهِ، يُوازِيها[1]
تَغنى بَساتينُها القُصوى بِرُؤيَتِها، — عَنِ السّحائبِ، مُنحَلاً عَزاليها[2]
كأنّها، حينَ لَجّتْ في تَدَفّقِها، — يَدُ الخَليفَةِ، لمّا سالَ واديها[3]
وزادَها رُتبَةً، من بَعد رُتبَتِها، — أنّ اسمَهُ، يومَ يُدعَى، من أساميها[4]
مَحفوفَةٌ بِرياضٍ، لا تَزالُ تَرَى — ريشَ الطّواويسِ، تَحكيهِ، ويَحكيها
ودَكّتَينِ كَمِثلِ الشِّعرَيَينِ، غَدَتْ — إحداهُما بإزا الأُخرَى، تُساميها[5]
إذا مَساعي أميرِ المُؤمنِينَ بَدَتْ — للواصِفينَ، فلا وَصفٌ يُدانيها[6]
إنّ الخِلافَةَ، لمّا اهتَزّ مِنبَرُها — بجَعفَرٍ، أُعطِيَتْ أقصَى أمانِيها
أبدَى التّواضُعَ، لَمّا نالَها، دَعَةً — عَنها، ونالَتْهُ، فاختالَتْ بهِ تيها[7]
إذا تَحَلّتْ لهُ الدّنيا بِحِليَتِها، — رأتْ مَحاسِنَها الدّنيا مَساويها[8]

(١) صور: مائلة بوجهها وأعناقها. الدلفين: دابة بحرية، كان يعتقد الأقدمون أنها صديقة للإنسان تنجيه من الغرق. الانزواء: الانحراف. يوازيها: يجاريها. يقول: إن السمك تمر مائلة بأنظارها إلى صورة الدلفين المنقوشة على جدار البركة خشية منه أن يسطو عليها. ولكنها تستأنس في مرورها، لأن نظره منحرف عنها يرافقها في انحرافه، فلا يقع عليها.

(٢) العزالي: جمع عزلاء وهي مصب الماء من القربة. يقال: أنزلت السماء عزاليها، إشارة إلى شدة المطر على التشبيه بنزوله من أفواه القرب. وقوله: منحلا عزاليها، أي منحلا عقدها فتدفق ماؤها.

(٣) واديها: الضمير يعود إلى يد الخليفة. والوادي هنا كناية عن باطن الكف. وقوله: سال، أي سال بالعطاء.

(٤) اسم المتوكل جعفر، ومعنى جعفر: النهر. فاسم البركة مشرف باسم الخليفة على اعتبار أنها نهر.

(٥) الدكة: بناء يسطح أعلاه للجلوس عليه. الشعريان: كوكبان متقابلان يقال لأحدهما الشعري العبور، وللثاني الشعري الغميصاء، بإزا الأخرى، أي بإزائها: بمقابلها. يقول: إن بجانبي البركة دكتين للجلوس متقابلتين كالشعريين، تتنافسان بالانقان والجمال. وقوله: ودكتين: معطوفة على رياض.

(٦) المساعي: المكارم والمعالي في أنواع المجد، مفردها مسعاة.

(٧) دعة عنها: أي سعة وغنى.

(٨) أي رأت الدنيا محاسنها مساوىء أمام محاسنه.

يا ابنَ الأباطحِ، من أرضٍ، أباطِحُها، في ذِروَةِ المَجدِ، أعلى مِن رَوابيها[1]

ما ضَيّعَ اللّهُ، في بَدوٍ وفي حَضَرٍ، رَعيّةً، أنتَ بالإحسانِ راعيها

وأُمّةً، كانَ قُبحُ الجَورِ يُسخِطُها دَهراً، فأصبَحَ حُسنُ العدلِ يُرضيها

بَثَثتَ فيها عَطاءً، زادَ في عَدَدِ العَليا، ونَوّهتَ باسمِ المَجدِ تَنويها

ما زِلتَ بَحراً لِعافينا، فكَيفَ وقد قابَلتَنا، ولكَ الدّنيا وما فيها[2]

أعطاكَها اللّهُ عَن حَقٍّ، رآكَ لَهُ أهلاً، وأنتَ بحَقّ اللّهِ تُعطيها[3]

وقال يصف إيوان كسرى في المدائن:

صُنتُ نَفسي عَمّا يُدنّسُ نفسي، وتَرَفّعتُ عن جَدا كلّ جِبسِ[4]

وتَماسَكْتُ حَيثُ زَعزَعَني الدّهرُ التِماساً منه لتعسي ونُكسِي[5]

بُلَغٌ مِنْ صُبابَةِ العَيشِ عندي، طَفّفَتها الأيّامُ تَطفيفَ بَخسِ[6]

وبَعيدٌ ما بينَ وارِدِ رِفْهٍ، عَلَلٍ شُرْبُهُ، ووارِدِ خِمسِ[7]

وكأنّ الزّمانَ أصبَحَ مَحمُو لاً هَواهُ معَ الأخَسّ الأخَسِّ[8]

---

(١) الأباطح: جمع الأبطح، ومؤنثه البطحاء، وهو المسيل الواسع فيه دقائق الحصى، أو الأرض السهلة مما جرته السيول من التراب. ومن ذلك قالوا: قريش البطاح، وهم الذين ينزلون في أباطح مكة أو بطائحها، وهم أشرف قريش، والعباسيون منهم. ودونهم قريش الظواهر، وهم الذين ينزلون بظهر مكة حيث تغلظ الأرض وترتفع. ولذلك قال الشاعر: أباطحها في ذروة المجد أعلى من روابيها.

(٢) العافي: طالب المعروف.

(٣) قوله: وأنت بحق الله تعطيها، أي أن عطاياه لا يبذلها في سبيل التبذير والإسراف، بل هي في سبيل الله، زكوات وصدقات يفيد منها ذوو الحاجات.

(٤) الجدا: العطاء. الجبس: اللئيم والجبان.

(٥) نكسي: إذلالي.

(٦) البلغ، جمع البلغة: ما يكفي من العيش، وليس فيه فضلة. الصبابة: البقية من الماء واللبن، والمراد بقية من المال يعيش بها. طففتها: أنقصتها. البخس: الظلم وهضم الحقوق.

(٧) وارد رفه: أي يرد الماء كل يوم متى يشاء. علل شربه: أي يشرب تباعاً شربة بعد أخرى. وارد خمس: أي يشرب في اليوم الرابع بعد ظمإ ثلاثة أيام.

(٨) محمولاً هواه: أي يميل إلى الأخساء فيصافيهم دون الكرام.

واشـتـرائـي الـعِـراقَ خِـطّـةَ غَـبـنٍ،   بَـعـدَ بَـيـعـي الـشّـآمَ بَـيـعَـةَ وَكْـسِ[١]

لا تَـرُزْنـي مُـزاوِلاً لاخـتِـبـاري،   عـنـدَ هـذي الـبَـلوَى، فـتُـنـكِـرَ مَـسّـي[٢]

وقَـديـمـاً عَـهِـدْتَـنـي ذا هَـنـاتٍ   آبـيـاتٍ، عـلـى الـدّنـيـئـاتِ، شُـمْـسِ[٣]

ولَـقَـد رابَـنـي نُـبُـوُّ ابـنِ عَـمّـي،   بَـعـدَ لِـيـنٍ مِـن جـانِـبَـيـهِ وأُنْـسِ[٤]

وإذا مـا جُـفـيـتُ، كُـنـتُ حَـرِيّـاً   أنْ أُرى غَـيـرَ مُـصـبِـحٍ حَـيـثُ أُمـسِـي

حَـضَـرَتْ رَحـلِـيَ الـهُـمـومُ، فـوَجّـهْـ   ـتُ إلـى أبـيَـضِ الـمَـدائـنِ عَـنـسِـي[٥]

أتَـسَـلّـى عـنِ الـحُـظـوظِ، وآسَـى   لِـمَـحَـلٍّ مِـن آلِ سـاسـانَ دَرْسِ[٦]

ذَكّـرَتْـنـيـهِـمُ الـخُـطـوبُ الـتّـوالـي،   ولَـقَـد تُـذكِـرُ الـخُـطـوبُ وتُـنـسِـي

وهُـمُ خـافِـضـونَ فـي ظِـلّ عـالٍ   مُـشـرِفٍ، يُـحـسِـرُ الـعـيـونَ ويُـخـسِـي[٧]

مُـغـلَـقٍ بـابُـهُ، عـلـى جَـبَـلِ الـقَـبْـ   ـقِ، إلـى دارَتَـيْ خِـلاطٍ ومَـكْـسِ[٨]

---

(١) واشترائي العراق: معطوفة على بلغ. يتابع ذكر أحواله، فيرى الخسارة في مجيئه إلى العراق بعد تركه الشام. الخطة: الأرض التي يختطها الإنسان لنفسه لينزل بها. الوكس: الخسارة في المتاجرة.

(٢) لا ترزني: يقال رازي الشيء يروزه جربه وقدره وامتحنه لينظر ثقله. مزاولاً: محاولاً، يريد أن أحداث الدهر غيرت حاله فأصبح ينكره من يحاول معرفته حين يراه.

(٣) الهنات: الخصال، وتستعمل في الشر والأذى، واحدها هنت. وقيل: واحدها هنة، تأنيث هن وهو كناية عن كل اسم جنس. شمس: جمع شموس، أي صعب المراس على من عانده.

(٤) النبو: التجافي والخشونة.

(٥) حضرت رحلي الهموم: أي جعلته حاضراً وأعدته للرحيل. أبيض المدائن: أي القصر الأبيض لكسرى؛ والمدائن: عاصمة الأكاسرة قرب بغداد وفيها الإيوان. سميت بالجمع لأنها سبع مدن قائمة على ضفتي دجلة. عنسي: ناقتي.

(٦) آل ساسان: أي ملوك الفرس من نسل أردشير حفيد ساسان، مؤسس الدولة الساسانية. درس: بال.

(٧) خافضون: عائشون برفاهة ودعة. يحسر: يعيي ويكل. يخسي: مسهل يخسيء، أي يكل ويحسر.

(٨) دارتي خلاط ومكس: مكانان؛ والدارة كل أرض واسعة بين جبال.

حِلَلٌ، لم تكُنْ كأطلالِ سُعدى، | في قِفارٍ مِنَ البَسابِسِ مُلْسِ[1]
ومَساعٍ، لولا المُحاباةُ مِنّي، | لم تُطِقْها مَسعاةُ عَنْسٍ وعَبْسِ[2]
نَقَلَ الدّهرُ عَهْدَهنّ عنِ الجِـ | ـدّةِ، حتى غَدَونَ أنضاءَ لُبْسِ[3]
فكأنّ الجِرمازَ، مِن عَدَمِ الأُنـ | ـسِ وإخلاقِهِ، بَنيّةُ رَمْسِ[4]
لو تَراهُ، علِمتَ أنّ الليالي | جَعَلَتْ فيه مأتَماً، بعدَ عُرْسِ
وهوَ يُنبيكَ عن عَجائبِ قَومٍ، | لا يُشابُ البَيانُ فيهِمْ بلَبْسِ[5]
فإذا ما رأيتَ صورةَ أنطا | كيّةَ ارتَعتَ بَينَ رومٍ وفُرسِ
والمَنايا مَواثِلٌ، وأنُوشَرْ | وانُ يُزجي الصّفوفَ تحتَ الدِّرَفْسِ[6]
في اخضرارٍ منَ اللّباسِ، على أصْـ | ـفَرَ يَختالُ في صَبيغَةِ وَرْسِ[7]
وعِراكُ الرّجالِ، بَينَ يَدَيهِ، | في خُفوتٍ مِنهم وإغماضِ جَرْسِ[8]
مِنْ مُشيحٍ، يُهوي بعامِلِ رُمحٍ؛ | ومُليحٍ، مِنَ السّنانِ، بتُرْسِ[9]

(١) حلل: جمع حلة وهي المحلة. البسابس: جمع البسبس وهو القفر الخالي. الملس: جمع أملس وملساء وهي الفلاة ليس بها نبات.

(٢) المساعي: جمع مسعاة وهي المكرمة والمعلاة. عنس: قبيلة قحطانية من اليمن. عبس: قبيلة عدنانية من نجد. يقول: لولا محاباتي للعرب لأني عربي، لقلت إن مساعي الفرس لم تستطع بلوغها قبائل العرب من قحطانية وعدنانية.

(٣) الجدة: حالة الشيء الجديد. الأنضاء: جمع نضو وهو المهزول. اللبس: الاختلاط والإشكال. يقول: غير الدهر حالة هذه الحلل والمساعي، فأصبحت بعد جدتها هزيلة بالية يشكل أمرها على الناظر إليها، وتلتبس عليه حقيقتها؛ فما يكاد يتبينها ويعرفها.

(٤) الجرماز: أحد أبهاء القصر. إخلاقه: بلاه؛ ورويت إخلاله.

(٥) لا يشاب: لا يخلط. اللبس: الاختلاط والإشكال، وتضم لامه. يقول: إن ما بقي من آثار الجرماز حقيق بأن يحدثك عن عجائبهم بكلام واضح البيان ليس فيه التباس.

(٦) يزجي: يسوق. الدرفس: راية الفرس المقدسة، رمز تحرير بلادهم على يد بطلهم الأسطوري افريدون، أي راية الحداد كاوي «درفشي كاويغاني» وكانت محلاة بالجواهر الكريمة.

(٧) يختال: يتبختر تكبراً. الورس: نبات كالشمس أصفر يصبغ به، وقيل صبغ أحمر. قد تكون هذه الألوان تمثل ثياب كسرى المصبغة. وقد يكون قوله: على أصفر، أي على جواد أصفر.

(٨) الخفوت: الكسوت. الجرس: الصوت الخفي.

(٩) المشيح: المقبل عليك والمانع لما وراء ظهره. عامل الرمح: صدره. مليح: محاذر خوفاً.

تَـصِـفُ الـعَـيـنُ أنّـهُـمْ جِـدُّ أحْـيَـا ء، لـهـمْ، بَـيـنَـهـمْ، إشـارَةُ خُـرْسِ[1]

يَـغـتَـلـي فـيـهِـمُ ارْتِـيَـابـيَ، حَـتّـى تَـتَـقَـرّاهُـمُ يَـدَايَ بِـلَـمْـسِ[2]

قـد سَـقـانـي، ولـم يُـصـرِّدْ، أبـو الـغَـوْ ثِ، على الـعَـسكَرَيـنِ، شُربَةَ خَلسِ[3]

مِـنْ مُـدامٍ، تَـقـولُـهـا هـيَ نَـجـمٌ أضـوَأُ الـلّـيـلِ، أو مُـجـاجَـةُ شـمـسِ[4]

وتَـــراهــــا، إذا أجَــــدّتْ سُــــروراً وارتـيـاحـاً لـلـشّـارِبِ الـمُـتَـحَـسّـي[5]

أُفـرِغَـتْ فـي الـزّجـاجِ، مـن كـلّ قـلـبٍ، فـهـيَ مَـحـبـوبَـةٌ إلـى كـلّ نَـفـسِ[6]

وتَـــوَهّـــمـــتُ أنّ كِـــســـرَى أبَـــرْويـــ زَ مُـعـاطِـيّ، والـبَـلَـهْـبَـذُ أُنْـسِـي[7]

حُـلُـمٌ مُـطْـبِـقٌ عـلـى الـشّـكّ عَـيـنـي، أمْ أمـانٍ غَـيّـرنَ ظَـنّـي وحَـدسِـي؟

وكـأنّ الإيـوانَ مِـنْ عَـجَـبِ الـصّـنْـ ـعَةِ جَوبٌ، في جَنبِ أرعَنَ جِلسِ[8]

يُـتَـظَـنّـى، مـنَ الـكـآبَـةِ، أنْ يَـبْـ ـدو لـعَـيـنَـيْ مُـصَـبِّـحٍ أو مُـمَـسّ[9]

---

(١) يقول: تخدع العين بدقة الرسم فتنعتهم بالأحياء يتبادلون إشارة خرس.

(٢) يغتلي: يعظم. تتقراهم: تتتبعهم. يقول: يزيد ارتيابي فيهم، فأتتبعهم باللمس لأتحقق أصور مرسومة هم أم أشخاص أحياء يتحاربون؛ يريد المبالغة في دقة الرسم وبراعته.

(٣) لم يصدر: لم يقلل. أبو الغوث: ابن البحتري. على العسكرين: على منظر العسكرين. الخلس: الاختلاس. أي شربة مختلسة سريعاً.

(٤) تقولها: تظنها. مجاجة الشمس: ريقها أي شعاعها. يقال: مجت الشمس ريقها: رمت بشعاعها.

(٥) وتراها: وتظنها. أجدت: جددت. المتحسي: المتجرع جرعة بعد أخرى.

(٦) أفرغت: الجملة مفعول ثان لتراها.

(٧) كسرى أبرويز: حفيد كسرى أنوشروان، ملك من سنة ٥٩٠ إلى سنة ٦٢٨م. وقد سماه الشاعر قبلاً أنوشروان، فالظاهر أنه يخلط بين الاسمين. ونرجح أن صورة أنطاكية تمثل أبرويز في المعركة التي انكسرت فيها جيوش هرقل سنة ٦١٤م ففتحت للفرس الطريق إلى القدس، فاستولوا على سوريا حتى سنة ٦٢٨. معاطي: أي يعاطيه الشراب، يعني يشاربه. البلهبذ ويقال الفلهبذ: من كبار المغنين عند الفرس. أنسي: أي يؤنسه بصوته.

(٨) الجوب: الترس. أرعن: أحمق. جلس: غليظ أحمق. يشبه شكل الإيوان وهيئته بترس في جنب رجل غليظ أحمق، أي أنه مستدير على شكل الترس، قائم في جنب بناء عظيم، أو في جنب جبل يشبه الرجل الجلس في غلاظته.

(٩) يتظنى: يعمل الظن فيه، أي يظن فيه.

مُـزعَـجاً بـالـفِـراقِ عَـن أُنْـسِ إلـفٍ، عَـزّ، أو مُـرْهَـقـاً بتَـطـلـيـقِ عِـرْسِ[1]
عَـكَسَـتْ حَـظَّـهُ الـلّـيـالـي، وبـاتَ الـ ـمُشتري فيهِ، وهـوَ كوكبُ نَحسِ[2]
فَـهْـوَ يُـبـدي تَـجَـلُّـداً، وعَـلَـيْـهِ كَـلـكَـلٌ من كَـلاكـلِ الـدّهـرِ مُـرْسِ[3]

---

(١) مرهقاً: مكلفاً. العرس: الزوجة. يقول: يظن من ينظر إليه عند الصباح والمساء أنه يبدو من كآبته، عاشقاً مزعجاً أبعد الفراق صاحبه فعز عليه أن يصل إليه؛ أو زوجاً كلفته الأيام تطليق زوجته فطلقها على كره منه.

(٢) المشتري: نجم من السيارات، ويقال له بالفارسية برجيس، وطالع برجه سعد عند الأقدمين.

(٣) الكلكل: الصدر. مرس: ثابت.

المتنبي

واحر قلباه!

قال يفتخر ويعاتب سيف الدولة، بعد أن كثرت السعايات بين الأمير والشاعر، وبدا الجفاء من صاحب حلب، فانقطع أبو الطيب مدة عن قول الشعر، ثم دخل عليه فأنشده هذه القصيدة في مجلس حافل بالأمراء والشعراء والأدباء:

واحَرّ قَلباهُ مِمّنْ قَلبُهُ شَبِمُ! ... ومَن بجِسمي وحالي، عندَه، سقَمُ[1]!

ما لي أُكَتّمُ حُبّاً قَد بَرَى جَسَدي، ... وتَدّعي حبَّ سَيفِ الدّولةِ الأُمَمُ[2]؟

إنْ كانَ يَجمَعنا حُبٌّ لِغُرّتِهِ، ... فلَيتَ أنّا، بقَدرِ الحُبّ، نَقتَسِمُ[3]

قد زُرتُهُ، وسيوفُ الهند مُغمَدَةٌ؛ ... وقد نَظَرتُ إلَيهِ، والسّيوفُ دَمُ

فكانَ أحسَنَ خَلقِ اللّهِ كُلّهِمُ؛ ... وكانَ أحسَنَ ما في الأحسنِ، الشّيَمُ[4]

---

(١) واحر قلباه: للندبة؛ أراد واحر قلبي، فأبدل من الياء ألفاً طلباً للخفة، والعرب تفعل ذلك في النداء، وألحق بعد الألف هاء السكت، والعرب تفعل ذلك، وحرك الهاء لسكونها وسكون الألف، وللعرب في ذلك أمران: فمنهم من يحرك بالضم تشبيهاً بهاء الضمير، ومنهم من يحرك بالكسر على ما يوجد كثيراً في الكلام عند التقاء الساكنين. الشبم: البارد. والمعنى: قلبي حار من حبه، وقلبه بارد من حبي، وأنا عنده مختل الحال، معتل الجسم.

(٢) براه: أنحله.

(٣) غرته: طلعته. ليت: اسمها وخبرها محذوفان، سدت أن وصلتها مسدهما. يقول: إن كان حبه يجمع بيني وبين غيري من الناس، فليتنا نقتسم المنزلة عنده بمقدار ذلك الحب، حتى ينال كل منا ما يستحقه.

(٤) الشيم: الأخلاق. يقول: زرته في السلم، وصحبته في الحرب، فكان أحسن الناس على الحالين، وكانت شيمه أحسن ما في هذا الأحسن.

يا أعدَلَ النّاسِ، إلاّ في مُعامَلَتي، فيكَ الخِصامُ، وأنتَ الخَصمُ والحكَمُ[1]

أعِيذُها نَظَراتٍ منكَ صادِقَةً، أن تَحسبَ الشّحمَ فيمن شحمُه وَرَمُ[2]

وما انتِفاعُ أخي الدّنيا بِناظِرِهِ، إذا استَوَتْ، عندَه، الأنوارُ والظُّلَمُ[3]؟

سيَعلَمُ الجَمعُ، ممّنْ ضَمّ مَجلسُنا، بأنّني خَيرُ مَن تَسعَى بِهِ قَدَمُ

أنا الذي نَظَرَ الأعمَى إلى أدَبِي، وأسمَعَتْ كَلماتي مَنْ بهِ صَمَمُ

أنامُ مِلءَ جُفُوني عن شَوارِدِها، ويَسهَرُ الخَلقُ جَرّاها، ويَختَصِمُ[4]

وجاهلٍ مَدَّهُ، في جَهلِهِ، ضَحِكي، حتى أتَتْهُ يَدٌ فَرّاسَةٌ، وفَمُ[5]

إذا رأيتَ نُيُوبَ اللّيثِ بارِزَةً، فلا تَظُنّنّ أنّ اللّيثَ يَبتَسِمُ[6]

ومُهجَةٍ، مُهجَتي من هَمّ صاحِبِها، أدرَكْتُها بجَوادٍ ظَهرُهُ حَرَمُ[7]

---

(١) يقول: أنا وغيري من الشعراء نختصم فيك، وأنت خصمي لأنك لا تعاملني كما تعاملهم، وأنت الملك الحاكم. وملخص المعنى: أنت موضوع الخاصم، وأنت الخصم، وأنت الحاكم، فكيف أرجو الإنصاف.

(٢) أعيذها: دعاء لها بالحفظ، كأنه يقول: أعيذها بالله، أي أجعلها في ملجأ الله وملاذه. تقول عاذ به عوذاً وعياذاً ومعاذاً: التجأ واعتصم. نظرات: بدل من ضمير النصب في أعيذها، وهي تفسير له. الشحم: ما دل على الصحة. الورم: ما دل على المرض. يقول: أعيذ نظراتك الصادقة أن تشتبه عليها الحقيقة، فلا تفرق بين الشاعر والمتشاعر؛ ويخدعها ظاهر الشعر أي وزنه وقافيته، كما يخدع ظاهر الانتفاخ فيمن شحمه صحة، وفيمن شحمه ورم.

(٣) أخي الدنيا: أي الإنسان. الناظر العين.

(٤) شوارد القوافي: أي الأشعار التي تروى وتسير في البلاد. جراها: من أجلها والأصل من جراها، فحذف الجار ونصب المجرور مفعولاً له. يقول: أنام ملء جفوني عن شوارد الشعر لأني أدركها متى شئت على سهولة ويسر، وغيري من الشعراء يسهرون من أجلها إذا أرادوا النظم، ويخاصم بعضهم بعضاً فيما يظفرون من المعاني لتواطئهم عليها، أو يسهر الناس من أجل حفظها وروايتها، ويخاصم بعضهم بعضاً في شرحها وتفهمها.

(٥) مده: أمهله وطول له؛ والمراد خدعه وأطمعه. فراسة: مفترسة.

(٦) النيوب: جمع ناب.

(٧) المهجة: الروح. يقول: ورب مهجة، من هم صاحبها إتلاف مهجتي، أدركتها بجواد كأن ظهره حرم لا ينتهك، أي من ركبه أمن اللحاق.

رِجلاهُ في الرّكضِ رِجلٌ، واليَدانِ يَدٌ، وفِعلُهُ ما تُريدُ الكَفُّ والقَدَمُ[1]

ومُرهَفٍ سرتُ بينَ الجَحفَلَينِ بهِ، حتى ضرَبتُ، وموجُ الموتِ يَلتَطِمُ[2]

الخَيلُ والليلُ والبَيداءُ تَعرِفُني، والسّيفُ والرّمحُ والقِرطاسُ والقَلَمُ

صَحبتُ في الفَلَواتِ الوَحشَ مُنفَرِداً، حتى تَعَجّبَ منّي القُورُ والأكَمُ[3]

يا مَنْ يَعِزُّ علَينا أن نُفارِقَهُمْ، وِجدانُنا كلَّ شيءٍ، بَعدَكم، عدَمُ

ما كانَ أخلَقَنا مِنكُمْ بتَكرِمَةٍ، لوْ أنّ أمرَكُمُ من أمرِنا أَمَمُ[4]

إنْ كانَ سَرّكُمُ ما قالَ حاسِدُنا، فَما لجُرحٍ، إذا أرضاكُمُ، ألَمُ

وبَينَنا، لو رَعَيتُمْ ذاكَ، مَعرِفَةٌ؛ إنّ المَعارِفَ، في أهلِ النُّهَى، ذِمَمُ[5]

كَم تَطلُبُونَ لَنا عَيباً، فيُعجِزُكم، ويَكرَهُ اللّهُ ما تأتُونَ، والكَرَمُ

ما أبعَدَ العَيبَ والنّقصانَ من شرَفي، أنا الثّرَيّا، وذانِ الشّيبُ والهَرَمُ[6]

لَيتَ الغَمامَ، الذي عندي صَواعِقُهُ، يُزيلُهُنّ إلى مَنْ عِندَهُ الدِّيَمُ[7]

أرَى النّوى يَقتَضيني كلَّ مَرحَلَةٍ، لا تَستَقِلُّ بها الوَخّادَةُ الرُّسُمُ[8]

---

(١) يصف استواء وقع قوائمه وصحة جريه، فكأن رجليه رجل واحدة، لأنه يرفعهما معاً، ويضعهما معاً، وكذلك اليدان، وهذا الجري يسمى المناقلة؛ وفعله ما تريد الكف بالسوط، والرجل بالركل فهو يغنيك عنهما.

(٢) المرهف: السيف الرقيق الحد. الجحفلين: الجيشين العظيمين.

(٣) القور: جمع قارة وهي الأرض ذات الحجارة السوداء، ويروى الغور: وهو المطمئن من الأرض. الأكم، جمع أكمة: الجبل الصغير.

(٤) أخلقنا: أولانا وأجدرنا. أمم: قريب. يقول: ما كان أولانا بتكرمة منكم، لو أن عقيدتكم فينا قريبة من عقيدتنا فيكم، أي لو بادلتمونا الحب الذي نحفظه لكم.

(٥) النهي: العقول. الذمم: العهود.

(٦) ذان: مثنى ذا، اسم إشارة للعيب والنقصان. يقول: العيب والنقصان بعيدان عن شرفي بعد الشيب والهرم عن الثريا.

(٧) الغمام: السحاب. الديم: الأمطار التي تدوم أياماً؛ أراد بالغمام سيف الدولة، وبالصواعق غضبه وأذاه، وبالديم عطاياه. يقول: ليت سيف الدولة يزيل أذيته عني ويحيلها إلى الذين ينتفعون من عطاياه.

(٨) النوى: البعد. يقتضيني: يطالبني، وعداه إلى اثنين على تضمينه معنى يكلفني. الوخادة: الإبل السريعة السير. الرسم: جمع رسوم وهي الناقة التي تؤثر في الأرض =

لَئِنْ تَرَكْنَ ضُمَيراً عَن مَيامِنِنا | لَيَحدُثَنّ، لِمَنْ ودّعتُهُم، نَدَمُ[1]
إذا تَرَحّلتَ عن قَومٍ، وقد قَدَرُوا | أنْ لا تُفارِقَهُمْ، فالرّاحِلونَ هُمُ
شَرُّ البِلادِ مَكانٌ لا صَديقَ بِهِ، | وشَرُّ ما يَكسِبُ الإنسانُ ما يَصِمُ[2]
وشَرُّ ما قَنّصَتْهُ راحَتي قَنَصٌ، | شُهبُ البُزاةِ سَواءٌ فيهِ والرَّخَمُ[3]
بأيّ لَفظٍ تَقُولُ الشّعرَ زِعنِفَةٌ، | تَجوزُ عندَكَ، لا عُربٌ ولا عَجَمُ[4]؟
هذا عِتابُكَ، إلاّ أنّهُ مِقَةٌ، | قد ضُمّنَ الدُّرّ، إلاّ أنّهُ كَلِمُ[5]

وقال يمدح سيف الدولة ويذكر بناءهُ ثغر الحَدَث سنة ثلاث وأربعين وثلاث[6] مئة:

= بأخفافها. يقول: أرى البعد عنكم يكلفني أن أقطع كل مرحلة شاسعة، لا تقوم بقطعها الإبل السريعة الشديدة.

(١) تركن: الضمير للوخادة للرسم. ضمير: جبل عن يمين الراحل من سورية إلى مصر، أو قرية قريبة من دمشق. والمعنى: لئن رحلت إلى مصر ليندمن سيف الدولة.

(٢) يصم: يعيب.

(٣) الشهب: جمع أشهب وهو ما فيه بياض يصدعه سواد. الرخم: طائر ضعيف أبقع يشبه النسر في الخلقة، يختار لبيضه أطراف الجبال الشاهقة، وشقوق الصخور، ليعسر الوصول إليه؛ وأراد بالرخم: ضعاف الشعراء الذين صاروا مساوين له عند سيف الدولة، وشبه نفسه بالباز الأشهب بالنسبة إليهم، وأراد بالقنص عطايا سيف الدولة.

(٤) الزعنفة: الجماعة من الأوباش.

(٥) المقة: المحبة. أنه كلم: ضمير أنه راجع إلى الدر؛ والمراد: عتاب محبة ضمن درر الكلام.

(٦) كان سيف الدولة قد سار نحو ثغر الحدث لبنائها وكان أهلها قد سلموها إلى الدمستق بالأمان سنة سبع وثلاثين وثلاث مئة فنزلها سيف الدولة يوم الأربعاء ثامن عشر جمادى الأخرى سنة ثلاث وأربعين وبدأ من يومهِ فوضع الأساس وحفر أولهُ بيدهِ فلما كان يوم الجمعة نازلهُ ابن الفقّاس الدمستق في نحو خمسين ألف فارس وراجل ووقع القتال يوم الاثنين سلخ جمادى الأخرى من أول النهار إلى العصر فحمل عليه سيف الدولة بنفسهِ في نحو خمس مئة من غلمانهِ فظفر بهِ وقتل ثلاثة آلاف من رجالهِ وأسر خلقاً كثيراً فقتل بعضهم وأقام حتى بنى الحدث ووضع بيدهِ آخر شرفةٍ منها في يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلةً خلت من رجب فقال يمدحهُ وأنشدهُ إياها في ذلك اليوم في الحدث.

عَلَى قَدْرِ أَهلِ العَزمِ تَأْتِي العَزائِمُ ... وتَأْتِي على قَدْرِ الكِرامِ المَكارِمُ[1]

وتَعظُمُ في عَينِ الصَغِيرِ صِغارُها ... وتَصغُرُ في عَينِ العَظِيمِ العَظائِمُ[2]

يُكلِّفُ سَيفُ الدَولةِ الجَيشَ هَمَّهُ ... وقد عَجَزَتْ عنهُ الجُيوشُ الخَضارِمُ[3]

ويَطلُبُ عِندَ الناسِ ما عِندَ نَفسِهِ ... وذلكَ ما لا تَدَّعِيهِ الضَراغِمُ[4]

يُفَدّي أَتَمُّ الطَيرِ عُمراً سِلاحَهُ ... نُسورُ الفَلا أَحداثُها والقَشاعِمُ[5]

وَما ضَرَّها خَلْقٌ بِغَيرِ مَخالِبٍ ... وقد خُلِقَت أَسيافُهُ والقَوائِمُ[6]

هَلِ الحَدَثُ الحَمراءُ تَعرِفُ لَونَها ... وتَعلَمُ أَيُّ الساقِيَينِ الغَمائِمُ[7]

---

(١) العزيمة بمعنى العزم. والمكرمة اسمٌ من الكرم أي أن العزائِم والمكارم تأتي على أقدار فاعليها ويقاس مبلغها بمبلغهم فهي تكون عظيمةً حيث يكونون هم عظاماً.

(٢) الضمير من صغارها للعزائِم والمكارم. أي أن الصغير منها يعظم في عين الصغير القدر لأنهُ يملأ ذرعهُ والعظيم يصغر في عين العظيم القدر لأن في همتهِ فضلاةً عنهُ.

(٣) الهمّ ما هممت بهِ من أمر. والخضارم جمع خضرِم وهو الكثير من كل شيء. أي يكلف جيشهُ أن يقوم بما اقتضت همتهُ من الغزوات والفتوح وهو أمرٌ تعجز عنهُ الجيوش الكثيرة لأن ما في همتهِ ليس في طاقة البشر تحمّلهُ.

(٤) الأسود: أي يطلب أن يكون عند جيشهِ وأصحابهِ مثل ما عندهُ من الشجاعة والإقدام وذلك شيءٌ لا تدَّعيهِ الأسود فكيف تبلغهُ البشر.

(٥) فدَّاهُ قال لهُ أفديك. ونسور الفلا بدل من أتمّ الطير أو بيانٌ لهُ. والفلا جمع فلاة وهي الصحراء.
ويروى الملا وهو مفرد بمعنى الفلاة: وأحداثها أي صغارها وهو بدل تفصيل من نسور. والقشاعم المسنة منها: أراد بأتمّ الطير عمراً النسور كما فسرها في الشطر الثاني أي أن النسور صغارها وكبارها تقول لأسلحتهِ نفديكِ بأنفسنا لأنها كفتها التعب في طلب القوت.

(٦) ما نفي أو استفهام إنكار. وخلق مصدر. وقولهُ بغير مخالب حال من ضمير النسور محذوفاً أي خلقها كذلك. والقوائِم جمع قائِم السيف وهو مقبضهُ: أي ما ضرَّ النسور لو خُلِقت بغير مخالب بعد أن خُلِقت سيوفهُ لتُقتَل بها أعداؤهُ ومقابضها لتكون في أيدي رجالهِ. يعني أن سيوفهُ تغنيها عن طلب الصيد فلا تحتاج إلى المخالب.

(٧) الحدث قلعةٌ بناها سيف الدولة في بلاد الروم وكانوا قد غلبوا عليها وتحصنوا بها فأتاهم سيف الدولة وقتلهم فيها فتلطخت بدمائهم ولذلك وصفها بالحمراء. وقولهُ أيُّ الساقيين الغمائِم مبتدأ وخبر سدّا مسدّ مفعولي تعلم. يقول هل تعرف هذه القلعة لونها الأول أي قبل أن لُوّنت بالدم وهل تعلم أيُّ الساقيين لها هو الغمائِم أجماجم =

سَقَتْها الغَمامُ الغُرُّ قَبلَ نُزُولِهِ فَلَمَّا دَنا منها سَقَتْها الجَماجِمُ[1]

بَناها فأَعلَى والقَنا يَقرَعُ القَنا ومَوجُ المَنايا حَولَها مُتَلاطِمُ[2]

وَكانَ بِها مِثلُ الجُنونِ فأَصبَحَت ومِن جُثَثِ القَتْلَى عَلَيها تَمائِمُ[3]

طَرِيدةُ دَهرٍ ساقَها فَرَدَدْتَها عَلَى الدِينِ بالخَطّيِّ والدَهرُ راغِمُ[4]

تُفِيتُ اللَيالِيْ كُلَّ شَيءٍ أَخذتَهُ وهُنَّ لِما يَأْخُذنَ مِنكَ غَوارِمُ[5]

إِذا كانَ ما تَنوِيهِ فِعلاً مُضارِعاً مَضَى قَبلَ أَنْ تُلقَى عَلَيهِ الجَوازِمُ[6]

= الروم التي سقتها بالدم أم السحائب من الماء فهي لا تعلم أيُّ هذين الفريقين أحقّ بأن يسمى بالغمائم لأنهما استويا في السقيا. وقد فسّر هذا المعنى في البيت التالي.

(١) الغمام جمع غمامة. والغرّ البيض.

(٢) فأعلى أي فأعلاها. والقنا عيدان الرماح: أي بناها ورماحهُ تقارع رماح العدوّ وقد كثر القتل حولها حتى كانت المنايا كبحرٍ يتلاطم موجهُ.

(٣) مثل اسم كان وهو خلفٌ من موصوف أي شيءٌ مثل الجنون. وأصبحت تامّ والواو بعدهُ للحال. والتمائم جمع تميمة وهي العوذة يتوقون بها مسّ الجنّ. أراد بما كان بها مثل الجنون اضطراب الفتنة من الروم الذين كانوا يأتونها ويحاربون أهلها فلما قتلهم سيف الدولة علق القتلى على حيطانها كما تعلق التمائم على المجنون فسكنت الفتنة.

(٤) الطريدة ما طردتهُ من صيدٍ أو غيرهِ والتاء فيها للاسمية. والخطيّ الرمح. وراغم أي ذليل. أي كانت هذه القلعة كالطريدة أمام الدهر تعقبتها حوادثهُ بأن سلّطت عليها الروم يهاجمونها مرةً بعد أخرى حتى دفعتهم عنها بالرماح ورددتها على رغم الدهر.

(٥) أفاتهُ الشيءَ حملهُ على فوتهِ وفاعل تفيت ضمير المخاطب. والليالي مفعول أول وسكنهُ ضرورةً أو على لغة. وكُلَّ مفعول ثانٍ. وغَرِم الدَين والغصب وغير ذلك أدّاهُ. يقول إذا سلبتَ الليالِيَ شيئاً أكرهتها على فوتهِ لأنها لا تقدر على استردادهِ منك وهي إذا أخذت منك شيئاً غرمتهُ لأنك تلزمها غرامتهُ. ويروى أخذنهُ بالنون ضمير الليالي بناءً على أن الليالي فاعل تفيت والمفعول الأول محذوف أي من عادة الليالي إذا أخذت شيئاً أن لا تردّهُ على صاحبهِ فتفيتهُ إياهُ فإن أخذت منك شيئاً غرمتهُ. والمعنى أنت أقوى من الدهر فلا يقدر على مغالبتك لأن سعدك يغلب حوادثهُ.

(٦) أراد بالمضارع المستقبل أي إذا نويت أن تفعل أمراً وقع ذلك الفعل لوقتهِ فصار ماضياً قبل أن تكون فيهِ مهلةٌ لدخول الجازم. وخصّ أدوات الجزم من عوامل المضارع لأنها لغير الإيجاب فإن منها للنفي وهو لم ولمّا ومنها للطلب وهو لا واللام وبواقيها للشرط. فكأنهُ يقول إذا هممتَ بأمرٍ عاجلتهُ قبل أن يُتصوَّر فيهِ النفي وقبلَ أن يقول القائل لا تفعل أو ليفعل سيف الدولة كذا وكذا ولم تنتظر أن يقدَّر فيهِ شرطٌ أو جزآء =

وَكَيفَ تُرَجِّي الرُّومُ والرُّوسُ هَدمَها ... وَذا الطَّعنُ اساسٌ لَها ودَعائِمُ[1]

وقد حاكَمُوها والمَنايا حَواكِمٌ ... فما ماتَ مَظلُومٌ ولا عاشَ ظالِمُ[2]

أتَوْكَ يَجُرُّونَ الحَديدَ كأنَّما ... سَرَوْا بِجِيادٍ ما لَهُنَّ قَوائِمُ[3]

إذا بَرَقُوا لم تُعرَفِ البِيضُ مِنهُمُ ... ثِيابُهُمُ من مِثلِها والعَمائِمُ[4]

خَمِيسٌ بِشَرقِ الأرضِ والغَربِ زَحفُهُ ... وفي أُذُنِ الجَوزاءِ مِنهُ زَمازِمُ[5]

تَجَمَّعَ فيهِ كُلُّ لِسنٍ وأُمَّةٍ ... فما يُفهِمُ الحُدَّاثَ إلاَّ التَّراجِمُ[6]

فَلِلَّهِ وَقتٌ ذَوَّبَ الغِشَّ نارُهُ ... فلم يَبقَ إلاَّ صارِمٌ أو ضُبارِمُ[7]

= كأن يقال إن تفعل كذا يترتب عليهِ كذا لأن ما تنويهِ لا يتوقف على شرط ولا تخاف وراءهُ عاقبة.

(١) الضمير من هدمها للقلعة وأساس جمع أُسّ: أي كيف يرجون أن يهدموها وهي موثَّقة بالطعن كما توثَّق بالأساس والدعائم.

(٢) جعل القلعة والروم خصمين والمنايا في الحرب حاكمةً بينهما فحكمت للمظلوم وهو القلعة بالسلامة فلم تترك لهم سبيلاً إلى هدمها وحكمت على الظالم وهو الروم بالهلاك فأبادتهم.

(٣) السرى سير الليل. والجياد الخيل: أي أتوا مدججين في السلاح يجرّونهُ على جوانب الخيل حتى غابت قوائمها تحت الأسلحة والتجافيف التي عليها فكأنها بلا قوائِم.

(٤) البيض السيوف: أي إذا برقوا عند وقع الشمس عليهم لم تتميز السيوف منهم لأن أبدانهم مغطاةٌ بالدروع ورؤوسهم بالخوذ وكلها من الحديد فإذا برقت السيوف برقت هذه معها. وعبَّر عن الدروع والخوذ بالثياب والعمائِم على الاستعارة لأنها تلبس في أمكنتها.

(٥) الخميس الجيش وهو خبر عن محذوف أي هم خميس. وزحف الجيش إذا مشى متثاقلاً لكثرتهِ. والجوزاء نجمان معترضان في جوز السماء أي وسطها وهما من البروج. والزمازم جمع زمزمة وهي صوت الرعد أراد بها الأصوات الشديدة المتداخلة. يعني أن جيشهم طبّق الأرض وبلغت جلبتهُ إلى السماء.

(٦) اللِسن بالكسر اللغة. والحدّاث القوم المتحدّثون جمعٌ بلا واحد. والتراجم جمع ترجمان.

(٧) لله كلمةٌ تقال عند التعجب. والغشّ ما يُدخَل على المعادن من الحملان وأراد بهِ ما لا خير فيهِ من الرجال والسلاح. والصارم السيف القاطع. والضبارم الشجاع الجريء: أي أن نار الحرب في ذلك اليوم سبكت الناس وأسلحتهم فأفنت ما كان رديئاً ولم يبقَ إلا كل سيفٍ صارم ورجلٍ شجاع.

تَقَطَّعَ ما لا يَقطَعُ الدِرعَ والقَنا ... وفَرَّ منَ الفُرسانِ مَن لا يُصادِمُ[1]

وَقَفتَ وَما في المَوتِ شَكٌّ لِواقِفٍ ... كأنَّكَ في جَفنِ الرَّدَى وَهْوَ نائِمُ[2]

تَمُرُّ بِكَ الأَبطالُ كَلْمَى هَزيمةً ... ووَجهُكَ وَضَّاحٌ وثَغرُكَ باسِمُ[3]

---

(١) أي تكسر من السيوف ما لم يكن ماضياً يقطع الدروع والرماح وفرّ من الفرسان الجبان الذي لا يطيق الصدام. ويروى فقطّع بالفاء والضمير للوقت.

(٢) الردى الهلاك. والجُلّ بعد وقفت أحوال. يقول وقفت في ساحة القتال حين لا يشكّ واقفٌ في الموت لشدة الموقف وكثرة المصارع فيهِ حتى كأنك في جفن الردى أي في أقرب المواضع خطراً منهُ وأشدّها اشتمالاً عليك وكأنَّ الردى نائمٌ فلم يبصرك وغفل عنك بالنوم فسلمت.

(٣) كلمى جمع كليم بمعنى جريح. وهزيمةً أي منهزمةً وهو فعيل بمعنى مفعول والتاء فيهِ للجمع على مذهب البصريين. ووضّاح مشرق، والثغر مقدَّم الفم. قال الواحدي سمعت الشيخ أبا معمر الفضل بن إسماعيل يقول سمعت أبا الحسن علي بن عبد العزيز يقول لما أنشد المتنبي سيف الدولة قولهُ فيهِ وقفتَ وما في الموت شكٌّ لواقفٍ البيت والذي بعدهُ أنكر عليهِ سيف الدولة تطبيق عجزَي البيتين على صدرَيهما وقال لهُ كان ينبغي أن تقول:

وقفتَ وما في الموت شكٌّ لواقفٍ ... ووجهكَ وضاحٌ وثغرك باسمُ

تمرّ بكَ الأبطال كلمى هزيمةً ... كأنك في جفن الردى وهو نائِم

قال وأنت في هذا مثل امرىء القيس في قولهِ:

كأنيَ لم أركب جواداً للذَّةٍ ... ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال

ولم أسبأ الزقَّ الرويَّ ولم أقل ... لخيليَ كرّي كرّةً بعد اجفالِ

قال ووجه الكلام في البيتين على ما قالهُ العلماء بالشعر أن يكون عجز البيت الأول مع الثاني وعجز الثاني مع الأول ليجمع بين الشيء وما يناسبهُ. فقال أبو الطيب إن صح أن الذي استدرك على امرىء القيس هذا أعلم منهُ بالشعر فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا ومولانا يعلم أن الثوب لا يعرفهُ البزّاز كما يعرفهُ الحائك لأن البزّاز يعرف جملتهُ والحائك يعرف تفاصيلهُ فإن امرىء القيس قرن لذة النساء بلذة الركوب للصيد والشجاعة في منازلة الأعداء بالسماحة في شراء الخمر للأضياف للتضايف بين كلٍّ من الفريقين وأنا كذلك لما ذكرت الموت في صدر البيت الأول اتبعتهُ بذكر للردى في آخرهِ ليكون أحسن تلاؤماً ولما كان الجريح المنهزم لا يخلو أن يكون وجههُ عبوساً وعينهُ باكيةً قلت ووجهك وضّاحٌ وثغرك باسمُ لا جمع بين الأضداد في المعنى. فأعجب سيف الدولة بقولهِ ووصلهُ بخمسين ديناراً من دنانير الصلات وفيها خمس مئة دينار.

تَجاوَزتَ مِقدارَ الشَجاعةِ والنُهَى ... إلى قَولِ قَومٍ أنتَ بالغَيبِ عالِمُ[1]

ضَمَمتَ جَناحَيهِم عَلَى القَلبِ ضَمَّةً ... تَمُوتُ الخَوافِي تَحتَها والقَوادِمُ[2]

بِضَربٍ أتَى الهاماتِ والنَصرُ غائِبٌ ... وَصارَ إلى اللَبّاتِ والنَصرُ قادِمُ[3]

حَقَرتَ الرُدَينِيّاتِ حَتَّى طَرَحتَها ... وحَتَّى كأنَّ السَيفَ لِلرُمحِ شاتِمُ[4]

ومَن طَلَبَ الفَتحَ الجَلِيلَ فإنَّما ... مفَاتِيحُهُ البِيضُ الخِفافُ الصَوارِمُ[5]

نَثَرتَهُمُ فَوقَ الأُحَيدِبِ كُلِّهِ ... كَما نُثِرَتْ فَوقَ العَرُوسِ الدَراهِمُ[6]

تَدُوسُ بِكَ الخيلُ الوُكورَ عَلَى الذرَى ... وقد كَثُرَتْ حَولَ الوُكورِ المَطاعِمُ[7]

---

(١) النهي العقل. وإلى قول قوم صلة تجاوزت. وتتمة البيت مفعول القول: أي قد أظهرت من الإقدام على المهالك ومن الصبر على المخاوف ما تجاوزت بهِ مبلغ الشجاعة والعقل إلى ما يقولهُ قومٌ من أنك تعلم الغيب وتعرف عواقب الأمور قبل حلولها. يعني أن ما اقتحمتهُ من الأهوال لا تثبت أمامهُ شجاعةٌ وما أظهرتهُ من الصبر وسكون الجأش لا يكفي في مثلهِ العقل والترزُّن فكأنك قد كوشفت بالغيب وعرفت أن العاقبة لك فلبثت في تلك الحال متهلل الوجه محتقراً لما تراهُ حولك من العظائم.

(٢) الجناحان ميمنة الجيش وميسرتهُ. وقلْبُ الكتيبة في وسطهِ. والخوافي والقوادم من ريش الطائر استعارها لرجال الجناحين قيل القوادم عشر ريشات في مقدَّم كل جناح والخوافي ما تحتها. وقولهُ تموت الخوافي تحتها أي تحت مثلها ولذلك عبَّر بالمضارع. والمعنى أهلكتهم جميعاً.

(٣) بضربٍ الباء متعلقة بضممت. والهامات الرؤوس. واللبات أعالي الصدور. يريد سرعة انتصارهِ عليهم أي لم يكن إلا حملةٌ بالسيوف وقعت على هاماتهم والجيشان واقفان لا يتحقق النصر لأحدهما فما بلغت من الهامات إلى اللبات حتى انهزموا فكان النصر لك.

(٤) الردينيات الرماح. يقول ازدريت الرماح لأنها سلاح الجبناء فتركت القتال بها وعمدت إلى السيف وهو سلاح الشجعان لاقتضائهِ المقاربة بين الفريقين ولما اخترت السيف على الرمح صار كأنَّ السيف يشتم الرمح تعييراً لهُ.

(٥) أي السيوف والضمير من مفاتيحهُ للفتح.

(٦) الأحيدِب جبل الحدث: أي تبعتهم على هذا الجبل وبدَّدت جثثهم فوقهُ كما تتبدد الدراهم التي تنثر على العروس.

(٧) الوكور جمع وكر الطائر وهو موضع مبيتهِ. والذرى أي أعالي الجبال. يقول تبعتهم بخيلك في رؤوس الجبال حيث تكون وكور جوارح الطير فقتلتهم هناك حتى كثرت مطاعم الطير حول وكورها.

تَظُنُّ فِراخُ الفُتْخِ أنَّكَ زُرتَها ... بِأُمَّاتِها وَهيَ العِتاقُ الصَلادِمُ[1]

إذا زَلِقَتْ مَشيَّتَها بِبُطُونِها ... كما تَتَمَشَّى في الصَعيدِ الأَراقِمُ[2]

أَفِي كُلِّ يَومٍ ذا الدُمُستُقُ مُقدِمٌ ... قَفاهُ عَلَى الإقدامِ لِوَجهِهِ لائِمُ[3]

أَيُنكِرُ رِيحَ اللَيثِ حَتَّى يَذُوقَهُ ... وقد عَرَفَتْ رِيحَ اللُيُوثِ البَهائِمُ[4]

وقد فَجَعَتْهُ بِابنِهِ وابنِ صِهرِهِ ... وبِالصِهرِ حَمْلاتُ الأَمِيرِ الغَواشِمُ[5]

مَضَى يَشكُرُ الأَصحابَ في فَوتِهِ الظُبَى ... لِمَا شَغَلَتْها هامُهُمْ والمَعاصِمُ[6]

ويَفهَمُ صَوتَ المَشرَفِيَّةِ فِيهِمِ ... عَلَى أَنَّ أَصواتَ السُيُوفِ أَعاجِمُ[7]

---

(١) الفتخ جمع فتخاء من العقبان وهي اللينة الجناح. والأُمات جمع أُمّ يقال أمهات للعقلاء وأُمات لغيرهم. والعتاق كرام الخيل. والصلادم الشداد: أي تظنّ فراخ العقبان أن هذه الخيل أُماتها لما صعدت بها الجبال وبلغت أوكارها يريد أن خيلهُ كالعقبان في الشدّة والسرعة.

(٢) الصعيد وجه الأرض. والأراقم جمع أرقم وهو الحية فيها سواد وبياض. أي إذا زلقت خيلك في مهابط تلك الجبال لشدّة انصبابها مشيَّتها زحفاً على بطونها كما تزحف الحيات في الصعيد.

(٣) أقدم خلاف أدبر. وقفاهُ إلى آخر البيت حال من الضمير في مقدم: أي أنهُ يقدم ثم ينهزم فيقع الضرب في قفاهُ فكأنَّ قفاهُ يلوم وجههُ على الإقدام لأنهُ بسببهِ تعرَّض للضرب.

الليث الأسد. والهاء من يذوقهُ لليث: أي ألا يزال ينكر ريح الليث فلا يعرفهُ حتى يذوقهُ أي حتى يجرّب بأسهُ مع أن البهائِم إذا شمت ريح الليث عرفتهُ فتوقفت عن الإقدام عليهِ. والبيت مثلٌ أي ألا يعرف سيف الدولة بالخبر حتى يقصدهُ ويختبرهُ بنفسهِ.

(٤) فجعهُ رزأهُ بشيءٍ يكرم عليهِ. وحملات بسكون الميم للضرورة. والغواشم التي لا تبالي من أخذت. أي هلاّ اعتبر بمن رُزِئهُ من هؤلاء فلا يجترىء على العود إلى الإقدام.

(٥) الظبي حدود السيوف. والهام الرؤوس والمعاصم أطراف السواعد. يقول هرب وهو يشكر أصحابهُ لأنهم شغلوا السيوف عنهُ بقطع رؤوسهم وأيديهم حتى سبق وفات السيوف.

(٦) يفهم عطف على يشكر. والمشرفية السيوف. وعلى بمعنى مع: أي إذا سمع صوت وقع السيوف في أصحابهِ فهم أنها تقتلهم فجدّ في الهزيمة مع أن أصوات السيوف عجماء أي ليست ذات لفظٍ يفهم.

يُسَرُّ بِما أَعطاكَ لا عَنْ جَهالَةٍ ... ولٰكِنَّ مَغنُوماً نَجا مِنكَ غانِمُ[1]

وَلَستَ مَلِيكاً هازِماً لِنَظِيرِهِ ... ولٰكِنَّكَ التَوحِيدُ لِلشِرْكِ هازِمُ[2]

تَشَرَّفُ عَدنانٌ بِهِ لا رَبِيعَةٌ ... وتَفتَخِرُ الدُنيا بِهِ لا العَواصِمُ[3]

لَكَ الحَمدُ في الدُرِّ الَّذي لِيَ لَفظُهُ ... فإِنَّكَ مُعطِيهِ وإِنِّيَ ناظِمُ[4]

وإِنّي لَتَعدُو بي عَطاياكَ في الوَغَى ... فَلا أَنا مَذمُومٌ ولا أَنتَ نادِمُ[5]

عَلَى كُلِّ طَيَّارٍ إِليها بِرِجلِهِ ... إِذا وَقَعَت في مِسمَعَيهِ الغَماغِمُ[6]

أَلا أَيُّها السَيفُ الَّذي لَيسَ مُغمَداً ... وَلا فيهِ مُرتابٌ ولا مِنهُ عاصِمُ[7]

هَنِيئاً لِضَربِ الهامِ والمَجدِ والعُلَى ... وَراجِيكَ والإِسلامِ أَنَّكَ سالِمُ[8]

---

(١) أي يسرّ بما أعطاك من أصحابهِ الذين قتلتهم وخيلهِ وسلاحهِ لأن هذه الأشياء كانت كالفداء لهُ حين اشتغل أصحابك بها عنهُ وليس يسرّ بها لأنهُ يجهل ما لحقهُ بها من الخسران ولكنهُ حين نجا منك بروحهِ اكتفى بها غنيمةً فعدّ نفسهُ غانماً وإن كان مغنوماً.

(٢) الشرك الاسم من أشرك إذا جعل لله شريكاً. وهازم خبر بعد خبر. يقول أنت في هزمك الدمستق لا تعدّ ملكاً قد هزم ملكاً مثلهُ ولكنك التوحيد قد هزم الشرك لأن كلاً منكما زعيم ملتهِ.

(٣) الضمير من بهِ لمليك. وعدنان ابن أُدّ أبو العرب. وربيعة قبيلة سيف الدولة. والعواصم بلادٌ قصبتها أنطاكية: أي لا يفتخر بهِ رهطهُ وملكهُ فقط ولكنهُ شرف العرب كلها لرجوعهِ بالنسب إليها وفخر الدنيا بأسرها لأنهُ أكرم أهلها.

(٤) يعني بالدرّ شعرهُ. يقول المعاني لك واللفظ لي فأنت تعطيني المعاني بأفعالك ومناقبك وأنا أنظمها في لفظي.

(٥) تعدو تجري. والوغى الحرب: يريد بعطاياهُ الخيل كما صرَّح بهِ في البيت التالي يقول اغزو أعداءَك وأقاتلهم على الخيل التي وهبتها لي فلا أنا مذمومٌ على أخذها لأنها لم تضع عندي ولا أنت نادمٌ على هبتها لأنك لا تجدني غير أهلٍ لها.

(٦) على كل طيارٍ صلة تعدو. والضمير من إليها للوغى. والمسمعان بكسر أولهِ الأذنان. والغماغم الأصوات المختلطة يعني جلبة الحرب: أي تعدو بى عطاياك على ظهر كل فرسٍ إذا سمع صوت الفرسان في الحرب طار إليها برجلهِ عوض الجناح يريد شدّة سرعتهِ في العدو حتى كأنَّ قوائمهُ أجنحة.

(٧) الارتياب الشك. وعصمةُ من كذا منعهُ وحماهُ. ويروى لست وفيك ومنك.

(٨) الهام الرؤوس. والعلى جمع عليا وهي المنزلة العالية. وأنك سالم فاعل هنيئاً وهي حالٌ محذوفة العامل والأصل ثبت هنيئاً فحذف الفعل وقامت الحال مقامهُ وقد مرّ: أي لتهنأ هذه المذكورات بسلامتك لأنك قوامها.

وَلِـمْ لا يَقِي الرَحمٰنُ حَدَّيكَ ما وَقَى وتَـفـلِـيـقَـهُ هـامَ الـعِـدَى بِـكَ دائِـمُ[1]

وقال يمدح كافوراً:

مُـنَـى كُـنَّ لـي أنَّ الـبَـيـاضَ خِـضـابُ فـيَـخفَـى بِـتَـبـيِـيضِ القُـرُونِ شَـبابُ[2]

لَـيـالِـيَ عِـنـدَ الـبِـيـضِ فَـوْدايَ فِـتـنـةٌ وفَـخـرٌ وَذاكَ الـفَـخـرُ عِـنـدِي عـابُ[3]

فـكَـيـفَ أذُمُّ الـيَـومَ مـا كُـنـتُ أشـتَـهِـي وأدعُـو بِـمـا أشـكُـوهُ حِـيـنَ أُجـابُ[4]

جَلا اللَونُ عن لَـونٍ هَـدَى كُلَّ مَسلَكٍ كـمـا انْـجـابَ عـن ضـوءِ النَهـارِ ضَـبـابُ[5]

وفـي الـجِـسـمِ نَـفـسٌ لا تَـشِـيـبُ بِـشَـيـبـهِ وَلَـوْ أنَّ مـا فـي الـوَجـهِ مِـنـهُ حِـرابُ[6]

---

(١) لِمْ استفهام إنكار وأصلها لِمَ بفتح الميم فسكنها وهو مخصوصٌ بالضرورة. وما من قولهِ ما وقى ظرفية زمانية. وتفليقهُ إلى آخر البيت حال من الرحمن. يقول لماذا لا يصون الله حدَّيك من الفلول ما دامت عندهُ صيانةٌ للأشياء أي أبداً وأنت سيفهُ الذي يصول بهِ على أعدائهِ.

(٢) منًى خبر مقدَّم عن المصدر التأوَّل من أنَّ وخبرها. وكنّ نعت منى. والقرون ضفائر الشعر. يقول إنهُ لرغبتهِ في شرف المشيب وحرمتهِ كان يتمنى قديماً أن يكون البياض خضاباً يستَّر بهِ سواد الشعر كما يستر بياضهُ بالسواد. وإنما جمع المنى بناءً على تكرُّر ذلك منهُ مرَّةً بعد أخرى فصارت كل مرةٍ منيةً.

(٣) ليالي صلة كنَّ وهي مضافةٌ إلى الجملة بعدها وأراد ليالِيَ فوادَيَّ فتنةٌ عند البيض ففصل بالظرف وهو قبيح. والفودان جانبا الرأس. والعاب بمعنى العيب: أي أنهُ كان يتمنى المشيب في الليالي التي كان رأسهُ فيها فتنةً عند النساء لحسن شعرهِ وسوادهِ وكنَّ يفتخرنَ بوصلهِ إلا أن ذلك الفخر عيبٌ عندهُ لأنهُ مباينٌ للعفة والكمال.

(٤) الدعاء هنا بمعنى الابتهال. وحين أُجاب صلة أشكوهُ. يتعجب يقول كيف اذمّ اليوم المشيب وقد كنت اشتهيهِ وكيف أدعو لنفسي بطلب ما أشكوهُ إذا أُجبت إليهِ.

(٥) جلا أي ذهب وزال من قولهم جلا القوم عن منازلهم إذا رحلوا عنها. وانجاب انكشف: أراد باللون الأول السواد وبالثاني البياض يقول كأنَّ بياض الشيب كان مستوراً تحت السواد فلما زال السواد عنهُ انكشف فاهتدى صاحبهُ في كل مسلكٍ من الرشد كالنهار إذا انكشف عنهُ الضباب فاهتدى السالك في ضوئهِ.

(٦) الهاء من قولهِ منهُ للجسم والظرف حال من الوجه: كنى بشيب النفس عن الضعف الذي هو من لوازم المشيب أي أن همتهُ لا تشيب ولا يلحقها الضعف ولو كانت الشعرات البيض في وجههِ حراباً.

لَـهَـا ظُـفُـرٌ إنْ كَـلَّ ظُـفُـرٌ أُعِـدُّهُ وَنـابٌ إذا لـم يَـبـقَ فـي الـفَـمِ نـابُ[1]

يُـغـيِّـرُ مِـنّـي الـدَّهـرُ مـا شـاءَ غَـيـرَهـا وأبـلُـغُ أَقـصَـى الـعُـمـرِ وَهْـيَ كَـعـابُ[2]

وإنّـي لَـنَـجـمٌ تَـهـتَـدِي صُـحـبـتـي بِـهِ إذا حـالَ مِـن دُونِ الـنُّـجـومِ سَـحـابُ[3]

غـنـيٌّ عَـنِ الأَوطـانِ لا يَـسـتَـخِـفُّـنـي إلـى بَـلَـدٍ سـافَـرتُ عـنـهُ إيـابُ[4]

وعـن ذَمَـلانِ الـعِـيـسِ إنْ سـامَـحَـتْ بـهِ وإلاّ فَـفِـي أكـوارِهِـنَّ عُـقـابُ[5]

وأصـدَى فَـلا أُبـدِي إلـى الـمـاءِ حـاجـةً ولِـلـشَّـمـسِ فَـوقَ الـيَـعْـمَـلاتِ لُـعـابُ[6]

ولِـلـسِـرِّ مِـنّـي مَـوضِـعٌ لا يَـنـالُـهُ نَـدِيـمٌ وَلا يُـفـضِـي إلـيـهِ شَـرابُ[7]

ولِـلـخَـودِ مِـنّـي سـاعـةٌ ثُـمَّ بَـيـنَـنـا فَـلاةٌ إلـى غَـيـرِ الـلِـقـاءِ تُـجـابُ[8]

---

(١) الظفر والظفر لغتان والتثقيل لغة أسد والتخفيف لغة تميم: يقول إن كلّ ظفري وذهبت أنيابي من الكبر فهمتي لا يكلّ ظفرها ولا يذهب نابها.

(٢) غيرَها استثناء أو حال. والكعاب الجارية التي بدا ثديها للنهود: أي نفسي شابّةٌ أبداً لا يغيرها الدهر وإن تغير جسمي.

(٣) الصحبة اسم جمع بمعنى الأصحاب. وحال اعترض. ويروى تهتدي بيَ صحبتي. يقول إذا خفيت النجوم بالسحاب فلم يهتدِ بها السالك ليلاً كنت نجماً لأصحابي يهتدون بهِ يريد أنهُ خبيرٌ بطرق الفلوات.

(٤) ويروى يستفزُّني وهو بمعنى يستخفني. والإياب والرجوع. يقول إنهُ لا يعشق الأوطان فإذا سافر عن وطنٍ لم يستخفَّهُ حبُّ الرجوع إليهِ لأن كل البلاد عندهُ سواء.

(٥) الذملان ضربٌ من السير السريع والظرف معطوف على مثلهِ في صدر البيت السابق. والعيس الإبل. وقولهُ إن سامحت بهِ استئناف وجواب الشرط محذوف أي سرت عليها. والأكوار جمع جور وهو الرحل. والعقاب الطائر المعروف: أي وأنا غنيٌّ أيضاً عن سير الإبل فإن سمحت بهِ سرت عليها وإلاّ فإنني كالعقاب اقطع الفلوات من غير حاجة إلى ما يحملني.

(٦) أصدَى أعطش. وإلى الماء صلة حاجة. واليعملات النياق النجيبة. ولعاب الشمس ما يراهُ المسافر من أشعَّة الظهيرة كأنهُ خيوطٌ تتدلى فوق رأسهِ. يقول إنهُ صبورٌ على العطش في الفلوات الحارَّة إذا اشتدَّ وقع الشمس وامتدَّ لعابها فوق الإبل.

(٧) النديم الجليس على الشراب. ويفضي ينتهي. يريد أنهُ كتومٌ للسرّ يضعهُ حيث لا يطَّلع عليهِ النديم ولا يصل إليهِ الشراب مع تغلغلهِ في البدن.

(٨) الخود المرأة الناعمة. وتجاب تُقطَع: أي أصحب المرأة حيناً يسيراً ثم أسافر عنها فيكون بيني وبينها فلاةٌ أقطعها إلى حيث لا نلتقي.

وَمـا الـعِـشـقُ إلاَّ غِـرَّةٌ وطَـمـاعـةٌ ... يُـعـرِّضُ قَـلـبٌ نَـفـسَـهُ فـيُـصـابُ[(١)]

وغَـيـرُ فُـؤادِي لِـلـغَـوانـي رَمِـيَّـةٌ ... وغَـيـرُ بَـنـانـي لِـلـزُجاجِ رِكـابُ[(٢)]

تَـرَكْـنـا لأَطـرافِ الـقَـنـا كُـلَّ شَـهـوةٍ ... فـلَـيـسَ لَـنـا إلاَّ بِـهِـنَّ لِـعـابُ[(٣)]

نُـصـرِّفُـهُ لِـلـطَّـعـنِ فَـوقَ حَـوادِرٍ ... قـدِ انْـقَـصَـفَـتْ فِـيـهِـنَّ مِـنـهُ كِـعـابُ[(٤)]

أَعَـزُّ مَـكـانٍ فـي الـدُّنَـى سَـرجُ سـابِـحٍ ... وخَـيـرُ جَـلِـيـسٍ فـي الـزَمـانِ كِـتـابُ[(٥)]

وبَـحـرُ أَبِـي الـمِـسـكِ الـخِـضَـمُّ الَّـذي لَـهُ ... عَـلَـى كُـلِّ بَـحـرٍ زَخْـرةٌ وعُـبـابُ[(٦)]

تَـجـاوَزَ قَـدْرَ الـمَـدحِ حَـتَّـى كـأَنَّـهُ ... بِـأَحـسَـنِ مـا يُـثـنَـى عَـلَـيـهِ يُـعـابُ[(٧)]

---

(١) الغرّة الغرور: ويروى فتصاب بضمير النفس على أن المراد بالنفس ما يرادف الروح. يقول العشق غرورٌ بالمعشوق وطمعٌ في وصلهِ إذا وقعا في قلب العاشق عرّض نفسهُ للعشق فيصاب بهِ. ومن روى بالتاء فالمعنى أن دواعي العشق تقع أولاً في القلب ثم تنقاد النفس لهوى القلب لأنهُ يستهويها ويغلبها على رشدها.

(٢) الغواني النساء الحسان. والرمية ما يُرمَى بالسهام. والبنان أطراف الأصابع. والركاب المطيّ: يقول قلبي لا تصيبهُ الحسان بسهام لحظهنّ لأني أصون نفسي عن هواهنّ ولا أتعاطى كؤوس الخمر فتصيرَ يدي مركباً للزجاج.

(٣) القنا عيدان الرماح. وقولهُ بهنَّ الضمير للأطراف. واللعاب بالكسر بمعنى الملاعبة. يقول تركنا شهواتنا لأطراف الرماح أي أحلنا لذّاتنا عليها فإذا دعانا حبُّ اللهو لهونا بمطاعنة الأقران.

(٤) الضمير من تصرّفهُ للقناء والحوادر جمع حادر وهو الغليظ السمين. والكعاب العُقَد بين أنابيب الرمح: أي نصرّف الرماح فوق خيلٍ غلاظٍ سمان قد أَلِفت الطعن قديماً وانكسرت فيها كعابٌ من الرماح.

(٥) الدُنَى جمع دنيا. والسابح الفرس السريع الجري. يقول سرج الفرس أعزّ مكانٍ لأن راكبهُ يسافر عليهِ في طلب المعالي ويبلغ ما يريد من قهر الأعداء ونفي الذلّ والخسف والكتاب خير جليسٍ لأنهُ مأمون الأذى والملل ولا يحتاج في مجالستهِ إلى تحرُّز ولا كلفة.

(٦) الخضمُّ الكثير الماء وهو خبر عن بحر. وزخر البحر طمى وامتدّ. والعباب كثرة الموج وارتفاعهُ: أي بحر أبي المسك هو البحر الخضمّ الذي يفوق كل بحر. وروى الواحديّ وبحرٌ أبو المسك بتنوين بحر على أنهُ خبر مقدَّم أي وأبو المسك الخضمُّ بحرٌ. وروى ابن جنيّ وبحرٍ بالجرّ عطفاً على جليس أي وخير بحرٍ أبو المسك ولعلّ الأحسن ما رويناهُ.

(٧) يقول هو فوق قدر المدح أي لا يصل المدح إلى مبلغ استحقاقهِ فإذا أثنيت عليهِ بأحسن الثناء كنت كأنك تعيبهُ لأنك تصفهُ بما هو دون قدرهِ.

وغـالَـبَـهُ الأعـداءُ ثُـمَّ عَـنَـوْا لَـهُ ... كـمـا غـالَـبَـتْ بِيضَ السُيوفِ رِقابُ[1]
وأكثَرُ ما تَلقَى أبا المِسكِ بِذلةً ... إذا لـم تَـصُنْ إلاَّ الـحَـدِيدَ ثِـيـابُ[2]
وأوسَعُ ما تَلقاهُ صَدراً وخَلفَهُ ... رِمـاءٌ وطَـعـنٌ والأمـامَ ضِـرابُ[3]
وأنـفَـذُ مـا تَـلـقـاهُ حُـكـماً إذا قَـضَـى ... قَـضـاءً مُـلـوكُ الأرضِ مِـنهُ غِـضـابُ[4]
يَـقُـودُ إلـيـهِ طـاعـةَ الـنـاسِ فَـضـلُـهُ ... ولـو لـم يَـقُـدْهـا نـائِـلٌ وعِـقـابُ[5]
أيـا أسَـداً فـي جِـسـمِـهِ رُوحُ ضَـيـغَـمٍ ... وكـم أُسُـدٍ أرواحُـهُـنَّ كِـلابُ[6]
ويـا آخِـذاً مـن دَهـرِهِ حَـقَّ نَـفـسِـهِ ... ومِـثـلُـكَ يُـعـطَـى حَـقَّـهُ ويُـهـابُ[7]
لَـنـا عِـنـدَ هٰـذا الـدَهـرِ حَـقٌّ يَـلُـطُّـهُ ... وقـد قَـلَّ إعـتـابٌ وطـالَ عِـتـابُ[8]
وقـد تُـحـدِثُ الأيّـامُ عِـنـدَكَ شِـيـمـةً ... وتَـنـعَـمِـرُ الأوقـاتُ وَهْـيَ يَـبـابُ[9]

---

(١) عنوا خضعوا: أي عجزوا عن غلبتهِ فخضعوا لهُ كما تخضع الرقاب للسيوف إذا غالبتها.
(٢) ما مصدرية أي أكثر لقياك لهُ. وبذلةً تمييز وهي اسمٌ من ابتذل الشيء إذا ترك صيانته. والحديد مستثنًى مقدَّم من الثياب: أي أكثر ما تلقاهُ مبتذلاً نفسهُ لم يحصنها بالدرع حين لا يصون الأبدان شيءٌ من الثياب إلاَّ الحديد أي في وقت اشتداد الحرب وازدحام الجيش حولهُ.
(٣) قولهُ وخلفهُ رماءٌ حال سدَّت مسدَّ خبر أوسع. والرماء والضراب مصدر إن بمعنى المفاعلة: أي وتلقاهُ أوسع ما يكون صدراً إذا أحاط بهِ جيش العدوّ من كل جانب فكان خلفهُ الرماء والطعن وأمامهُ الضراب.
(٤) أي إذا أبرم قضاءً لا ترضى بهِ الملوك فذلك القضاء أنفذ أحكامهِ يعني أن أحكامهُ تنفذ على غضب الملوك فلا يجترئون على نقض شيءٍ منها وإن خالفهم فيها وغاضبهم.
(٥) النائل العطاء: أي لو لم يطعهُ الناس رغبةً في نوالهِ ولا رغبةً في عقابهِ لاستحقَّ طاعتهم بما فيهِ من الفضل محبةً لهُ وإجلالاً.
(٦) الضيغم الأسد: يقول أنت أسدٌ في الشدَّة والبطش وروحك روح أسدٍ أيضاً يعني أنهُ مع قوّة بطشهِ عالي الهمة مقدامٌ على عظائم الأمور وكم من الناس من يشبه الأسد في قوة بطشهِ ولكنهُ جبانٌ ساقط الهمة كأنَّ روحهُ روح كلب.
(٧) أي أنهُ يأخذ حقهُ من الدهر لأن الدهر يهابهُ فلا يجترىء على هضم حقوقهِ.
(٨) يلطهُ يجحدهُ. والإعتاب الاءِ رضاء. يقول لنا عند الدهر حقٌّ يجحدهُ ويدافع في قضائهِ وقد طال عتابنا له فلم يُعتِب ولم يُرضِنا بقضاء الحق.
(٩) الشيمة الخلق. وتنعمر مطاوع عمرت الموضع إذا صيرتهُ آهلاً. واليباب الخالي لا شيء بهِ. يقول الأيام قد تغير أخلاقها عندك فترضي المعاتب وتسالم ذوي الفضل لنزولهم =

ولا مُلكَ إلاَّ أنتَ والمُلكُ فَضلةٌ كأنَّكَ سَيفٌ فيهِ وَهوَ قِرابُ[1]

أرَى لي بِقُربِي مِنكَ عَيناً قَريرةً وإنْ كانَ قُرباً بالبِعادِ يُشابُ[2]

وهل نافِعِي أنْ تُرفَعَ الحُجْبُ بَينَنا ودُونَ الَّذي أمَّلتُ مِنكَ حِجابُ[3]

أُقِلُّ سَلامي حُبَّ ما خَفَّ عَنكُمُ وأسكُتُ كَيما لا يَكُونَ جَوابُ[4]

وفي النَفسِ حاجاتٌ وفِيكَ فَطانةٌ سكُوتي بَيانٌ عِندَها وخِطابُ[5]

وَما أنا بِالباغي عَلَى الحُبِّ رِشوةً ضَعِيفُ هَوًى يُبغَى عليهِ ثَوابُ[6]

= في كنفك وجوارك والأوقات تصير عامرةً لهم بأن يدركوا مطلوبهم. والمعنى أن قضت الأيام حقي وأظفرتني بمطلوبي عندك فلا عجب فإنها تحدث شيمةً غير شيمتها مهابةً لك.

(١) ويروى كأنك نصلٌ. يقول المُلك على الحقيقة أنت لا ما أنت فيهِ من السؤدد لأنهُ حصل لك بعلوّ همتك وسداد رأيك فهو بالنسبة إليك زيادةٌ وفضلة وأنت فيهِ كالسيف في القراب والمعنى للسيف لا للقراب.

(٢) يقال قرَّت عينهُ إذا بردت وهو كنايةٌ عن السرور لأنهُ يقال إن دمعة السرور باردة ودمعة الحزن حارّة. وضمير كان يعود إلى القرب. والبعاد مصدر باعدهُ. ويشاب يمزج. يقول عيني قريرةٌ بقربك لبلوغي ما كنت أتمنى من لقائك وإن كان هذا القرب مشوباً بالبعاد لأنك لم تبلّغني ما أرجو من حسن رأيك واصطناعك وقد كشف عن هذا المعنى في البيت التالي.

(٣) الاستفهام للإنكار: يقول لا ينفعين أن أصل إليك بغير حجاب وما آملهُ منك محجوبٌ عني لا أصل إليهِ.

(٤) حبَّ مفعول لأجلهِ. ويكون يجوز فيها النصب على زيادة ما والرفع على جعلها مصدرية. يقول لإيثاري التخفيف عنكم اقلل التسليم عليكم واسكت عن الكلام لكي لا أحوجكم إلى الإجابة.

(٥) يشير بهذا وما سبقهُ إلى ما في نفسهِ من الحصول على خطةٍ من خطط الولاية يقول في نفسي حاجاتٌ أمسك عن ذكرها وأنت فطنٌ تطّلع عليها بفطنتك فيقوم سكوتي عنها مقام التصريح بها.

(٦) بغى الشيءَ طلبهُ. وقولهُ ضعيف هوًى يروى بالإضافة على أنهُ مبتدأ خبرهُ يبغى وبالتنوين على أنهُ خبرٌ مقدَّم عن هوًى. يقول ليست أطلب هذه الحاجات حتى تكون بمنزلة رشوةٍ لي على الحبّ فإن الحبّ الضعيف يطلب عليهِ الثواب. ثم ذكر سبب هذا الطلب في البيت التالي.

وَمـا شِـئـتُ إلاَّ أَنْ أَدُلَّ عَـواذِلـي عَـلَـى أَنَّ رَأْيـي فـي هَـواكَ صَـوابُ[1]

وأُعـلِـمَ قَـومـاً خـالَـفُـونـي فـشَـرَّقُـوا وغَـرَّبـتُ أَنّـي قـد ظَـفِـرتُ وَخـابـوا[2]

جَـرَى الـخُـلـفُ إلاَّ فـيـكَ أَنَّـكَ واحِـدٌ وأَنَّـكَ لَـيـثٌ والـمُـلُـوكُ ذِئـابُ[3]

وأَنَّـكَ إنْ قُـويِـسـتَ صَـحَّـفَ قـارِئٌ ذِئَـابـاً ولـم يُـخـطِـئْ فَـقـالَ ذُبـابُ[4]

وإنَّ مَـدِيـحَ الـنـاسِ حَـقٌّ وبـاطِـلٌ ومَـدحُـكَ حَـقٌّ لَـيـسَ فـيـهِ كِـذابُ[5]

إذا نِـلـتُ مِـنـكَ الـوُدَّ فـالـمـالُ هَـيِّـنٌ وكُـلُّ الَّـذي فَـوقَ الـتُّـرابِ تُـرابُ

ومـا كُـنـتُ لَـولا أنـتَ إلاَّ مُـهـاجِـراً لَـهُ كُـلَّ يَـومٍ بَـلْـدةٌ وصِـحـابُ[6]

ولٰـكِـنَّـكَ الـدُّنـيـا إلَـيَّ حَـبِـيـبَـةً فـمـا عَـنـكَ لـي إلاَّ إلَـيـكَ ذَهـابُ[7]

---

(١) العواذل جمع عاذلة: يقول لم أُرِد بما أطلبهُ إلاَّ أن أعرِّف اللواتي يلمنني في قصدك أني كنت مصيباً في هواك بأنك تكرم مثواي وتبلغني ما آملهُ عندك.

(٢) أُعلم معطوف على أدلّ. وأَنَّ ومعمولاها سادَّة مسدّ المفعول الثاني والثالث لأُعلم: أي وأن أُعلم الذين خالفوني إلى غيرك من الملوك أني قد ظفرت بقصدك وخابوا بعدولهم عنك. والتشريق والتغريب مثلٌ أراد بهِ تحقيق المخالفة.

(٣) الخلف بمعنى الاختلاف. وأنك واحدٌ بدل اشتمال من الكاف من قولهِ فيك. والليث الأسد.

(٤) أي وإن صحف القارىء عند هذه المقايسة لفظ الذئاب من البيت السابق فقال وإنك ليثٌ والملوك ذبابٌ لم يخطىء في هذا التصحيف لأنهم كذلك.

(٥) الكذاب بمعنى الكذب ويحتمل أن يكون مصدر كاذَب الرجل صاحبهُ إذا كذَّب كلٌّ منهما الآخر. يقول الناس يُمدَحون تارةً بالحق وتارةً بالباطل ولكن مدحك حقٌّ لا كذب أو لا تكذيب فيهِ.

(٦) يقول لولاك لم أُقم بمصر وكنت لا أزال مهاجراً في الأرض أتنقل من بلد إلى بلد ومن قومٍ إلى آخرين لأني لا أبالي بوطنٍ ولا أصحاب.

(٧) حبيبةً حال من الدنيا. وإليَّ صلة حبيبة. وعنك وإليك متعلقان بذهاب. ولي خبر مقدّم عن ذهاب أي فما لي ذهابٌ عنك إلاَّ إليك. يقول أنت عندي بمنزلة الدنيا لأن هواي محصورٌ فيك وآمالي منوطةٌ بك فإنك أردت الذهاب عنك كان ذهاباً إليك كالدنيا من أراد السفر عنها فقد سافر إليها لأنهُ لا يسعهُ الخروج منها.

وداع كافور

قال يهجوه في يوم عرفة، أي في أمس عيد الأضحى؛ قبل مسيره من مصر بيوم واحد في أواخر سنة ٩٦١م (٣٥٠هـ):

عِيدٌ! بأيّةِ حالٍ عُدتَ، يا عِيدُ؟ بما مَضَى؟ أم لأمرٍ فيكَ تَجديدُ؟[١]
أمّا الأحبّةُ، فالبَيداءُ دونَهُمُ، فلَيتَ دونَكَ بِيداً، دونَها بِيدُ![٢]

❀ ❀ ❀

يا ساقيَيّ، أخَمرٌ في كُؤوسِكُما، أمْ في كؤوسِكُما هَمٌّ وتَسهيدُ؟[٣]
أصَخرَةٌ أنا؟ ما لي لا تُحَرّكُني هذي المُدامُ، ولا هذي الأغاريدُ؟
إذا أرَدتُ كُمَيتَ اللّونِ صافيَةً، وجَدْتُها، وحَبيبُ القَلبِ مَفقودُ[٤]
ماذا لَقيتُ منَ الدّنيا؟ وأعجَبُهُ أنّي، بما أنا شاكٍ منهُ، مَحسُودُ!
أمسَيتُ أروحَ مُثرٍ، خازِناً ويَداً، أنا الغَنيُّ، وأموالي المَواعيدُ[٥]
إنّي نَزَلتُ بكَذّابِينَ، ضَيفُهُمُ؛ عنِ القِرى وعنِ التّرحالِ مَحدودُ[٦]
جُودُ الرّجالِ منَ الأيدي، وَجودُهم منَ اللّسانِ؛ فلا كانوا! ولا الجُودُ!
ما يَقبِضُ المَوتُ نَفساً من نُفوسِهِم، إلاّ، وفي يَدِهِ، مِن نَتنِها، عُودُ
أكُلّما اغتالَ عَبدُ السّوءِ سَيّدَهُ، أو خانَهُ، فلَهُ، في مِصرَ، تَمهيدُ؟![٧]

---

(١) عيد: أي هذا عيد. بما مضى: أي أبما مضى، حذف همزة الاستفهام.
(٢) البيداء: الفلاة لأنها تبيد سالكها، جمعها بيد. يقول للعيد: إن أحبتني على بعد مني، تفصل البيداء بيني وبينهم، فليت البيد بعد البيد تفصل بيني وبينك، لأني لا أسر بقدومك وهم بعيدون.
(٣) التسهيد: الحمل على السهر.
(٤) الكميت: الأحمر فيه سواد، يوصف به المذكر والمؤنث، والمراد هنا: خمر كميت اللون.
(٥) أروح: من الراحة. يقول: إنه قد صار غنياً، ولكن خازنه ويده مستريحان من حمل المال، لأن أمواله مواعيد كافور لا تقبض، ولا تخزن.
(٦) القرى: الضيافة. محدود: ممنوع.
(٧) تمهيد: أي تمهيد للملك. يتهم كافوراً باغتيال سيده أنوجور الإخشيدي، ليستولي على الملك.

صارَ الخَصِيُّ إمامَ الآبقِينَ بها، فالحُرُّ مُستَعبَدٌ، والعَبدُ مَعبُودُ[1]
نامَتْ نَواطيرُ مِصرٍ عَن ثَعالِبِها فقَد بشِمنَ، وما تَفنى العَناقيدُ[2]
ألعَبدُ لَيسَ لحُرٍّ صالحٍ بأخٍ، لو أنّهُ، في ثِيابِ الحُرّ، مَولودُ[3]
لا تَشترِ العَبدَ، إلاّ والعَصا معَهُ، إنّ العَبيدَ لأنجاسٌ مَناكيدُ[4]
ما كنتُ أحسَبُني أحيا إلى زَمَنٍ، يُسيءُ بي، فيهِ، عَبدٌ، وهوَ محمودُ[5]
ولا تَوَهّمتُ أنّ النّاسَ قد فُقِدوا، وأنّ مثلَ أبي البَيضاءِ مَوجُودُ[6]
وأنّ ذا الأسوَدَ المَثقوبَ مِشفَرُهُ تُطيعُهُ ذي العَضاريطُ الرّعايدُ![7]
جَوعانُ، يأكُلُ من زادي، ويُمسكُني لكَيْ يُقالَ: عَظيمُ القَدرِ، مَقصودُ[8]
وَيلُمِّها خُطّةً! وَيلُمِّ قابِلِها لمِثلِها خُلِقَ المَهرِيّةُ القُودُ![9]

---

(١) الآبقين: العبيد الهاربين من ساداتهم. بها: أي بمصر.

(٢) النواطير: سادات مصر. ثعالبها: عبيد مصر. بشمن أخذتهن تخمة، والضمير للثعالب. العناقيد: أموال مصر. يقول: نامت سادات مصر عن أموالها، فاستولى عليها العبيد، وأكلوا منها فوق الشبع حتى اتخوا؛ ولكن هذه الأموال لا تفنى لكثرتها.

(٣) لو: أي ولو، حذف الواو والجملة حالية. في ثياب الحر: أي في ملك الحر.

(٤) المناكيد: جمع منكود وهو القليل الخير.

(٥) يسيء بي: يقال أساء به وإليه؛ قال كثير: أسيئي بنا أو أحسني، لا ملومة. عبد: ويروى كلب.

(٦) كناه بأبي البيضاء سخراً به لأنه خصي أسود.

(٧) المشفر: شفة البعير، استعاره لكافور إظهاراً لضخامة شفتيه. وكان كافور مثقوب الشفة السفلى، شأن العبيد الذي يعلقون الحلق في شفاههم؛ فشبهه بالبعير الذي يثقب مشفره للزمام. العضاريط، جمع عضروط، وهو الذي يخدم بطعامه. الرعاديد: الجبناء، واحدها رعديد.

(٨) من زادي: أي من شعري. يمسكني: يمنعني من الرحيل. والمراد: أن كافوراً يريد أن يشبع جوعه من مدح الشاعر، وهو لا يعطي الشاعر ما يشبعه، ويمنعه من الرحيل لكي يقول الناس إنه كريم يقصده الشعراء والعفاة.

(٩) ويلمها: كلمة تقال عند التعجب من الشيء؛ قيل إن أصلها ويل لأمها، فركبوها وجعلوها كالشيء الواحد؛ وقيل: بل هي مركبة من وي لأمها، فوي: كلمة مفردة تقال عند التفجع والتعجب، وحذفت الهمزة عن أمها تخفيفاً، وألقيت حركتها على اللام =

وعِـنـدَهـا، لَـذّ طَـعـمَ الـمَـوتِ شـارِبُـهُ إنّ الـمَـنـيّـةَ، عـنـدَ الـذُّلّ، قِـنـديـدُ[1]

مَـنْ عَـلّـمَ الأسـوَدَ الـمَـخـصِيّ مَـكـرُمَـةً؟ أقَـوْمُـهُ الـبِـيـضُ، أمْ آبـاؤهُ الـصِّـيـدُ؟[2]

أمْ أذْنُـهُ، فـي يَـدِ الـنّـخّـاسِ، دامـيَـةً؟ أمْ قَـدرُهُ، وهـوَ بـالـفِـلـسَـيـنِ مَـردودُ؟[3]

أوْلـى الـلّـئـامِ كُـوَيـفِـيـرٌ بـمَـعـذِرَةٍ في كلّ لُـؤمٍ، وبَـعضُ العُـذرِ تَـفـنـيـدُ[4]

وذاكَ أنّ الـفُـحـولَ الـبِـيـضَ عـاجِـزَةٌ عنِ الجَميلِ، فكَيفَ الخِصيةُ السّودُ![5]

= المكسورة، فصارت مضمومة؛ وينصب ما بعدها على التمييز. الخطة: الأمر والشأن. المهرية: الإبل. القود: الطوال الظهور، واحدها أقود وقوداء. والمراد أنه لمثل هذا الأمر الذي لا يحتمل خلقت الإبل للرحيل.

(١) عندها: الضمير للخطة. لذ طعم الشيء: وجده لذيذاً. القنديد: عسل قصب السكر، والخمر.

(٢) الصيد: جمع أصيد، وهو الملك العظيم.

(٣) النخاس: بائع العبيد. دامية: إشارة إلى أن النخاس كان يقوده بأذنه ويعرضه للبيع منادياً عليه، فتدمى أذنه من الشد. قدره: ثمنه.

(٤) التفنيد: اللوم والتقريع. يقول: هو أحق اللئام بأن يعذر على كل لؤم يبدو منه، لخسة أصله وعجزه عن المكارم، وإن يكن هذا العذر تقريعاً له؛ وفي البيت التالي يصرح بعذره.

(٥) الفحول البيض: الملوك والسادة الأحرار. عن الجميل: أي عن صنع الجميل. الخصية: جمع خصي.

أبو فراس الحمداني

يا حسرة!

بلغ أبا فراس أن والدته قصدت حضرة سيف الدولة من منبج تكلمه في المفاداة، وتتضرع إليه؛ فلم يكن عنده ما رجت من حسن الإيجاب. وقال ابن خالويه: ووافق ذلك أن البطارقة قيدوا بحلب، فقيد أبو فراس بخرشنة. ورأت الأمر قد عظم، فاعتلت من الحسرة، فبلغ ذلك أبا فراس، فكتب إلى سيف الدولة بهذا:

يا حَسرَةً، ما أكادُ أحمِلُها ... آخِرُها مُزعِجٌ، وأوّلُها!

عَليلَةٌ بالشّآمِ مُفرَدَةٌ، ... باتَ، بأيدي العِدى، مُعَلِّلُهَا[1]

تُمسِكُ أحشاءَها على حُرَقٍ، ... تُطفِئُها، والهُمومُ تُشعِلُهَا[2]

إذا اطمَأنّتْ، وأينَ؟ أو هدأتْ، ... عَنّتْ لها ذُكرَةٌ تُقَلقِلُهَا[3]

تَسألُ عَنّا الرُّكبانَ، جاهِدَةً ... بأدمُعٍ ما تَكادُ تُمهِلُهَا:[4]

«يا مَن رأى لي، بحِصنِ خَرشَنَةٍ، ... أُسدَ شرًى، في القُيودِ أرجُلُهَا؟!»[5]

«يا من رأى لي الدّروب شامخةً، ... دون لقاء الحبيبِ أطوَلُها؟!»[6]

---

(١) عليلة: المراد بها أمه. معللها: أي مسليها.

(٢) الحرق: جمع حرقة بالفتح والضم. تطفئها: أي تحاول إطفاءها بالصبر والطمأنينة.

(٣) وأين: أي وأين اطمئنانها. عنت: ظهرت أمامها. الذكرة: الذكر؛ ورويت فكرة.

(٤) الركبان: المسافرون. جاهدة: ملحة عليهم في السؤال. بأدمع: الجار متعلق بجاهدة.

(٥) الشرى: مأسدة يضرب بها المثل؛ وقوله أسد شرى: أي أبو فراس ومن معه في الأسر.

(٦) الدروب: مداخل بلاد الروم من جبال طورس.

«يا مَن رأى لي القُيودَ مُوثَقَةً، على حَبيبِ الفُؤادِ أثقَلُها؟!»[1]
-: يا أيّها الرّاكبانِ، هلْ لَكُما في حَملِ نجوى، يَخفُّ مَحمَلُهَا؟[2]
قُولا لها، إنْ وَعَتْ مَقالَكُما؛ وإنّ ذِكري لها لَيُذهِلُهَا:[3]
«يا أُمّتَا، هَذِهِ مَنازِلُنا، نَترُكُها تارَةً، ونَنزِلُهَا!»
«يا أُمّتَا، هَذِهِ مَوارِدُنا، نُعَلُّهَا تارَةً، ونُنْهَلُهَا»[4]
«أسلَمَنا قَومُنا إلى نُوَبٍ، أيسَرُها في القُلوبِ أقتَلُهَا»
«واستَبدَلوا بعدَنا، رِجالَ وَغًى، يَوَدّ أدنَى عُلايَ أمثَلُهَا»[5]
يا سَيّداً، ما تُعَدّ مَكْرُمَةٌ، إلاّ وفي راحَتَيهِ أكْمَلُهَا[6]
لَيسَتْ تَنالُ القيودُ مِن قَدَمي، وفي اتّباعي رِضاكَ، أحمِلُهَا[7]
لا تَتَيَمّمْ، والماءُ تُدرِكُهُ؛ غَيرُكَ يرضَى الصّغرَى ويَقبَلُهَا[8]

---

(١) موثقة: محكمة.

(٢) هل لكما: أي هل لكما رغبة.

(٣) وعت: حفظت. يذهلها: ينسيها. والمعنى: إذا ذكر أبو فراس لها أصابها ذهول، وأصبحت لا تعي ما يقال لها.

(٤) نعلها: نسقاها مرة بعد مرة؛ تقول: عله وأعله: سقاه عللا؛ ويقال عل من الماء: شرب مرة بعد مرة، ولا يتعدى بنفسه. ننهلها: نسقاها السقية الأولى؛ تقول: أنهله: سقاه نهلا؛ ويقال نهل من الماء: شرب أول الشرب، ولا يتعدى بنفسه؛ ومن ذلك قولهم: سقاه عللا بعد نهل. والمراد بهذا البيت والبيت السابق تقلب أحوال الدنيا بين شدة ورخاء؛ وكأنه نظر إلى قول البحتري:

وبعيد ما بين وارد رفه، علل شربه؛ ووارد خمس

(٥) أمثلها: أفضلها. فاعل يود. يقول: إن هؤلاء الرجال الذين استبدلوهم بعدنا للحرب، يتمنى أفضلهم أن يكون له أدنى علاي.

(٦) راحتيه: باطن كفيه.

(٧) يقال نال منه: أصابه بأذى أو مضرة.

(٨) تيمم المسلم: مسح وجهه ويديه بالتراب ليصلي إذا لم يجد ماء يتوضأ به، أما إذا كان الماء موجوداً فيبطل التيمم؛ والمعنى هنا على المجاز. يقول: لا تستبدل بعدنا رجالاً للحرب كهؤلاء، فهم كالتيمم عند امتناع الماء، وأنت بوسعك أن تجد الماء، أي أن تفتدينا، فنغنيك عن هؤلاء الضعاف، وإن غيرك يرضى الخطة الصغرى ويقبلها.

إنّ بَني العَمّ لَستَ تَخلُفُهُمْ؛ إنْ عادَتِ الأُسدُ، عادَ أشبُلُها[1]

أنتَ سَماءٌ، ونحنُ أنجُمُها؛ أنتَ بِلادٌ، ونحنُ أجبُلُها

أنتَ سَحابٌ، ونحنُ وابِلُهُ؛ أنتَ يَمينٌ، ونحنُ أُنمُلُها[2]

بأيّ عُذرٍ رَدَدتَ والِهَةً، علَيكَ، دونَ الوَرى، مُعَوَّلُها![3]

جاءَتكَ تَمتاحُ رَدّ واحِدِها؛ يَنتَظِرُ النّاسُ كيفَ تُقفِلُها[4]

سَمَحتُ منّي بمُهجَةٍ كَرُمَتْ، أنتَ، على يأسِها، مُؤمَّلُها[5]

إنْ كُنتَ لم تَبذُلِ الفِداءَ لها، فلَمْ أزَلْ، في رِضاكَ، أبذُلُها[6]

تِلكَ المَودّاتُ، كيفَ تُهمِلُها؟ تلكَ المَواعيدُ، كيفَ تُغفِلُها؟!

تلكَ العُقُودُ التي عَقَدتَ لَنا، كيفَ، وقد أُحكِمتْ، تُحَلّلُها[7]

أرحامُنا منكَ، لِمْ تُقَطّعُها؟ ولم تَزَلْ، دائباً، تُوَصّلُها![8]

أينَ المَعالي التي عُرِفتَ بها، تَقُولُها، دائماً، وتَفعَلُها؟

---

(١) تخلفهم: تكون خلفاً لهم أو تبقى بعدهم. على أن المعنى يقضي بأن تكون تخلفهم هنا بمعنى تجعلهم لهم خلفاً أي بدلاً. الأسد: أي الأسرى في بلاد الروم. أشبلها: أي أشجعها، وأراد بذلك نفسه. ولعلها: إن عدت الأسد عد أشبلها. وقد وردت عدت في بعض الروايات؛ فيكون المعنى: لا تستطيع أن تخلف بني عمك أي أن تبقى وحدك بعدهم؛ فإنك وإن كنت أسداً فهم أشبالك، ولا تعد الأسود إلا عدت معها أشبالها؛ وأشبُل: جمع شبل.

(٢) الوابل: المطر. الأنمل: الأصابع.

(٣) الوالهة: الشديدة الحزن، ويريد بها والدته. المعول: الاتكال.

(٤) تمتاح: أي تسأل. تقفلها: ترجعها.

(٥) يقول: سمحت بنفسي الكريمة، فبذلتها للأعداء في سبيلك، وأنت موضع أملها مع ما هي عليه من اليأس.

(٦) في رضاك: أي لأجل رضاك.

(٧) العقود: جمع العقد وهو العهد المعقود، والضمان. عقدت: أي عقدتها. أحكمت: أي أتقن عقدها. تحللها يقال حل العقد: نقضه، ولا يقال حلله. ويظهر أنه أخذ العقد هنا بمعنى اليمين المعقودة. يقال حلل يمينه: أي تحلل منها؛ وذلك كما لو حلف الإنسان على الشيء أن يفعله، فيفعل منه اليسير يحلل به يمينه.

(٨) لم: لِمَ، سكنت للشعر ضرورة. دائباً: حال، أي عاملاً جاداً.

يا واسعَ الدّارِ؛ كيفَ تُوسِعُها؟ ونحنُ في صَخرَةٍ نُزَلزِلُها![1]
يا ناعِمَ الثّوبِ؛ كيفَ تُبدِلُهُ؟ ثِيابُنا الصّوفُ ما نُبَدِّلُها!
يا راكِبَ الخَيلِ؛ لو بَصُرتَ بنا، نَحمِلُ أقيادَنا، ونَنقُلُها![2]

الحمامة النائحة

قال، وقد سمع حمامة تنوح على شجرة عالية، وهو في الأسر:

أقولُ، وقد ناحَتْ بقُربي حَمامَةٌ: أيَا جارَتَا، هَل تَشعُرينَ بحالي؟
مَعاذَ الهَوى! ما ذُقتِ طارِقَةَ النّوى، ولا خَطَرَتْ منكِ الهُمومُ بِبالِ[3]
أتَحمِلُ مَحزونَ الفُؤادِ قَوادِمٌ، على غُصُنٍ نائي المَسافَةِ عالِ؟[4]
أيَا جارَتَا، ما أنصَفَ الدّهرُ بَينَنَا، تَعالَيْ، أُقاسِمْكِ الهُمومَ، تَعالي![5]
تَعالَيْ، تَرَيْ روحاً، لديّ، ضَعيفَةً تَرَدَّدُ في جِسمٍ يُعَذَّبُ، بالِ
أيَضحَكُ مأسُورٌ، وتَبكي طَليقَةٌ، ويَسكُتُ مَحزونٌ، ويَندُبُ سالِ؟
لقَد كنتُ أولى منكِ بالدّمع مُقلَةً؛ ولكنّ دَمعي، في الحَوادثِ، غالِ!

رسائل الحبيب:

يا لَيلُ، ما أغفَلَ عَمّا بي حَبائبي، فيكَ، وأحبابي[6]

---

(١) في صخرة: أي مع صخرة. والمعنى أنهم يشغلون بقلع الحجارة؛ أو أن في بمعنى إلى؛ فيكون المراد أنهم مشدودون بالحبال إلى صخرة، فلا يطيقون مشياً إلا إذا زلزلوا هذه الصخرة، وجروها وراءهم.

(٢) الأقياد: جمع القيد كالقيود.

(٣) المعاذ: الملجأ، وقوله معاذ الهوى: أي أعيذ الهوى منك معاذاً، أي أعصمه عصمة وأحفظه حفظاً.

(٤) القوادم: عشر ريشات في مقدم جناح الطائر، وهي كبار الريش، مفردها قادمة. يقول: لو كنت حزينة الفؤاد لأصابك ضعف وفتور، ولما حملتك قوادمك على هذه الشجرة العالية.

(٥) الهموم: أي همومي. تعالى الثانية: كسر اللام فيها لغة.

(٦) أغفل: يقال أغفله عن الشيء: جعله يغفل عنه.

يا لَيلُ، نامَ النَّاسُ عن موجَعٍ ناءٍ، على مَضجَعِهِ، نابِ[1]
هَبَّتْ لَهُ ريحٌ شآميَّةٌ، مَتَّتْ إلى القَلبِ بأسبابِ[2]
أدَّتْ رِسالاتِ حَبيبٍ لَنا، فَهِمتُها من بَينِ أصحابي

وصف الحمى

من قصيدة يصف بها الحمى التي أصابته في مصر ويعرض بالرحيل عن مصر سنة ٩٥٩م (٣٤٨هـ):

وزائرَتي كأنَّ بها حَياءً فلَيسَ تَزورُ إلاَّ في الظَّلامِ[3]
بذَلتُ لها المَطارِفَ والحَشايا فَعافَتها وباتَتْ في عِظامي[4]
يَضيقُ الجِلدُ عَن نَفسي وعَنها فتُوسِعُهُ بأنواعِ السَّقامِ
كأنَّ الصّبحَ يَطرُدُها فتَجري مَدامِعُها بأربَعَةٍ سِجامِ[5]
أُراقِبُ وَقتَها مِنْ غيرِ شَوقٍ مُراقَبَةَ المَشوقِ المُستَهامِ[6]
ويَصدُقُ وعدُها والصِّدقُ شرٌّ إذا ألقاكَ في الكُرَبِ العِظامِ
أبِنتَ الدّهرِ عندي كلُّ بِنتٍ فكيفَ وَصَلتِ أنتِ من الزِّحامِ[7]
جَرَحتِ مُجَرَّحاً لم يَبقَ فيهِ مَكانٌ للسّيوفِ ولا السّهامِ

---

(١) ناء: بعيد، أي بعيد عن وطنه وأهله. على مضجعه: الجار متعلق بمحذوف أي مستقر. ناب: غير مطمئن ولا مستريح؛ يقال نبا عن فراشه: لم يطمئن ولم يجد الراحة عليه.

(٢) متت: يقال مت إليه بصلة أو قرابة: توصل إليه. الأسباب: الحبال، والمراد بها الصلات التي بلغت بها الريح إلى قلب الشاعر، وهي أنها ذكرته بأحبته في الشام.

(٣) وزائرتي: الواو واو رب، أي وزائرة لي. وأراد بالزائرة الحمى لأنها كانت تأتيه ليلاً وتفارقه في الصباح.

(٤) المطارف، جمع مطرف: رداء من خز. الحشايا، جمع حشية: الفراش المحشو. عافتها: أبتها.

(٥) سجام: منسكبة بأربعة: أي بأربعة أدمع، يعني تبكي من طرفي كل عين لكثرة دمعها.

(٦) المراد يفكر فيها منتظراً مجيئها لخوفه منها، كما يفكر العاشق في محبوبته منتظراً قدومها.

(٧) بنت الدهر: الشدة.

ألا يا لَيتَ شِعرَ يَدي أتُمسِي تَصَرَّفُ في عِنانٍ أو زِمامِ[1]
وهلْ أرمي هَوايَ براقصاتٍ مُحَلاّةِ المَقاوِدِ باللُّغامِ[2]
فرُبَّتَما شَفَيتُ غَليلَ صَدري بسَيرٍ أو قَناةٍ أو حُسامِ[3]
وضاقَتْ خُطّةٌ فخَلَصتُ منها خَلاصَ الخمرِ من نَسجِ الفِدامِ[4]
وفارَقتُ الحَبيبَ بلا وَداعٍ، ووَدّعتُ البلادَ بلا سَلامِ[5]
يَقولُ ليَ الطّبيبُ أكَلتَ شَيئاً، وداؤكَ في شَرابِكَ والطّعامِ
وما في طِبّهِ أنّي جَوادٌ، أضَرَّ بجِسمِهِ طُولُ الجَمامِ[6]
تَعَوّدَ أن يُغَبِّرَ في السّرايا، ويَدخُلَ مِن قَتامٍ في قَتامِ[7]
فأُمسِكَ لا يُطالُ لَهُ فيَرعَى، ولا هوَ في العَليقِ ولا اللّجامِ[8]
فإن أمرَضْ فما مَرِضَ اصطباري، وإنْ أُحمَمْ فما حُمّ اعتِزامي[9]
وإنْ أسلَمْ فَما أبقَى، ولكِنْ سَلِمتُ منَ الحِمامِ إلى الحِمامِ[10]
تَمَتّعْ مِن سُهادٍ أو رُقادٍ، ولا تأمُلْ كرًى تحتَ الرِّجامِ[11]
فإنّ لثالِثِ الحالَينِ مَعنًى سوى معنى انتباهِكَ والمَنامِ[12]

---

(١) ليت شعر يدي: أي ليت يدي تشعر. العنان: سير اللجام. الزمام: المقود. يتمنى السفر على الخيل أو على الإبل.
(٢) الراقصات: الإبل التي تخب في سيرها. اللغام: الزبد على فم البعير. يقول: هل أطلب ما أهواه من الأمور براقصات تحلت مقاودها بالزبد الذي على أفواهها.
(٣) ربتما مثل ربما دخلت عليها التاء.
(٤) الخطة: الأمر. الفدام: ما يجعل على فم الإبريق، لتصفية الخمر.
(٥) بلا وداع: أي بعجلة. بلا سلام: لأنه لم يرجع إليها.
(٦) الجمام الراحة.
(٧) السرايا: جمع سرية، وهي القطعة من الجيش. القتام: الغبار.
(٨) لا يصال: لا يرخى له الحبل، وهو الحبل الذي تشد به قائمة الدابة، ويكون طويلاً لترعى. في العليق: أي لا يقرب له العليق. في اللجام: أي لا يوضع له اللجام للسفر.
(٩) أحمم: أصاب بالحمى.
(١٠) سلمت من الحمام إلى الحمام: أي لا بد من الموت.
(١١) السهاد: السهر. الكرى: النعاس، وقد يراد به النوم. الرجام: حجارة توضع فوق القبور واحدتها رجمة.
(١٢) ثالث الحالين: الموت، وحاله غير حال السهر وحال النوم.

ابـــن الرومـــي

ذكريـات الشبـاب:

من قصيدة يمدح بها عبيدالله بن عبدالله بن طاهر:

يُـذَكّـرُنـي الـشّـبـابَ هَـوانُ عَـتـبـي، وصَـدُّ الـغـانـيـاتِ لـدى عِـتـابـي[1]

يُـذَكّـرُنـي الـشّـبـابَ سِـهـامُ حَـتْـفٍ، يُـصِـبـنَ مَـقـاتِـلـي دونَ الإهـابِ[2]

رَمَـتْ قَـلـبـي بـهِـنّ، فـأقـصَـدتَـهُ طُـلُـوعُ الـنّـبـلِ مِنْ خَـلَـلِ الـنّـقـابِ[3]

فَـراحَـتْ، وهـيَ فـي بـالٍ رَخـيٍّ؛ ورُحـتُ بـلَـوعـةٍ مـثـلَ الـشّـهـابِ[4]

ولـو شَـهِـدَ الـشّـبـابُ، إذنْ لـراحـتْ وإنّ بـهـا، وعَـيشِكَ، ضِعفَ ما بـي[5]

يُـذَكّـرُنـي الـشّـبـابَ جِـنـانُ عَـدْنٍ، عـلـى جَـنَـبـاتِ أنـهـارٍ عِـذابِ[6]

---

(١) يقول: يذكره الشباب قلة احتفاء الحسان به، فقد هان عليهن عتابه، وإذا عاتبهن، أعرضن عنه.

(٢) الحتف: الموت. الإهاب: الجلد. والمراد بسهام الحتف ما ترسله الحسناء من نظراتها، فتصيب منه موضع القتل في قلبه، دون أن تخترق جلد البدن.

(٣) أقصده السهم: أصابه فقتله في مكانه. طلوع: كثيرة الطلوع، وهو فاعل رمت. الخلل: المنفرج ما بين الشيئين. النقاب: القناع على طرف الأنف تستر به المرأة وجهها، وتبدي عينيها. المعنى: أن نبال عينيها تطلع من خلل نقابها أي من فرجته بين الأنف وأعلى الرأس.

(٤) البال الرخي: أي الحال الحسنة المتسعة السهلة. الشهاب: شعلة النار الساطعة.

(٥) شهد: حضر.

(٦) جنان عدن: أي جنان إقامة يعني حيث تطيب الإقامة؛ يقال عدن بالمكان عدناً: أقام؛ وجنة عدن في الأصل: هي الموضع الذي وضع الله فيه آدم، ولا يعلم مكانها.

تُفَيِّىءُ ظِلَّها نَفَحاتُ ريحٍ، تَهُزُّ مُتونَ أغصانٍ رِطابِ[1]
إذا ماسَتْ ذَوائِبُها، تَداعَتْ بَواكي الطيرِ، فيها، بانتِحَابِ[2]
يُذَكِّرُني الشبابَ رِياضُ حَزنٍ، تَرَنَّمُ، بَينَها، زُرقُ الذُّبابِ[3]
إذا شَمسُ الأصائلِ عارَضَتها، وقد كَرَبَتْ تَوارَى بالحِجابِ[4]
وألقَتْ، جُنحَ مَغرِبِها، شُعاعاً مَريضاً مثلَ ألحاظِ الكَعابِ[5]
يُذَكِّرُني الشبابَ سَراةُ نِهْيٍ نَميرِ الماءِ، مُطَّرِدِ الحَبابِ[6]
قَرَتْهُ مُزنَةٌ بِكْرٌ، وأضحَى تُرَقرِقُهُ الصَّبا مِثلَ السَّرابِ[7]
على حَصباءَ، في أرضٍ هِجانٍ، كأنَّ تُرابَها ذَفِرُ المَلابِ[8]

---

(١) تفييء ظلها: تحركه، يقال فيأت الريح الزرع والشجر: حركتهما؛ وقوله تفييء ظلها: لأن الريح تحرك الأغصان فيتحرك ظلها معها. المتون: الظهور.
(٢) ذوائبها: أي أعالي الأغصان.
(٣) الحزن: ضد السهل من الأرض. زرقُ الذباب: هي ضرب من الذباب المغني، أزرق اللون يألف الرياض والكلأ ويلحق بالقواف فيغمس خراطيمه في لحم الإبل، فيخرق الجلود الغلاظ حتى ينزف الدم نزفاً؛ ويقال له الشعراء؛ ومنه أحمر اللون. ومن أقوال القوافل: بادروا قبل أن تتحرك ذبان الرياض والكلأ.
(٤) الأصائل، جمع الأصيل: الشعيء. عارضتها: قابلتها، وضمير النصب يرجع إلى الرياض. كربت: كادت. الحجاب: الأفق، أي كادت الشمس تختفي بالأفق. والمراد أن الرياض تذكره الشباب إذا شمس الأصائل عارضتها عند المغيب.
(٥) جنح مغربها: أي أوله. الكعاب: الناهد. يقال لألحاظ الحسان مريضة وضعيفة لانكسار أجفانهن، ورقة نظراتهن.
(٦) السراة: أعلى الطريق ووسطه، والمراد هنا: الطريق على الإطلاق. النهي: الغدير. النمير: الماء العذب الناجع. مطرد: متتابع. الحباب: نفاخات الماء التي تعلوه.
(٧) قرته: جمعته، يقال قرى الماء في الحوض: أي جمعه. المزنة: القطعة من السحاب فيها ماء. البكر: السحابة الغزيرة. ترقرقه: تحركه حتى يجيء ويذهب ويتلألأ ويلمع. الصبا: الريح الشرقية. السراب: ما تراه في نصف النهار من اشتداد الحر كالماء يلصق بالأرض؛ يقال: ترقرق السراب.
(٨) الهجان: الأرض الكريمة. الذفر: ذو الرائحة الطيبة. الملاب: ضرب من الطيب.

لَـهُ حُـبُـكٌ، إذا اطّـرَدَتْ عـلَـيـهِ، قـرأتَ بـهـا سُـطـوراً فـي كِـتـابِ[1]

تُـذَكّـرُنـي الـشّـبـابَ صَـبـاً بَـلـيـلٌ، رَسـيـسُ الـمَـسّ، لاغِـبَـةُ الـرّكـابِ[2]

أتَـتْ مـن بـعـدِ مـا انـسـحَـبـتْ مَـلـيّـا، عـلـى زَهـرِ الـرُّبَـى، كُـلَّ انـسِـحـابِ[3]

وقـد عَـبِـقَـتْ بـهـا رَيّـا الـخُـزامَـى، كَـرَيّـا الـمِـسـكِ، ضُـوّعَ بـانـتِـهـابِ[4]

يُـذَكّـرُنـي الـشّـبـابَ ومـيـضُ بَـرقٍ، وسَـجـعُ حَـمـامَـةٍ، وحَـنـيـنُ نـابِ[5]

فـيـا أسَـفـا، ويـا جَـزَعـا عَـلـيـهِ! ويـا حَـزَنـا إلـى يـومِ الـحِـسـابِ![6]

أأُفْـجَـعُ بـالـشّـبـابِ ولا أُعَـزّى؟ لـقـد غَـفَـلَ الـمُـعَـزّي عـن مُـصـابـي

وجه عمرو

قال يهجو عمراً النصراني، ويستدل من أهاجيه له أنه كان حاجب الوزير، وكان يمنع ابن الرومي فلا يأذن له بالدخول:

وَجـهُـكَ، يـا عَـمـرُو، فـيـه طِـولُ؛ وفـي وُجُـوهِ الـكِـلابِ طُـولُ

مَـقـابِـحُ الـكَـلْـبِ فـيـكَ طُـرّاً، يَـزولُ عَـنـهـا، ولا تَـزولُ

---

(١) له: أي للنهي. الحبك: تجعد الماء وتكسره، واحدتها حبيكة. اطردت: تتابعت، والفاعل يعود إلى الصبا. بها: أي بهذه الحبك.

(٢) الصبا: الريح الشرقية. البليل: التي ابتلت بالماء وبردت. رسيس المس: لينة المس، يقال ريح رسيس. لاغبة: تعبة. الركاب: الإبل، واحدتها راحلة. يقال من المجاز: الرياح اللواغب، أي المتعبة لطول سيرها، ولأن الريح تشبه بالإبل، فيقال لها ركاب السحاب.

(٣) ملياً: زمناً طويلاً.

(٤) الريا: الرائحة الطيبة. الخزامى: نبت أو خيري البر، زهره أطيب الأزهار نفحة. والخيري: المنثور الأصفر. ضوع: هيجت رائحته. والمراد: انتهبت الأيدي هذا المسك فهيجت رائحته. يقال ضاعت الرائحة: سطعت وانتشرت.

(٥) الناب: الناقة المسنة. والمراد: وميض البرق مبشراً بالمطر والخضرة وشباب الطبيعة، وسجع الحمامة إلى إلفها، وحنين الناقة إلى أولادها.

(٦) يوم الحساب: يوم القيامة.

وفيهِ أشياءُ صالحاتٌ، حَمَاكَها اللّهُ والرّسولُ:
فالكَلبُ وافٍ، وفيكَ غدرٌ، فَفيكَ عَن قَدرِهِ سُفُولُ
وقد يُحامي عنِ المَواشي، وما تُحامي ولا تَصولُ
وأنتَ مِن أهلِ بَيتِ سَوءٍ، قِصّتُهُمْ قِصّةٌ تَطُولُ
وُجوهُهُمْ للوَرى عِظاتٌ، لكِنّ أقفاءَهُمْ طُبُولُ
نَستَغفِرُ اللّهَ، قد فَعَلنا ما يَفعَلُ المائِق الجَهُولُ
ما إنْ سألناكَ ما سألنا، إلاّ كَما تُسألُ الطُّلُولُ
صَمّتْ وعَيّتْ، فلا خِطابٌ، ولا كتابٌ، ولا رَسُولُ
مُستَفعِلُنْ فاعِلُنْ فَعُولُ، مُستَفعِلُنْ فاعِلُنْ فَعُولُ
بَيتٌ كَمَعناكَ، لَيسَ فيهِ مَعنًى، سِوى أنّهُ فُضُولُ

أبو العلاء المعري

ضحكة القبر

غيرُ مُجدٍ في مِلّتي واعتِقادي، نوحُ باكٍ، ولا تَرَنُّمُ شادِ
وشَبيهٌ صَوتُ النّعيّ، إذا قِيـ ـسَ، بصَوتِ البَشيرِ في كلّ نادِ
أبَكَتْ تِلْكُمُ الحَمامةُ، أم غَـ ـنّتْ على فَرعِ غُصنِها المَيّادِ؟
صاحِ هذي قُبورُنا تَملأُ الرُّحْـ ـبَ، فأينَ القُبورُ من عَهدِ عادِ؟
خَفّفِ الوَطءَ ما أظُنُّ أديمَ الـ أرضِ إلاّ مِن هذِهِ الأجسادِ
وقَبيحٌ بنا، وإنْ قَدُمَ العَهْـ ـدُ، هَوانُ الآباءِ والأجدادِ
سِرْ، إن اسطَعتَ، في الهواءِ رُوَيداً، لا اختِيالاً على رُفاتِ العِبادِ
رُبّ لحدٍ، قد صارَ لحداً مِراراً، ضاحِكٍ مِن تَزاحُمِ الأضدادِ
ودَفينٍ على بَقايا دَفينٍ، في طَويلِ الأزمانِ والآبادِ
تَعَبٌ كُلُّها الحَياةُ، فَما أعْـ ـجَبُ إلاّ مِن راغِبٍ في ازدِيادِ
إنّ حُزناً، في ساعةِ الموتِ، أضعا فُ سرورٍ في ساعةِ الميلادِ
خُلِقَ النّاسُ للبَقاءِ، فضَلّتْ أُمّةٌ يَحسَبُونَهُمْ للنّفادِ
إنّما يُنقَلونَ مِن دارِ أعما لٍ إلى دارِ شِقوَةٍ أو رَشادِ
ضَجعةُ المَوتِ رَقدَةٌ يَستريحُ الـ جسمُ فيها، والعَيشُ مثلُ السُّهادِ

❀ ❀ ❀

بانَ أمرُ الإلَهِ، واختَلَفَ النّا سُ، فَداعٍ إلى ضَلالٍ وهادِ
والذي حارَتِ البَرِيّةُ فيهِ، حَيَوانٌ مُستَحدَثٌ مِن جَمادِ
واللّبيبُ اللّبيبُ مَن لَيسَ يَغْـ ـتَرُّ بكَونٍ مَصيرُهُ للفَسادِ

رسالة الغفران

آراء في النقد

مع عدي بن زيد:

فيقول لعبيد: «ألك علم بعديّ بن زيد العِباديّ؟» فيقول: «هذا منزله قريباً منك». فيقف عليه، فيقول: «كيف كانت سلامتك على الصراطِ؟» فيقول: «إنّي كنت على دين المسيح، ومَن كان من أتباع الأنبياء قبل أن يُبعث محمد فلا بأس عليه، وإنّما التّبِعة على من سجد للأصنام».

فيقول الشيخ: «لقد هممت أن أسألك عن بيتك الذي استشهد به سيبويه وهو قولك:

أرَوَاحٌ مُـــوَدِّعٌ أم بُـــكُـــورُ أنـت فـانـظـرْ لأيّ حـال تـصـيـرُ

فإنّه يزعُم أن «أنت» يجوز أن تُرفع بفعل مضمر يفسره قولك: فانظر، وأنا أستبعد هذا المذهب ولا أظنّك أردته» فيقول عدّي بن زيد: «دعني من هذه الأباطيل!

ولكني كنت في الدار الفانية صاحب قَنَص، فهل لك أن نركب فرسين من خيل الجنّة، فنبعثهما على صِيرانها، وخيطان[1] نعامها، وأسراب ظبائها وعانات[2] حُمُرها، فإن للقنيص لذّة!» فيقول الشيخ: «إنّما أنا صاحب قلم، ولم أكن صاحب خيل!».

ملاحاة النابغة الجعدي والأعشى:

ويقول نابغة بني جعدة، وهو جالس يستمع: «يا أبا بصير! أهذه الرّباب التي ذكرها السعدي هي ربابكَ التي ذكرتها في قولك:

(١) الصيران: جمع صيار وهي لغة في صوار، والصوار بالضم ويكسر: القطيع من بقر الوحش.
(٢) الخيطان: جماعات النعام.
(٣) العانات، جمع العانة: القطيع من حمر الوحش.

فـمـا نـطـق الـديـكُ حـتـى مـلأتُ   كـوب الـرّبـاب لـه، فـاسـتـدارًا»

فيقول أبو بصير: «قد طال عمرك يا أبا ليلى، وأحسبُك أصابك الفَنَدُ[1]، فبقيت على فنَدِك إلى اليوم! أما علمتَ أن اللواتي يسمَّين بالرّباب أكثر من أن يحصَين؟ أفتظنّ أنّ الرّباب هذه هي التي ذكرها القائل:

مـا بـالُ قـومِـكِ يـا ربـابُ   خُـزراً كـأنّـهُـمُ غـضـابُ[2]

أو التي ذكرها أمرؤ القيسِ في قوله:

دار لـهـنـدٍ والـربـابِ وفَـرتَـنـي   ولـمـيـسَ، قـبـل حـوادث الأيّـام»

فيقول نابغة بني جعدة: «أتكلّمني بمثل هذا الكلام يا خليعَ بني ضُبَيعة، وقد متَّ كافراً وأقررتَ على نفسك بالفاحشة، وأنا لقيتُ النبيّ ﷺ، فأنشدته كلمتي التي أقول فيها:

بـلـغـنـا الـسَّـمـاءَ مـجـدُنـا وسـنـاؤنـا،   وإنّـا لـنـبـغـي فـوقَ ذلـك مَـظـهَـرا

فقال لي: «إلى أين يا أبا ليلى؟» فقلت: «إلى الجنّة بك يا رسول الله!» فقال: «لا يفضُض الله فاك!»

أغرّك أن عدّك بعض الجهّال رابع الشعراء الأربعة، وكذب مفضّلك، وإنّي لأطول منك نفَساً، وأكثر تصرّفاً، ولقد بلغت، بعدد البيوت، ما لم يبلغْه أحدٌ من العرب قبلي، وأنت لاهٍ بعَفارَتك[3] تفتري على كرائم قومك، وإن صدقتَ فخزياً لك ولمُقارّك[4]».

فيغضب أبو بصير، فيقول: «أتقول هذا وإن بيتاً ممّا بنيتُ ليُعدَلُ بمائة من بنائك؟ وإن أسهبت في منطقك، فإن المُسهب كحاطب الليل. وإنّي لفي

(١) الفند: الخرف.
(٢) الخزر: المصابون بضيق العين.
(٣) العفارة: الخبث والنكر.
(٤) مقارك: مخالطك.

الجرثومة من ربيعة الفرس، وهل جعدة إلاّ رائدة ظليم[١] نفورٍ؟ أتعَيّرني مدح الملوك يا جاهل؟ ولو قدرتَ على ذلك لهجرتَ إليه أهلك وولدَك. ولكنّك خُلقت جباناً، لا تُدلجُ في الظلماءِ الداجية، ولا تهجّرُ في الوديقة[٢] الصاخدة[٣]».

فيقول الجعديّ: «اسْكُتْ يا ضُلّ بنَ ضُلّ، فأقسم ان دخولك الجنّة من المنكرات، ولكن الأقضية جرت كما شاء الله! لحقُّك أن تكون في الدّرك الأسفل من النار، ولقد صلي بها من هو خير منك. ولو جاز الغلط على ربّ العزّة. لقلت: إنّك غُلط بك.

واستقللتَ بني جعدة، وليومٌ من أيّامهم يرجِع بمساعي قومك! وزَعمتَني جباناً وكذبت، لأنا أشجع منك ومن أبيك، وأصبر على ادلاج المُظلمة ذات الأريز[٤]، وأشدّ ادلاجاً في الهاجرة أمّ الصَّخَدان!».

ويثب نابغة بني جعدة على أبي بصير، فيضربه بكوز من ذهب. فيقول الشيخ، أصلح الله به. «لا عربَدَةَ في الجنان، إنّما يعرف ذلك بين السِّفْلة والهَجاج[٥]، وإنّك يا أبا ليلى لمتَترّعٌ[٦]. ولولا أنّ في الكتاب الكريم: «لا يُصدَّعون عنها ولا يُنزِفون» لظننّاك أصابك نزْفٌ في عقلك». ويريدُ أن يُصلح بين الندماء، فيقول: «يجب أن يُحذر من ملَك يعبرُ، فيرى هذا المجلسَ، فيرفعُ حديثه إلى الجبار الأعظم، فلا يجرّ ذلك إلاّ إلى ما تكرهان».

واستغنى ربّنا أن تُرفَعَ الأخبار إليه؛ ولكن جرى ذلك مجرى الحَفَظة في الدار العاجلة. أما علمتما أن آدم خرج من الجنّة بذنبٍ حقير! فغير آمنٍ مَن وُلد أن يُقدَر له مثل ذلك! فسألتك بالله يا أبا بصير: هل يهجِس لك

---

(١) الظليم: ذكر النعام، والمراد طالبة نسب نفور منها.

(٢) الوديقة: شدة الحر.

(٣) الصاخدة: الشديدة القيظ.

(٤) الاريز: الصقيع.

(٥) الهجاج: الحمقى.

(٦) متترع: مسرع إلى ما لا تحمد عقباه.

تمني المدام؟» فيقول: «كلاّ والله، إنّها عندي كمثل المَقِر، لا يخطُرُ ذكرها بالخلد، فالحمد لله الذي سقاني عنها السُلوانة[1]».

فيقول: «يا أبا ليلى! إن الله، جلّت قدرته، مَنّ علينا بهؤلاء الحور العِينِ اللواتي حوّلهنّ عن خلق الإوزّ، فاختر لنفسك واحدة منهنّ، فلتذهب معك إلى منزلك تلاحنك أرقّ اللّحان، وتسمعك ضروب الألحان».

فيقول لبيد بن ربيعة: «إن أخذ أبو ليلى قينةً، وأخذ غيره مثلها، أليس ينتشر خبرُها في الجنّة؟ فلا يُؤمَن أن يسمّى فاعلو ذلك: أزواجَ الاوزّ».

فتُضرب الجماعة عن اقتسام أُولئك القيان.

مدح رضوان:

فلمّا أقمتُ في الموقف زُهاء شهرٍ أو شهرين، وخِفتُ من الغرق، في العرق، زيّنَت لي النفس الكاذبة أن أنظم أبياتاً في رِضوانَ، خازن الجنان، عمِلتها في وزن: «قفا نبكِ من ذكرى حبيب وعِرفان» ووسمتها برِضوان، ثمّ ضانكتُ النّاس حتى وقفت منه بحيث يسمع ويرى، فما حفَل بي، ولا أظنّه أبِه لما أقول، فغبرتُ[2] برهة نحو عشَرة أيّام من أيّام الفانية، ثمّ عملت أبياتاً في وزن:

بـانَ الـخـلـيـطُ ولـو طُـوِّعْـتَ مـا بـانـا   وقـطّـعـوا مـن حِـبـال الـوصـل أقـرانـا

ووسمتها برضوان، ثمّ دنوت منه، ففعلت كفعلي الأوّل، فكأنّي أُحرّك ثبيراً، وألتمس من العِضرم[3] عبيراً، فلم أزل أتتبّع الأوزان التي يمكن أن يوسم بها رضوان حتى أفنيتها، وأنا لا أجد عنده مغوثةً، ولا ظننته فهم ما أقول، فلمّا استقصيتُ الغرض فما أنجحتُ، دعوت بأعلى صوتي: «يا رضوان! يا أمين الملك الجبّار الأعظم على الفراديس! ألم تسمع ندائي بك،

---

(١) السلوانة: العسل.

(٢) غبرت: أي مكثت.

(٣) العضرم: تراب يشبه الجص.

واستغاثتي إليك؟» فقال: «لقد سمعتك تذكر رضوان وما علمت مقصِدَك، فما الذي تطلبُهُ أيّها المسكين؟» فأقول: «أنا رجل لا صبر لي على اللُّواب[1]، وقد استطلت مدّة الحساب، ومعي صك بالتوبة، وهي للذّنوب كلّها ماحية، وقد مدحتُك بأشعار كثيرة ووسمتُها باسمك» فقال: «وما الأشعار؟» فقلت: «الأشعار جمع شعر، والشعر كلامٌ موزون تقبله الغريزة على شرائط إن زاد أو نقص أبانَه الحسّ، وكان أهلُ العاجلة يتقرّبون به إلى الملوك والسادات فجئتُ بشيءٍ منك إليك، لعلّك تأذن لي بالدخول في هذا الباب، فقد استطلتُ ما النّاسُ فيه، وأنا ضعيفٌ منينٌ[2] ولا ريب أنّي ممّن يرجو المغفرة، وتصحّ له بمشيئة اللّهِ تعالى» فقال: «إنّك لغبينُ الرأي، أتأملُ أن آذن لك بغير إذنٍ من ربّ العزّة؟ هيهات هيهات! وأنّى لهم التناوشُ[3] من مكانٍ بعيدا!»

مع امرىء القيس

ويسأل عن امرىء القيس بنِ حُجْرٍ، فيقول: «يا أبا هندٍ أخبرني عن التسميط[4] المنسوب إليك، أصحيحٌ هو عنك؟»

ويُنشدُه الذي يرويه بعض النّاسِ:

يا قَومِ إنّ الهَوَى إذا أصابَ الفتى
في القلبِ ثمّ ارتقَى فهَدّ بَعضَ القُوى
فقَد هَوَى الرّجلُ

فيقول: «واللّهِ ما سمعتُ هذا قطّ، وإنّه لقَرِيّ[5] لم أسلكه، وإن الكذِب لكثيرٌ، وأحسبُ هذا لبعض شعراء الإسلام، ولقد ظلمني وأساء إليّ، أبَعْد كلمتي التي أوّلها:

---

(١) اللواب: العطش.

(٢) المنين: الضعيف.

(٣) التناوش: التناول.

(٤) التسميط: ضرب من الشعر المخمس، أجزاؤه على غير روي القافية.

(٥) القري: مسيل الماء من الربوة، ويكنى به عن الأمر الصغير.

ألا عِم صباحاً أيّها الطّلَلُ البالي وهل يَعمَنَ من كان في العُصُر الخالي

وقولي:

خليليّ مرّا بي على أمّ جُندَبِ لأقضيَ حاجاتِ الفؤادِ المعذّبِ

يُقال لي مثل ذلك؟ والرّجزُ من أضعف الشعر، وهذا الوزنُ من أضعف الرّجَز!». فيعجب لما سمعهُ من امرىء القيس.

مع عنترة:

وينظر، فإذا عنترةُ متلدّدٌ[1] في السعير، فيقول: «ما لك يا أخا عيس! كأنّك لم تنطق بقولك:

ولقد شربتُ منَ المُدامَةِ بَعدَما ركَدَ الهواجرُ بالمَشوفِ المُعلَمِ[2]
بزُجاجةٍ صفراء ذاتِ أسِرّةٍ قُرِنَت بأزهرَ في الشمالِ مُفدَّمِ[3]

وإنّي إذا ذكرتُ قولك: «هل غادر الشعراء من متردَم» لأقول: «إنّما قيل ذلك وديوان الشعر قليلٌ محفوظٌ، فأمّا الآن فلو سمعتَ ما قيل بعد مَبعث النبيّ ﷺ، لعَتَبتَ نفسك على ما قلت، وعلمتَ أن الأمر كما قال حبيبُ بنُ أوس[4]:

فلو كان يَفنى الشّعرُ أفناه ما قَرَتْ حِياضُك منه في العصور الذواهبِ[5]
ولكنّه صوبُ العقول، إذا انجلت سحائب منه أُعقِبَتْ بسحائبِ

فيقول: «وما حبيبُكم هذا؟» فيقول: شاعرٌ ظهر في الإسلام» وينشده

---

(١) متلدد: متحير يتلفت يميناً وشمالاً.

(٢) ركد: سكن. الهواجر، جمع الهاجرة: شدة الحر قرب الظهر. المشوف: المجلو، قوله المشوف المعلم أي الدينار.

(٣) ذات اسرة: ذات خطوط. ازهر: أي ابريق أبيض. في الشمال: أي مبرد بريح الشمال. مفدم: أي مسدود بمصفاة لتصفيته.

(٤) أبو تمام.

(٥) قرت: جمعت.

شيئاً من نظمه، فيقول: «أمّا الأصل فعربيّ، وأمّا الفرع فنَطق به غبيّ، وليس هذا المذهبُ على ما تعرف قبائلُ العرب». فيقول، وهو ضاحكٌ مستبشرٌ: «إنّما يُنكَر عليه المستعار، وقد جاءت العاريّة في أشعار كثيرة من المتقدّمين، إلاّ أنّها لا تجتمع كاجتماعِها فيها نظَمَه حبيبُ بنُ أوسٍ.

ولقد شقّ عليّ دخولُ مثلك إلى الجَحيم، وكأنّ أُذني مُصغيةٌ إلى قينات الفسطاط وهي تغرّدُ بقولك:

أمِن سُمَيّة دمعُ العينِ تذريفُ ... لو أنّ ذا منكِ، قبلَ اليومِ، معروفُ»

مع عمرو بن كلثوم:

فليت شعري، ما فعلَ عمرو بنُ كلثومٍ؟

فيقال: «ها هو ذا من تحتكَ، إن شئتَ أن تُحاورَه فحاوِره».

فيقول: «كيف أنت أيّها المصطبِحُ[١] بصحن الغانية، والمُغتَبِقُ[٢] من الدنيا الفانية! لوَددتُ أنّك لم تُساند[٣] في قولك:

كأنّ مُتونهنّ مُتونُ غُدْرٍ ... تُصَفّقُها الرّياحُ إذا جَرَيْنا[٤]»

فيقول عمرو: «إنّك لقرير العين، لا تشعر بما نحن فيه، فاشغل نفسَك بتمجيد الله، واترك ما ذهب فإنّه لا يعود. وأمّا ذِكرك سِنادي فإن الإخوة ليكونون ثلاثةً أو أربعةً، ويكونُ فيهِم الأعرجُ والأبخقُ[٥] فلا يُعابون بذلك، فكيفَ إذا بلغوا المائةَ في العدد؟».

---

(١) المصطبح: الذي يشرب الخمر صباحاً، يشير إلى قول عمرو في أول معلقته:

الا هبي بصحنك فاصبحينا ... ولا تبقي خمور الأندرينا

(٢) المغتبق: الشارب مساء.

(٣) لم تساند: أي لم تأت بالسناد في شعرك.

(٤) غدر: مخفف غدر، جمع غدير. السناد هنا في فتح الراء قبل الياء الساكنة في قوله جرينا.

(٥) الأبخق: الأعور القبيح العور.

جنة الرجز

ويمرّ بأبيات ليس لها سُمُوق[1] أبيات الجنّة، فيسأل عنها، فيقال: «هذه جنّة الرُّجز» فيقول: «تبارك العزيز الوهّاب، لقد صدق الحديث المَرويّ: «إنّ الله يُحبّ معالي الأمور ويكره سَفْسافَها» وإن الرّجزَ لمن سَفساف القريض؛ قصّرتم أيّها النّفَرُ فقُصّرَ بكم!».

ويعرض له رؤبة[2] فيقول: «يا أبا الجحّاف! ما كان أكلفك بقوافٍ ليست بالمُعجبة، تصنع رَجَزاً على الغين، ورجزاً على الطاء، وعلى الظاء، وعلى غير ذلك من الحروف النافرة، ولم تكن صاحبَ مثلٍ مذكور، ولا لفظٍ يُستَحسن!» فيغضَبُ رؤبة ويقول: «ألي تقول هذا؟ وعنى أخذ الخليل وكذلك أبو عمرو بن العلاء، وقد غبَرتَ[3] في الدار السالفة تفتخر باللفظة تقعُ إليك، ممّا نقله أولئك عنّي وعن أشباهي؟» فإذا رأى ما في رؤبة من الانتخاء[4] قال: «لو شبِك رَجزُك ورجز أبيك لم تخرُج منه قصيدة مُستَحسنَة، ولقد كنت تأخذ جوائز الملوك بغير استحقاق، وإنّ غيرك أولى بالأعطية والصّلات» فيقول رُؤبة: «أليس رئيسُك في القديم، والذي ضَهَلَتْ[5] إليه المقاييس، كان يستشهد بقولي ويجعَلني له كالإمام؟».

فيقول: «لا فخرَ لك أن استُشهدَ بكلامك، فقد وجدناهم يستشهدون بكلام أمَةٍ وكعاء[6]، وكم روى النّحاةُ عن طفل ما له في الأدب» فيقول رؤبة: «أجئت لخصامِنا في هذا المنزل؟ فامضِ لطيّتك، فقد أخذتَ بكلامنا ما شاء الله» فيقول: «أقسمتُ ما يصلحُ كلامُكم للثناء، تصكّون مسامع المُمتدَح بالجندل، ومتى خرجتم عن صفة جمل ترثون له من طول العمل،

---

(١) سموق: ارتفاع.

(٢) رؤبة بن العجاج.

(٣) غبرت: ظللت.

(٤) الانتخاء: التعاظم.

(٥) ضهلت: رجعت.

(٦) وكعاء: حمقاء.

إلى صفة فرس أو كلب، فإنّكم غيرُ الرّاشدين!» فيقول رؤبة: «إن الله، سبحانه وتعالى، قال: «يتنازعون فيها كأساً لا لغوٌ فيها ولا تأقيم وإن كلامك لمن اللغو!»

فإذا طالت المخاطبة بينه وبين رؤبة، سمع العجّاج، فَجاء يسأل المُحاجزة[1].

المتنبي

فأمّا ما ذكره من قول أبي الطّيب: «أذمّ إلى هذا الزمان أُهَيلَه» فقد كان الرجلُ مولَعاً بالتصغير، لا يقنع منه بخُلسة المُغير، كقوله:

مَن لي بفَهمِ أُهَيلِ عَصرٍ يَدّعي   أن يحسُبَ الهنديَّ فيهِمْ باقِلُ[2]

وقوله: «مقالي للأُحَيمِق يا حليمُ»

وقوله: «ونام الخُوَيدِمُ عن لَيلنا»

وقوله: «أفي كلّ يومٍ تحتَ ضِبني شُوَيعِرٌ[3]».

وغير ذلك ممّا هو موجودٌ في ديوانه، ولا ملامةَ عليه، إنّما هي عادة صارت كالطبع، تُغتفر مع المَحاسِن. وهذا البيت الذي أوّله: «أذمّ إلى هذا الزمان أُهَيلَه» إنّما قاله في عليّ بنِ محمّد بنِ سيّار بأنطاكية قبل أن يمدح سيف الدولة. والشعراء مُطلق لهم ذلك، لأنّ الآية شهِدت عليهم بالتّخَرّص وقَول الأباطيل: «ألم تَرَ أنّهم في كلّ وادٍ يَهيمون؟ وأنّهم يقولون ما لا يفعلون؟»

(١) المحاجزة: المسالمة.

(٢) باقل: رجل اشترى ظبياً باحد عشر درهماً فسئل عن ثمنه فبين لهم حسابه بفتح كفيه وإخراج لسانه، فانفلت الظبي، فضرب به المثل في العي.

(٣) الضبن: ما بين الكشح والابط.

الجــاحــظ

كتـاب البخـلاء

أهـل خراسـان[1]

نَبدأُ بأهلِ خَراسانَ لإكثارِ النّاسِ في أهلِ خُراسانَ؛ ونَخُصّ بذلكَ أهلَ مَرْوَ[2]، بقَدرِ ما خُصّوا بهِ.

قالَ أصحابُنا: يَقولُ المَرْوَزيّ[3] للزّائرِ، إذا أتاهُ، وللجَليسِ، إذا طالَ جُلوسُهُ: تَغَدّيتَ اليَومَ؟ فإنْ قالَ: نَعَمْ، قالَ: لولا أنّكَ تَغَدّيتَ، لَغَدّيتُكَ بغَداءٍ طَيّبٍ. وإنْ قالَ: لا، قالَ: لو تَغَدّيتَ، لسَقَيتُكَ خَمسَةَ أقداحٍ. فلا يَصيرُ في يَدِهِ، على الوَجهَينِ، قَليلٌ ولا كَثيرٌ.

ديكـة مـرو:

وقالَ ثُمامَةُ[4]: لم أرَ الدّيكَ في بَلدَةٍ قَطّ إلاّ وهوَ لاقِطٌ، يأخُذُ الحَبّةَ بمِنقارِهِ، ثمّ يَلفِظُها قُدّامَ الدّجاجةِ؛ إلاّ دِيَكَةَ مَرْوَ، فإنّي رأيتُ ديَكَةَ مَرْوَ تَسلُبُ الدّجاجَ ما في مَناقيرِها منَ الحَبّ! قالَ: فعَلِمتُ أنّ بُخلَهُمْ شيءٌ في طَبعِ البِلادِ، وفي جَواهرِ الماءِ. فمِنْ ثَمّ[5] عَمّ جَميعَ حَيَوانِهِمْ.

---

(١) بدأ يذكر أهل خراسان بعد إيراده رسالة سهل بن هارون في تحسين البخل.

(٢) مرو: بلد من خراسان.

(٣) المروزي: نسبة إلى مرو في الأناسي على غير قياس، ومروي في غير ذلك.

(٤) هو ثمامة بن أشرس النميري من رؤساء المعتزلة.

(٥) ثم: ظرف بمعنى هناك.

قصة أهل البصرة من المسجديين

قالَ أصحابُنا من المسجديّينَ: اجتمع ناسٌ في المسجد ممنْ يَنتَحِلُ الاقتِصادَ[١] في النَفقَة، والتّنمِيَةِ للمالِ، مِن أصحابِ الجَمعِ والمَنعِ[٢]. وقد كانَ هذا المَذهَبُ صارَ عندَهُمْ كالنّسَبِ الذي يَجمَعُ على التّحابّ، وكالحِلْف[٣] الذي يَجمَعُ على التّناصُرِ. وكانُوا إذا التَقَوا في حَلَقِهم[٤] تَذَكّروا هذا البابَ، وتَطَارَحوهُ[٥] وتَدارَسُوهُ.

قالَ شَيخٌ مِنهُمْ: ماءُ بِئرِنا، كَما علِمتُمْ، مِلحٌ أُجاجٌ[٦] لا يَقرَبُهُ الحِمارُ، ولا تُسيغُهُ[٧] الإبلُ، وتَموتُ علَيهِ النّخلُ. والنّهرُ منّا بَعيدٌ.

وفي تَكَلُّفِ العَذْبِ[٨] علَينا مُؤنَةٌ[٩]. فكُنّا نَمزُجُ منهُ[١٠] للحِمارِ، فاعتَلّ عَنهُ[١١]، وانتَقَضَ عَلَينا[١٢] مِن أجلِهِ. فصِرنا، بَعدَ ذلكَ، نَسقيهِ العَذبَ صِرفاً. وكنتُ أنا والنّعجَةُ كَثيراً ما نَغتَسِلُ بالعَذبِ، مَخافَةَ أنْ يَعتريَ جُلودَنا منهُ[١٣] مثلُ ما اعترى جَوفَ الحِمارِ؛ فكانَ ذلكَ الماءُ العَذبُ الصّافي يَذهَبُ باطِلاً.

ثمّ انفَتَحَ لي فيهِ بابٌ منَ الإصلاحِ، فعَمَدتُ إلى ذلكَ المُتَوَضَّإ[١٤]

---

(١) ينتحل الاقتصاد: يتخذه مذهباً.

(٢) الجمع: جمع المال. المنع: منعه من الخروج.

(٣) الحلف: العهد.

(٤) الحلق: جمع حلقة أي حلقة مجلسهم.

(٥) تطارحوه: أي طرح كل واحد منهم آراءه على أصحابه.

(٦) أجاج: ملح مر.

(٧) تسيغه: تقبله وتستسهل بلعه.

(٨) العذب: أي الماء العذب.

(٩) مؤنة: مشقة وكلفة.

(١٠) منه: أي من الماء الأجاج.

(١١) اعتل عنه: أضرب وأحجم.

(١٢) انتقض علينا: عصانا وخرج عن طاعتنا.

(١٣) منه: من الماء الأجاج.

(١٤) المتوضأ: مكان الوضوء.

فجعَلتُ في ناحيَةٍ منهُ حُفرَةً، وصَهرَجتُها[١] ومَلّستُها، حتى صارت كأنّها صَخرَةٌ مَنقورَةٌ. وصَوّبتُ[٢] إلَيها المَسيلَ. فنَحنُ، الآنَ، إذا اغتَسَلنا، صارَ الماءُ[٣] إلَيها صافياً لم يُخالِطهُ شيءٌ. والحِمارُ أيضاً لا تَقَزُّزَ[٤] لهُ منهُ. وليسَ علَينا حَرَجٌ في سَقيِهِ منهُ؛ وما عَلِمنا أنّ كتاباً حَرّمَهُ، ولا سُنّةً نَهَت عَنهُ. فرَبِحنا هذِهِ مُنذُ أيّامٍ، وأسقَطنا مؤنَةً عنِ النَفسِ والمالِ مالِ القَومِ[٥]. وهذا بتَوفيقِ اللّهِ ومَنّهِ[٦].

فأقبَلَ علَيهِمْ شيخٌ، فقالَ: هل شَعَرتُمْ بمَوتِ مَريَمَ الصّنّاعِ؟ فإنّها كانَتْ من ذواتِ الاقتِصادِ، وصاحبَةَ إصلاحٍ. قالوا: فحَدِّثنا عَنها. قالَ: نَوادِرُها كَثيرَةٌ، وحَديثُها طَويلٌ، ولكِنّي أُخبرُكُمْ عن واحدَةٍ فيها كِفايَةٌ. قالوا: وما هيَ؟ قالَ: زَوّجَتِ ابنَتَها، وهي بنتُ اثنتَيْ عشرَةَ، فحَلّتها الذّهَبَ والفِضّةَ، وكَسَتها المَرَوِيّ[٧] والوَشيَ والقَزّ والخَزّ[٨]، وعَلّقَتِ المُعَصفَرَ[٩]، ودَقّتِ الطِّيبَ، وعَظّمَتْ أمرَها في عَينِ الخَتَنِ[١٠]، ورَفَعَتْ مِن قَدْرِها عندَ الأحماءِ[١١].

فَقَالَ لَهَا زَوْجُهَا: أنّى[١٢] هَذا يا مَرْيَمُ؟ قالَتْ: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللّهِ. قال: دَعي عَنكِ الجُمْلَةَ، وهاتي التّفسيرَ. واللّهِ، ما كُنتِ ذاتَ مَالٍ قَديماً، ولا

---

(١) صهرجها: طلاها بالصاروج، أي القطران.
(٢) صوبه: أرسله ووجهه في الجري.
(٣) صار الماء: جرى واتجه إلى مصيره، أي موضعه.
(٤) التقزز: نفور النفس واشمئزازها من الدنس.
(٥) مال القوم: أي العيال.
(٦) منه: فضله وكرمه.
(٧) المروي: أي المروي من الثياب، نسبة إلى مرو.
(٨) الخز: الحرير أو ما نسج من الصوف والحرير.
(٩) المعصفر: أي الثوب المصبوغ بالعصفر، وهو نبات يصبغ بزهره صبغ أصفر. وقوله علقت المعصفر: أي المعصفر من الستائر.
(١٠) الختن: الصهر، زوج ابنة الرجل.
(١١) الأحماء: جمع حم وهو أبو زوج المرأة وأبو امرأة الرجل، ويطلق على من كان من قبله.
(١٢) أنى: اسم استفهام بمعنى من أين.

وَرِثتِهِ حَديثاً؛ وما أنتِ بخائنَةٍ في نَفسِكِ ولا في مالِ بَعلِكِ؛ إلاّ أنْ تَكوني قد وَقَعتِ على كَنزٍ! وكيفَ دارَ الأمرُ فقَد أسقطتِ عنّي مُؤنَةً، وكَفَيتِني هذهِ النّائبَةَ.

قالَت: اعلَمْ أنّي، مُنذُ يومَ وَلَدتُها إلى أن زَوّجتُها، كنتُ أرفَعُ منْ دَقيقِ كلّ عَجنَةٍ حَفنَةً. وكُنّا، كما قد عَلِمتَ، نخبِزُ في كلّ يومٍ مَرّةً، فإذا اجتَمَعَ من ذلكَ مَكّوكٌ[1]، بِعتُهُ.

قالَ زَوجُها: ثَبّتَ اللّهِ رأيَكِ وأرشَدَكِ! ولَقَد أسعَدَ اللّهُ مَن كنتِ لهُ سَكَناً[2]، وبارَكَ لِمَنْ جُعِلتِ لهُ إلْفاً! ولهذا وشِبهِهِ قَال رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «مِنَ الذّود إلى الذّودِ إبِلٌ[3]». وإنّي لأرجو أنْ يَخرُجَ وَلَدُكِ[4] على عِرقِكِ الصّالح، وعلى مَذهَبِكِ المَحمودِ. وما فَرَحي بهَذا منكِ بأشَدّ مِنْ فَرَحي بما يُثَبّتُ اللّهُ بكِ في عَقِبي[5] من هذهِ الطّريقَةِ المَرْضِيّةِ.

فنَهَضَ القَوْمُ إلى جَنازَتِها، وصَلّوا علَيها. ثم انكَفَؤوا[6] إلى زوجِها، فعَزّوهُ على مُصيبَتِهِ، وشارَكوهُ في حُزنِهِ.

ثمّ اندَفَعَ شَيخٌ منهُمْ، فَقالَ: لم أرَ في وَضعِ الأُمورِ مَواضِعَها، وفي تَوْفيتِها غايَةَ حُقُوقِها كَمُعاذَةَ العَنبريّةِ. قالوا: وما شأنُ مُعاذَةَ هذهِ؟ قالَ: أهدَى إلَيها، العامَ، ابنُ عَمٍّ لها أُضحِيّةً[7]، فرأيتُها كَئيبَةً حَزينَةً، مُفَكِّرَةً مُطرِقَةً.

---

(١) المكوك: مكيال عند أهل العراق يسع من نصف رطل إلى ثماني أواقي.

(٢) السكن: ما يسكن إليه ويستأنس به من أهل ومال.

(٣) الذود: من النوق ما فوق الاثنتين ودون العشر؛ مؤنثة جمعها أذواد. والمعنى إذا جمعت القليل من الذود إلى القليل منها صار إبلاً كثيرة. والأرجح أن هذا مثل لا حديث.

(٤) الولد: يكون مفرداً وجمعاً.

(٥) العقب: الولد وولد الولد.

(٦) انكفؤوا: رجعوا.

(٧) الأضحية: شاة يضحى بها، جمعها الأضاحي. وعند المسلمين: الشاة التي تذبح يوم الأضحى.

فقُلتُ لها: «ما لكِ يا مُعاذَةُ؟» قالتْ: «أنا امرأةٌ أرمَلَةٌ، ولَيسَ لي قَيِّمٌ[١]، ولا عَهدَ لي بتَدبيرِ لحم الأضاحيّ. وقد ذهبَ[٢] الذينَ كانوا يُدَبّرونَهُ ويَقومونَ بحَقّهِ، وقد خِفتُ أن يَضيعَ بَعضُ هذهِ الشّاةِ، ولَستُ أعرِفُ وَضعَ جَميعِ أجزائِها في أماكِنِها. وقد علِمتُ أنّ اللّهَ لم يَخلُقْ فيها ولا في غَيرِها شَيئاً لا مَنفَعَةَ فيهِ؛ ولكنّ المَرءَ يَعجِزُ، لا مَحالةَ[٣]. ولَستُ أخافُ من تَضييعِ القَليلِ، إلاّ أنّهُ يَجُرّ تَضييعَ الكَثيرِ. أمّا القَرن فالوَجهُ فيهِ مَعروفٌ، وهوَ أنْ يُجعَلَ كالخُطّافِ[٤]، ويُسَمّرَ في جِذعٍ[٥] مِن جُذوعِ السّقفِ، فيُعَلّقَ علَيهِ الزُّبُلُ[٦] والكِيرانُ[٧] وكلّ ما خيفَ علَيهِ من الفأرِ والنّملِ والسّنانيرِ وبَناتِ وَردانَ[٨] والحَيّاتِ، وغَيرِ ذلكَ. وأمّا المُصرانُ[٩] فإنّهُ لأوتارِ المِندَفَةِ[١٠]؛ وبنا إلى ذلكَ أعظَمُ الحاجَةِ. وأمّا قِحفُ[١١] الرّأسِ واللَّحيانِ[١٢] وسائرُ العِظام فسَبيلُهُ أنْ يُكَسَّرَ بَعدَ أنْ يُعرَقَ[١٣]، ثمّ يُطبَخَ؛ فما ارتَفَعَ مِنَ الدّسَمِ[١٤] كانَ

---

(١) القيم: من يقوم بأمرها.

(٢) ذهب: أي مات الذين كانوا يدبرونه من أهلها.

(٣) هذا مثل ذكره الميداني وشرحه بقوله: أي لا تضيق الحيل ومخارج الأمور إلا على العاجز.

(٤) الخطاف: حديدة ملوية.

(٥) الجذع: ساق النخلة والشجرة. وعلى الجذوع يبني سقف البيت.

(٦) الزبل، جمع الزبيل: القفة أو الجراب أو الوعاء.

(٧) الكيران، جمع كور: الرحل وهو كل شيء يعد للرحيل من وعاء للأمتعة؛ ومركب البعير. وفي رواية: الكيزان، جمع كوز.

(٨) بنات وردان: الصراصير.

(٩) المصران: جمع المصير وهو المعى، وجمع الجمع: مصارين وهو هنا مأخوذ بمعنى المفرد أو اسم الجمع.

(١٠) المندفة: آلة الندف.

(١١) القحف: العظم فوق الدماغ.

(١٢) اللحيان، مثنى لحي: عظم الحنك الذي عليه الأسنان، وموضع منبت اللحية من الرجل.

(١٣) يعرق: يجرد من اللحم.

(١٤) أي فما ارتفع من الدسم على وجه المرق في القدر.

للمِصباحِ وللإدام[1] وللعَصيدَةِ[2]، ولغَيرِ ذلكَ. ثمّ تُؤخَذُ تلكَ العظامُ فيُوقَدُ بها؛ فلَم يرَ النّاسُ وَقُوداً[3] قَطّ أصفَى ولا أحسَنَ لَهَباً منها. وإذا كانتْ كذلكَ، فهيَ أسرَعُ في القِدْرِ[4]، لقِلّةِ ما يُخالِطُها منَ الدّخانِ. وأمّا الإهابُ[5] فالجِلدُ نَفسُهُ جِرابٌ. وللصّوفِ وُجوهٌ لا تُدفَعُ. وأمّا الفَرْثُ[6] والبَعْرُ فحَطَبٌ، إذا جُفّفَ، عَجيبٌ».

ثمّ قالَتْ: «بَقيَ علَينا الانتِفاعُ بالدّمِ؛ وقد علِمتُ أنّ اللّهَ، عزّ وجَلّ، لم يُحَرّمْ منَ الدّمِ المَسفوحِ[7] إلاّ أكلَهُ وشُربَهُ؛ وأنّ لهُ مَواضِعَ يَجوزُ فيها ولا يُمنَعُ منها. وإنْ أنا لم أقَعْ على عِلْمِ ذلكَ حتى يُوضَعَ مَوضعَ الانتفاعِ بهِ، صارَ كَيّةً في قَلبي، وقَذًى في عَيني، وهَمّاً لا يَزالُ يُعاوِدُني».

فلَمْ ألبَثْ أن رأيتُها قد تَطَلّقَتْ[8] وتَبَسّمَتْ، فقُلتُ: يَنبَغي أن يكونَ قَدِ انفَتَحَ لكِ بابُ الرّأيِ في الدّمِ. قالَتْ: «أجَلْ، ذَكَرتُ أنّ عندي قُدوراً شاميّةً جُدُداً. وقد زَعَموا أنّهُ ليسَ شيءٌ أدبَغَ، ولا أزيَدَ في قوّتِها، منَ التّلطيخِ بالدّمِ الحارّ الدّسِمِ. وقَدِ استرَحتُ الآنَ، إذ وَقَعَ كلُّ شيءٍ مَوقِعَهُ».

قالَ: ثمّ لَقيتُها بَعدَ ستّةِ أشهُرٍ، فقُلتُ لها: كيفَ كانَ قَديدُ[9] تلكَ الشّاةِ؟ قالَتْ: «بأبي أنتَ[10]! لم يَجىء وقتُ القَديدِ بَعدُ. لَنا في الشّحمِ

---

(١) الإدام من الطعام: ما يؤتدم به مع الخبز فيطيبه، فيلتذ به الآكل، وهو عام في المائع وغيره.

(٢) العصيدة: طعام يتخذ من الدقيق والسمن والسكر.

(٣) الوقود: ما يوقد به كالفحم والحطب.

(٤) أسرع في القدر: أي أسرع في إحمائها وإنضاج ما فيها من الطعام.

(٥) الإهاب: الجلد.

(٦) الفرث: ما في الكرش من الزبل.

(٧) المسفوح: السائل؛ والدم المسفوح محرم في القرآن.

(٨) تطلقت: أشرق وجهها وانبسط؛ ذكره الأساس.

(٩) القديد: اللحم المملوح المجفف في الشمس.

(١٠) بأبي: الباء للتفدية.

والأليَةِ والجُنوبِ[١] والعَظمِ المَعروقِ وغَيرِ ذلكَ مَعاشٌ؛ ولكلّ شيءٍ إبّانٌ[٢]».

فقَبَضَ صاحبُ الحِمارِ والماءِ العَذبِ قَبضَةً من حصًى، ثمّ ضرَبَ بها الأرضَ[٣]، ثمّ قالَ: لا تَعلَمُ أنّكَ منَ المُسرِفينَ، حتى تَسمَعَ بأخبارِ الصّالحينَ!

كتـاب الحيـوان

بـاب الكلـب والديـك

وفـاء الكلـب:

وأنشَدَ أبو الحَسَنِ بنُ خالَوَيهِ عن أبي عِبَيدَةَ لبَعضِ الشّعراءِ:

يُعَرِّدُ عَنهُ جارُهُ وشَقيقُهُ، ويَنبُشُ عَنهُ كَلبُهُ وهوَ ضارِبُهْ[٤]

قالَ أبو عُبَيدَةَ: قيلَ ذلكَ لأنّ رَجُلاً خَرَجَ إلى الجَبّانِ[٥]، يَنتَظِرُ رِكابَهُ[٦]، فاتّبَعَهُ كَلبٌ كانَ لَهُ، فضرَبَ الكَلبَ وطَرَدَهُ، وكَرِهَ أنْ يَتبَعَهُ، ورَماهُ بحَجَرٍ. فأبَى الكَلبُ إلاّ أنْ يَتبَعَهُ. فلَمّا صارَ إلى المَوضِعِ الذي يُريدُ فيهِ الانتظارَ، رَبَضَ الكَلبُ قَريباً. فبَينَما هوَ كذلكَ: إذ أتاهُ أعداءٌ له يَطلبونَهُ بطائلَةٍ[٧] لهم عندَهُ. وكانَ معَهُ جارٌ لهُ وأخوهُ دُنيا[٨]، فأسلَماهُ وهَرَبا عنهُ. فجُرِحَ جراحاتٍ، ورُميَ به في بِئرٍ غيرِ بَعيدَةِ القَعرِ؛ ثمّ حُثيَ علَيهِ[٩] التّرابُ،

---

(١) الجنوب: جمع جنب أي جنب الشاة.
(٢) الإبان: الحين.
(٣) ضرب بها الأرض لتأثره بعدما عرف أنه مبذر مسرف بالإضافة إلى معاذة.
(٤) يعرد: يحجم ويفر.
(٥) الجبان: المقبرة والصحراء.
(٦) الركاب: الإبل.
(٧) الطائلة: العداوة والثأر.
(٨) دنيا: لاصق النسب، داني القرابة. وأخوه هنا بمعنى قريبه، لأنه يقال: هو ابن عم أو عمة، أو ابن خال أو خالة، أو ابن أخ أو أخت دنيا. وإذا ضمت دالها، منعت من الصرف لأن الألف قد تعينت للتأنيث على الأصل، وتكون منصوبة على الحال. وإذا كسرت دالها جاز فيها الصرف، فإذا نونت صارت منصوبة على المصدرية.
(٩) حثي عليه: رمي التراب عليه.

ثمّ غُطّيَ رأسُه، ثمّ كُمّمَ[1] فوقَ رأسِهِ منهُ؛ والكَلبُ في ذلكَ يَرخَمُ[2] ويَهِرّ. فلَمّا انصرَفوا أتى رأسَ البِئرِ؛ فَما زالَ يَعوي، ويَنبُشُ عَنهُ، ويَحثو التّرابَ بيَدِهِ، ويَكشِفُهُ عن رأسِهِ، حتى أظهَرَ رَأسَهُ فتَنَفّسَ، ورُدّتْ إلَيهِ الرّوحُ، وقد كادَ يَموتُ، ولم يَبقَ منهُ إلاّ حُشاشَةٌ[3]. فبَينَما هوَ كذلكَ، إذ مرّ ناسٌ، فأنكَروا مكانَ الحالِ، ورأوهُ كأنّهُ يَحفِرُ عن قَبرٍ. فنَظَروا، فإذا هم بالرّجُلِ على تلكَ الحالِ، فاستَشالوهُ[4]، فأخرَجوهُ حَيًّا، وحَمَلوهُ، حتى أدّوهُ إلى أهلِهِ. فزَعَمَ أن ذلكَ المَوضعَ يُدعَى بئرِ الكَلبِ، وهوَ مُتَيامِنٌ[5] عنِ النّجَفِ[6].

وهذا العَمَلُ يَدُلّ على وَفاءٍ طَبيعيٍّ، وإلفٍ غَريزيٍّ، ومُحاماةٍ شديدةٍ، وعلى مَعرِفَةٍ وصَبرٍ، وعلى كَرَمٍ وشُكرٍ، وعلى غَناءٍ[7] عَجيبٍ، ومَنفَعَةٍ تَفوقُ المَنافعَ. لأنّ ذلكَ كُلّهُ كانَ من غيره تكَلّفٍ ولا تَصَنّعٍ.

أعمار الكلاب:

وذكورَةُ السّلوقيّةِ تَعيشُ عَشرَ سِنينَ، والإناثُ تَعيشُ اثنَتَيْ عَشرَةَ سَنَةً، وأكثرُ أجناسِ الكِلابِ تَعيشُ أربَعَ عَشَرَةَ سَنَةً، وبَعض الأجناسِ تَبقَى عشرينَ سَنَةً.

قالَ: وإناثُ الكِلابِ أطوَلُ أعماراً منَ الذّكورِ؛ وكذلكَ هيَ في الجُملَةِ ولَيسَ يُلقي الكَلبُ منْ أسنَانِهِ سِنًّا ما خَلا النّابَينِ؛ وإنّما يُلقيهِما إذا كان ابنَ أربَعةِ أشهُرٍ. قالَ: ومن أجلِ أنّ الكِلابَ لا تُلقي غيرَ هذينِ النّابَينِ يَشُكّ بَعضُ النّاسِ أنّها لا تُلقي سِنًّا البَتّةَ.

---

(١) كمم: غطي؛ ولعلها كوم.
(٢) منه: أي من التراب.
(٣) يرخم: يرق له ويشفق عليه.
(٤) الحشاشة: بقية الروح.
(٥) استشالوه: رفعوه.
(٦) متيامن: أي آخذ ذات اليمين.
(٧) النجف: موضع بظهر الكوفة فيه نخل كثير، وبالقرب منه قبر علي بن أبي طالب.
(٨) الغناء: النفع.

كلب يحسب لصّاً:

قالَ بِشرُ بنُ سَعِيدٍ: كانَ بالبَصرةِ شَيخٌ من بَني نَهشَلٍ[١] يُقالُ لَهُ عُروَةُ بنُ مَرثَدٍ، نَزَلَ بَبَني أُختٍ لهُ في سِكّةِ[٢] بني مازِنٍ[٣] وبَنو أختِهِ من قُرَيشٍ. فخَرَجَ رِجالُهمْ إلى ضِياعِهِمْ، وذلكَ في شَهرِ رَمَضانَ، وبقيَتِ النّساءُ يُصَلّينَ في مَسجِدِهمْ، فلَمْ يبقَ في الدّارِ إلاّ كَلبٌ يَعُسّ[٤]، فرأى بَيتاً، فدَخَلَ، وانصَفَقَ[٥] البابُ، فسَمِعَ الحَرَكَةَ بَعضُ الإماءِ، فظَنّوا[٦] أنّ لِصّا دَخَلَ الدّارَ، فذَهبَتْ إحداهنّ إلى أبي الأعَزّ[٧]، ولَيسَ في الحَيّ رجلٌ غيرُهُ، فأخبرَتهُ، فقالَ أبو الأعَزّ: ما يَبتَغي اللّصّ منّا؟ ثمّ أخَذَ عَصاهُ وجاءَ حتى وَقَفَ على بابِ البَيتِ، فقالَ: إيهْ[٨] يا مَلأمانُ[٩]! أمَا واللّهِ إنّكَ بي لَعارِفٌ، وإنّي بكَ أيضاً لَعارِفٌ، فهَل أنتَ إلاّ من لصوصِ بني مازِنٍ شرِبتَ حامِضاً خَبيثاً[١٠]، حتى إذا دارَتِ الأقداحُ في رأسِكَ، مَنّتكَ نَفسُكَ الأمانيَّ[١١]، وقُلتَ: دُورَ[١٢] بني عَمرٍو[١٣]،

---

(١) نهشل بن دارم: بطن من تميم.

(٢) السكة: الموضع فيه دور ومنازل لقوم يسكنونها وفي خلالها طريق وسبيل لهم.

(٣) بنو مازن بن عمرو: من بني تميم.

(٤) يعس: يطوف ليلاً.

(٥) انصفق: انغلق.

(٦) فظنوا: هكذا وردت ووجه الكلام فظنن.

(٧) أبو الإعز، وفي رواية: أبو الأغر.

(٨) أبو الأعز، وفي رواية: أبو الأغر.

(٩) إيه بسكون الهاء: كلمة زجر بمعنى حسبك.

(١٠) يا ملأمان بالنداء: أي يا لئيم.

(١١) حامضاً خبيثاً: أي الحامض من الخمر، ويقال له المسطار.

(١٢) منتك: يقال مناه الأماني وبالأماني: أي جعلها له.

(١٣) دور: مفعول لفعل محذوف تقديره أقصد.

(١٤) بني عمرو: أي عمرو بن تميم.

والرّجالُ خُلوفٌ[١]، والنّساءُ يُصَلّينَ في مَسجِدهنّ، فأسرقُهُنّ[٢]. سَوءَةٌ واللّهِ! ما يَفعَلُ هذا الأحرارُ! لَبئسَ، واللّهِ، ما مَنّتكَ نَفسُكَ! فاخرُجْ، وإلاّ دَخَلتُ علَيكَ، فصَرَمتْكَ منّي العُقوبَةُ[٣]! لايمُ اللّهِ[٤]، لَتَخرُجَنّ، أو لأهتِفَنّ هَتفَةً مَشؤومَةٍ علَيكَ، يَلتَقي فيها الحَيّانِ عَمرٌ وحَنظَلَةُ[٥]، ويَصيرُ أمرُكَ إلى تَبابٍ[٦]. ويَجيءُ سَعدٌ[٧] بعَدَ الحَصَى، ويَسيلُ عَلَيكَ الرّجالُ من هاهُنا وهاهُنا! ولَئِنْ فَعَلتَ[٨]، لتكونَنّ أشأمَ مَولودٍ في بني تَميمٍ!

فَلَمّا رأى أنّهُ لا يُجيبُهُ، أخذَ باللّينِ، وقالَ: اخرُجْ يا بُنَيّ، وأنتَ مَستورٌ؛ إنّي، واللّهِ، ما أُراكَ تَعرِفُني، ولو عرَفتَني، لقد قَنِعَتَ بقَولي، واطمأنَنتَ إليّ. أنا عُروَةُ بنُ مَرْثَدٍ أبو الأعَزّ المَرثَديُّ، وأنا خالُ القوم، وجِلدَةُ ما بَينَ أعيُنِهِمْ[٩] لا يَعصونَني في أمرٍ؛ وأنا لكَ بالذّمَةِ كَفيلٌ خفيرٌ[١٠]، أُصَيّرُكَ بَينَ شَحمَةِ أُذُني وعاتِقي[١١] لا تُضارُ[١٢]. فاخرُجْ، فأنتَ في ذِمّتي، وإلاّ، فإنّ عندي قَوْصَرّتَينِ[١٣]: إحداهُما إلى ابنِ أُختي البارّ الوَصُولِ[١٤]،

(١) خلوف: ذاهبون عن الحي، واحدها خلف.
(٢) فأسرقهن: أي أسرق الدور.
(٣) صرم: قطع؛ وعقوبة صارمة: أي قاطعة.
(٤) لايم الله: قسم، أي ليمين الله.
(٥) حنظلة: حي من بني تميم.
(٦) التباب: الخسار والهلاك.
(٧) سعد: هم بنو سعد بن زيد مناة، من تميم.
(٨) لئن فعلت: أي لئن لم تخرج وأردت السرقة.
(٩) يقال هو جلدة ما بين العين والأنف: أي هو مثلها في العزة والقرب.
(١٠) الخفير: المجير والمحامي والمحافظ.
(١١) العاتق: ما بين المنكب والعنق.
(١٢) لا تضار: لا تصاب بضرر.
(١٣) القوصرة: وعاء من قصب يجعل فيه التمر.
(١٤) الوصول: الكثير المواصلة، أي لا يقاطع صاحبه، والكثير العطاء.

فخُذْ إحداهما، فانتَبِذْها[1] حَلالاً منَ اللَّهِ تَعالى ورَسولِه صَلّى اللَّهُ علَيهِ وسَلَّمَ.

وكان الكَلبُ إذا سَمعَ الكَلامَ، أطرَقَ[2]، وإذا سكَتَ[3]، وَثَبَ يُريغُ[4] المَخرَجَ. فتَهانَفَ[5] الأعرابيّ، أيْ تَضاحَكَ، ثمّ قالَ: يا ألأمَ النّاسِ وأوضَعَهُمْ، ألا يأنِي لكَ[6] أنّا مُنذُ اللّيلَةِ في وادٍ، وأنتَ في آخَرَ! إذا قلتُ لكَ السّوداءَ والبَيضاءَ[7]، تَسكُتُ وتُطرِقُ؛ فإذا سكَتّ عَنكَ، تُريغُ المَخرَجَ! واللَّهِ، لتَخرُجَنّ بالعَفوِ عَنكَ، أو لألجَنّ علَيكَ البَيتَ بالعُقوبَةِ!

فلَمّا طالَ وُقوفُهُ، جاءَتْ جارِيةٌ من إماءِ الحَيّ، فقالتْ: أعرابيّ مَجنونٌ! واللَّهِ ما أرى في البَيتِ شَيئاً! ودَفَعَتِ البابَ، فخَرَجَ الكَلبُ شدًا[8]، وحادَ عنهُ أبو الأعَزّ مُستَلقياً، وقالَ: الحَمدُ للَّهِ الذي مَسَخَكَ كَلباً، وكَفاني منكَ حَرْباً! ثمّ قالَ: تاللَّهِ، ما رأيتُ كاللّيلَةِ، ما أُراهُ إلاّ كَلباً، أما، واللَّهِ، لو عَلِمتُ بحالِهِ، لوَلجتُ علَيهِ.

صياح الديك:

قالوا: قد أخطأ مَن زَعَمَ أنّ الدّيَكَةَ إنّما تَتجاوَبُ، بل إنّما ذلكَ منها شيءٌ يَتَوافَقُ في وَقتٍ، ولَيسَ ذلك بتَجاوُبٍ كنُباحِ الكِلابِ؛ لأنّ الكَلبَ لا وَقتَ لهُ وإنّما هوَ صامتٌ ساكتٌ ما لم يُحِسّ بشيءٍ يَفزَعُ منهُ؛ فإذا حَسّ بهِ، نَبَحَ؛ وإذا سمِع نُباحَ كَلبٍ آخَرَ، أجابَ، ثمّ أجابَ ذلكَ آخَرُ، ثمّ أجابَهُما

---

(١) انتبذها: أي اصنعها نبيذاً من التمر؛ أي نبيذاً محللاً لا محرماً.
(٢) أطرق: سكت.
(٣) سكت: الضمير يعود إلى الأعرابي.
(٤) يريغ: يطلب بشدة.
(٥) تهانف: ضحك باستهزاء؛ ذكرها الأساس على الإطلاق، وخصها القاموس بالمرأة. وقد وردت في الأصل: تهافت، وهو تحريف.
(٦) يأني لك: يحين لك. وظاهر الكلام يدل على أنه يريد أن يقول: ألا يأني لك أن تعرف.
(٧) السوداء والبيضاء: أي كلمة ما.
(٨) شداً: عدواً.

الكَلبُ الأوّلُ، وتَبيّنَ أنّهُ المُجاوِبُ جَميعَ الكلابِ. والدّيكُ لَيسَ من أجلِ أنّهُ أنكَرَ شَيئاً، إذا استَجابَ؛ أو سَمعَ صوتاً، إذا صَقَعَ[1]؛ وإنّما يَصقَعُ لشيءٍ في طَبعِهِ، إذا قابَلَ ذلكَ الوَقتَ منَ اللّيلِ، هَيّجَهُ. فَعَدَدُ أصواتِهِ، في الوَقتِ الذي يُظَنّ أنّهُ تَتجاوَبُ فيهِ الدّيَكَةُ، كَعَدَدِ أصواتِهِ في القَريَةِ، وليسَ في القريَةِ ديكٌ غَيرَهُ، وذلكَ هوَ في المَواقيتِ. والعِلّةُ التي لها يَصقَعُ في وَقتٍ بعَينِهِ، شائعَةٌ فيها[2] في ذلكَ الوَقتِ؛ ولَيسَ كذلكَ الكِلابُ. قد تَنبَحُ الكِلابُ في الخُرَيبَةِ[3]، وكلابٌ في بني سَعدٍ[4] غيرُ نابحَةٍ؛ وليسَ يجوزُ أنْ تكونَ دِيَكَةُ المَهالبَةِ تَصقَعُ، ودِيَكَةُ المَسامِعَةِ[5] ساكِتَةٌ.

أعرابي يقسم الدجاج:

قالَ أبو الحَسَنِ: حَدّثَني أعرابيّ كانَ يَنزِلُ بالبَصرَةِ قالَ: قَدِمَ أعرابيّ منَ الباديَةِ، فأنزَلتُهُ، وكانَ عندي دَجاجٌ كَثيرٌ، ولي امرأةٌ وابنانِ وابنَتانِ منها. فقُلتُ لامرأتي: بادري واشوي لَنا دَجاجَةً، وقَدّميها إلينا نَتَغدّاها. فلَمّا حضَرَ الغِداءُ جَلَسنا جَميعاً أنا وامرأتي وابنايَ وابنَتايَ والأعرابيّ. قالَ: فدَفَعنا إليهِ الدّجاجةَ، فقُلنا لهُ: اقسِمها بَينَنَا - نُريدُ أن نَضحَكَ منهُ - فَقالَ: لا أُحسِنُ القِسمَةَ؛ فإنْ رَضيتمْ بقِسمَتي، قَسَمتُها بَينَكُمْ. قُلنا: إنّنا نَرضَى. فأخَذَ رأسَ الدّجاجَةِ فقَطَعَهُ، فناوَلَنيهِ، وقالَ: ألرّأسُ للرّأسِ. وقَطَعَ الجَناحَينِ، وقالَ: الجَناحانِ للابنَينِ. ثمّ قَطَعَ السّاقَينِ، فَقالَ: السّاقانِ للابنَتَينِ. ثمّ قَطَعَ الزِمِكّي[6]

---

(١) صقع الديك: صاح.

(٢) فيها: أي في الديوك.

(٣) الخريبة: موضع في ابصرة يسمى البصيرة الصغرى.

(٤) بنو سعد: قبيلة. والظاهر أنهم من سكان البصرة.

(٥) المسامعة: محلة بالبصرة تنسب إلى بني مسمع بن شهاب. والظاهر أن المهالبة محلة بالبصرة أيضاً تنسب إلى بني المهلب بن أبي صفرة.

(٦) الزمكي: مؤخر الطائر أو أصل ذنبه.

وقالَ: العَجُزُ[1] للعُجُزِ[2]. وقالَ: الزَّوْرُ[3] للزّائِرِ. قالَ: فأَخَذَ الدّجاجةَ بأسرِها، وسَخِرَ بنا. قال: فلَمّا كانَ مِنَ الغَدِ، قلتُ لامرأتي: اشوي لَنا خَمسَ دَجاجاتٍ. فلَمّا حَضَرَ الغَداءُ، قلتُ: اقسِمْ بَينَنا. قالَ: إنّي أظنّ أنّكُمْ وَجَدتُمْ[4] في أنفُسِكُمْ. قُلنا: لا، لم نَجِدْ في أنفُسِنا، فاقسِمْ. قالَ: أقسِمُ شَفْعاً[5] أو وِتراً[6]؟ قُلنا: اقسِمْ وِتراً. قالَ: أنتَ وامرأتُكَ ودَجاجَةٌ ثَلاثَةٌ، ثمّ رَمَى إلَينا بدَجاجَةٍ. ثمّ قالَ: وابناكَ ودَجاجَةٌ ثَلاثَةٌ، ثمّ رَمَى إلَيهِما بِدَجاجةٍ. ثمّ قالَ: وابنَتاكَ ودَجاجةٌ ثَلاثَةٌ، ثمّ رَمَى إلَيهِما بدَجاجةٍ. ثمّ قالَ: أنا ودَجاجَتانِ ثَلاثَةٌ، وأخَذَ دَجاجَتَينِ وسَخِرَ بنا. قالَ: فرآنا ونحنُ نَنظُرُ إلى دَجاجتيهِ، فقالَ: ما تَنظُرونَ! لَعَلّكُمْ كَرِهتُمْ قِسمَتي، الوِترُ لا يجيءُ إلاّ هكَذا؛ فهَل لكُم في قِسمَةِ الشّفعِ؟ قُلنا: نَعَمْ. فضَمّهُنّ[7] إلَيهِ، ثمّ قالَ: أنتَ وابناكَ ودَجاجَةٌ أربَعَةٌ، ورَمَى إلَينا بدَجاجةٍ. ثمّ قالَ: والعَجوزُ وابنَتاها ودَجاجَةٌ أربَعَةٌ، ورَمَى إلَيهِنّ بدَجاجةٍ. ثمّ قالَ: أنا وثَلاثُ دَجاجاتٍ أربَعَةٌ، وضَمّ إلَيهِ الثّلاثَ. ورفعَ يَدَيهِ إلى السّماءِ وقالَ: ألّلهُمّ، لكَ الحَمدُ! أنتَ فَهّمتَنيها!

---

(١) العجز: مؤخر الشيء.

(٢) العجز: جمع عجوز ويريد بها امرأة الرجل. وفي رواية: للعجوز.

(٣) الزور: الصدر.

(٤) وجدتم: غضبتم.

(٥) الشفع: الزوج.

(٦) الوتر، وتفتح الواو: الفرد.

(٧) فضمهن: أي ضم الدجاجات.

ابـــن المقفـــع

باب الحمامة المطوقة

قالَ دَبْشَليمُ المَلِكُ لبَيدَبا الفَيلَسوفِ: قَد سَمِعتُ مَثَلَ المُتَحابَّينِ كيفَ قَطَعَ بَينَهُما الكَذوبُ، وإلى ماذا صارَ عاقبَةُ أمرِهِ مِن بَعدِ ذلكَ. فحَدِّثني، إنْ رأيتَ، عن إخوانِ الصّفاءِ كيفَ يَبتَدئُ تَواصُلُهُمْ، ويَستَمتِعُ بَعضُهُمْ ببَعضٍ؟ قالَ الفَيلَسوفُ: إنّ العاقِلَ لا يَعدِلُ[1] بالإخوانِ شَيئاً. فالإخوانُ هُمُ الأعوانُ على الخَيرِ كُلِّهِ، والمُؤاسُونَ عِندَما يَنُوبُ مِنَ المَكروهِ. ومِنْ أمثالِ ذلكَ مَثَلُ الحَمامَةِ المُطَوَّقةِ[2] والجُرَذِ والسُّلَحفاةِ والظّبيِ والغُرابِ. قالَ المَلِكُ: وكيفَ كانَ ذلكَ؟.

قالَ بَيدَبا: زَعَموا أنّهُ كانَ بأرضِ سَكَاوَنْدَجِينَ، عِندَ مَدينَةِ داهَرَ، مَكانٌ كَثيرُ الصّيدِ يَنتابُهُ الصَّيّادونَ. وكانَ في ذلكَ المَكانِ شَجَرَةٌ كثيرَةُ الأغصانِ مُلتَفّةُ الوَرَقِ، فيها وَكْرُ غُرابٍ. فبَينَما هوَ ذاتَ يوم ساقِطٌ في وَكْرِهِ، إذْ بَصُرَ بصَيّادٍ قَبيحِ المَنظَرِ، سَيّيءِ الخُلقِ؛ وقُبحُ مَنظَرِهِ يَدُلُّ على سُوءِ مَخبَرِهِ؛ على عاتِقِهِ[3] شَبَكَةٌ، وفي يَدِهِ عَصاً، مُقبِلاً نحوَ الشّجَرَةِ. فذُعِرَ منهُ الغُرابُ. وقالَ: لقد ساقَ هذا الرّجُلَ إلى هذا المَكانِ إمّا حَيني[4]، وإمّا حَينُ غَيري.

---

(١) لا يعدل: لا يساوي.

(٢) المطوقة: التي لها في عنقها من التلوين ما يشبه الطوق.

(٣) العاتق: ما بين المنكب والعنق.

(٤) الحين: الهلاك والمحنة.

فلأثبُتَنّ مَكاني حتى أنظُرَ ماذا يَصنَعُ. ثمّ إنّ الصّيّادَ نَصبَ شَبَكَتَهُ، ونَثَرَ علَيها الحَبّ، وكَمَنَ قَريباً مِنها. فلَمْ يَلبَثْ إلاّ قَليلاً حتى مَرّتْ بهِ حَمامَةٌ يُقالُ لها المُطَوّقَةُ، وكانَتْ سَيّدَةَ الحَمامِ، ومَعَها حَمامٌ كَثيرٌ. فعَمِيَتْ هيَ وصاحِباتُها عَنِ الشّرَكِ، فوَقَعنَ على الحَبّ يَلتَقِطنَهُ، فعَلِقنَ في الشّبَكَةِ كُلُّهُنّ. وأقبَلَ الصّيّادُ فَرِحاً مَسروراً. فجَعَلَتْ كلُّ حَمامَةٍ تَتَلَجلَجُ[1] في حَبائِلِها[2]، وتَلتَمِسُ الخَلاصَ لنَفسِها. قالَتِ المُطَوّقَةُ: لا تَخاذَلْنَ[3] في المُعالَجَةِ، ولا تَكُنْ نَفسُ إحداكُنّ أهمَّ إلَيها مِنْ نَفسِ صاحِبَتِها. ولكِن نَتَعاوَنُ جَميعاً ونَطيرُ كَطائِرٍ واحِدٍ، فيَنجو بَعضُنا ببَعضٍ. فجَمَعنَ أنفُسَهُنّ، ووَثَبنَ وثبَةً واحدَةً، فقَلَعنَ الشّبَكَةَ جَميعُهُنّ بتَعاوُنِهِنّ، وعَلَونَ بها في الجَوّ. ولم يَقطَعِ الصّيّادُ رَجاءَهُ مِنهُنّ، وظَنّ أنّهُنّ لا يُجاوِزنَ إلاّ قَريباً حتى يَقَعنَ. فَقالَ الغُرابُ: لأتبَعُهُنّ وأنظُرُ ما يَكونُ مِنهُنّ. فالتَفَتَتِ المُطَوّقَةُ، فرأتِ الصّيّادَ يَتبَعُهُنّ، فقالَتْ للحَمامِ: هذا الصّيّادُ جادٌّ في طَلَبِكُنّ، فإنْ نحنُ أخَذنا في الفَضاءِ لم يَخفَ علَيهِ أمرُنا؛ وإنْ نحنُ تَوَجّهنا إلى العُمرانِ خَفيَ علَيهِ أمرُنا وانصَرَفَ. وبمكانِ كَذا جُرَذٌ. هوَ لي أخٌ، فلَوِ انتَهَينا إلَيهِ قَطَعَ عَنّا هذا الشّرَكَ. ففَعَلنَ ذلكَ. وأيِسَ[4] الصّيّادُ مِنهُنّ وانصَرَفَ. وتَبِعَهُنّ الغُرابُ ليَنظُرَ إلَيهِنّ، لَعَلّهُ يتَعَلّمُ مِنهُنّ حِيلَةً تَكُونُ لَهُ عُدّةً عندَ الحاجَةِ. فلَمّا انتَهَتِ الحَمامَةُ المُطَوّقَةُ إلى الجُرَذِ، أمَرَتِ الحَمامَ أنْ يَقَعنَ، فوَقَعنَ.

وكانَ للجُرَذِ مائةُ جُحْرٍ[5] أعَدّها للمَخاوِفِ. فَنادَتهُ المُطَوّقَةُ باسمِهِ، وكانَ اسمُهُ زَيْرَكَ، فأجابَها الجُرَذُ مِنْ جُحرِهِ: مَنْ أنتِ؟ قالَتْ: أنا خَليلَتُكَ المُطَوّقَةُ. فأقبَلَ إلَيها الجُرَذُ يَسعَى، فَقالَ لها: ما أوقَعَكِ في هذِهِ الوَرْطَةِ[6]؟

(١) تتلجلج: أي تضطرب وتتردد، من تلجلج الكلام في الفم.

(٢) الحبائل: الإشراك، مفردها حبالة.

(٣) تخاذلن: على حذف إحدى التائين، والتخاذل: ضد التعاون.

(٤) أيس منه: قطع رجاءه.

(٥) الجحر: مختبأ الجرذ وغيره، يحتفره لنفسه.

(٦) الورطة: الهلكة وكل أمر تعسر النجاة منه.

قالَتْ لهُ: أَلَمْ تَعلَمْ أنّهُ لَيسَ مِنَ الخَيرِ والشّرّ شيءٌ إلاّ وَهوَ مُقدَّرٌ على مَنْ تُصيبُهُ المَقاديرُ، وهيَ التي أوقَعَتني في هذِهِ الوَرطَة فقَد لا يَمتَنِعُ مِنَ القَدَرِ مَنْ هوَ أقوَى منّي وأعظَمُ أمراً. وقد تَنكَسِفُ الشّمسُ ويَنخَسِفُ القَمَرُ، إذا قُضيَ ذلكَ علَيهِما. ثمّ إنّ الجُرذَ أخَذَ في قَرْضِ[1] العُقَدِ التي كانَتْ فيها المُطَوّقَةُ. فقالَتْ لهُ المُطَوّقَةُ: ابدأ بقَطْعِ عُقَدِ سائرِ الحَمامِ، وبَعدَ ذلكَ أقبِلْ على عُقَدي. فأعادَتْ علَيهِ ذلكَ مِراراً، وهوَ لا يَلتَفِتُ إلى قَولِها. فلَمّا أكثَرَتْ علَيهِ القَولَ وكَرّرَتْ، قالَ لها: لقَد كَرّرتِ القَولَ عليّ، كأنّكِ لَيسَ لكِ في نَفسِكِ حاجَةٌ، ولا لكِ علَيها شَفَقَةٌ، ولا تَرْعَينَ لها حَقّاً. قالَتِ المُطَوّقَةُ: لا تَلُمني على ما أمَرْتُكَ بهِ، فإنّهُ لم يَحمِلْني على ذلكَ إلاّ أنّي تَكَلّفتُ لجَماعَةِ هذا الحَمامِ الرّئاسةَ؛ فلذلكَ لَهنّ عليّ حَقّ، وقدْ أدّينَ إليّ حَقّي في الطّاعَةِ والنّصيحَةِ؛ وبطاعَتِهِنّ ومَعونَتِهِنّ نَجّانا اللّهُ مِنْ صاحبِ الشّرَكِ. وتَخَوّفتُ إنْ أنتَ بَدأتَ بقَطعِ عُقَدي، أنْ تَمَلّ وتَكسَلَ عَن قَطعِ ما بَقيَ؛ وعَرَفتُ أنّكَ، إنْ بدأتَ بهِنّ قَبلي، وكنتُ أنا الأخيرَةَ، لم تَرضَ، وإنْ أدرَكَكَ الفُتورُ، أنْ أبقَى في الشّرَكِ. قالَ الجُرَذُ: هذا ممّا يَزيدُ الرّغبَةَ فيكِ والمَوَدّةَ لكِ. ثمّ إنّ الجُرَذَ أخَذَ في قَرْضِ الشّبَكَةِ، حتى فَرَغَ مِنها. فانطَلَقَتِ المُطَوّقَةُ وحَمامُها مَعَها. فلَمّا رأى الغُرابُ صَنيعَ الجُرَذِ وتَخليصَهُ الحَمامَ، رَغِبَ في مُصادَقَةِ الجُرَذِ، وقالَ: ما أنا لمِثلِ ما أصابَ الحَمامَ بآمِنٍ، ولا أنا عنِ الجُرَذِ ومَوَدّتِهِ بغِنًى....

الأدب الصغير

تاديب النفس:

وعلى العاقِلِ أنْ يَعرِفَ أنّ الرّأيَ والهَوَى مُتَعاديانِ، وأنّ منْ شأنِ النّاسِ تَسويفَ[2] الرّأيِ وإسعافَ الهَوى؛ فيُخالِفَ[3] ذلكَ ويَلتَمِسَ أنْ لا يَزالَ هَواهُ مُسَوَّفاً ورأيُهُ مُسْعَفاً.

---

(١) القرض: القطع.

(٢) تسويف: تأخير.

(٣) فيخالف: معطوفة على أن يعرف.

وعلى العاقِلِ، إذا اشتَبَهَ علَيهِ أمرانِ فلَم يَدرِ في أيّهِما الصّوابُ، أنْ يَنظُرَ أهْواهُما عِندَهُ فيَحذَرَهُ. مَنْ نَصَبَ نَفسَه للنّاسِ إماماً في الدّينِ فعَلَيهِ أنْ يَبدأ بتَعليمِ نَفسِهِ وتَقويمِها في السّيرَةِ والطُّعمَةِ[1] والرّأيِ واللّفظِ والأخدانِ[2] فيَكونَ تَعلَيمُهُ بسيرَتِهِ أبلَغَ مِنْ تَعليمِهِ بلِسانِهِ. فإنّهُ، كَمَا أنّ كَلامَ الحِكمَةِ يُونِقُ[3] الأسماعَ، فكَذلكَ عَمَلُ الحِكمَةِ يَرُوقُ العُيونَ والقُلوبَ. ومُعَلّمُ نَفسِهِ ومؤدّبُها أحَقُّ بالإجلالِ والتّفضيلِ مِنْ مُعَلّمِ النّاسِ ومُؤدّبهِمْ.

رجـل الدولـة:

لا يُستَطاعُ السّلطانُ[4] إلاّ بالوُزراءِ والأعوانِ، ولا تَنفَعُ الوُزراءُ إلاّ بالمَوَدّةِ والنّصيحَةِ، ولا المَوَدّةُ إلاّ مَعَ الرّأيِ والعَفافِ. وأعمالُ السّلطانِ كَثيرَةٌ، وقَلّما تُستَجمَعُ الخِصالُ المَحمُودَةُ عندَ أحَدٍ، وإنّما الوَجهُ في ذلكَ والسّبيلُ إلَيهِ الذي يَستَقيمُ بهِ العَمَلُ أنْ يَكُونَ صاحِبُ السّلطانِ عالِماً بأُمورِ مَنْ يُريدُ الاستِعانَةَ بهِ، وما عندَ كلّ رَجُلٍ منَ الرّأيِ والغَناءِ[5]، وما فيهِ مِنَ العُيوبِ. فإذا استَقَرّ ذلكَ عندَهُ عَن عِلمِهِ وعِلْمِ مَنْ يأتَمِنُ، وَجّهَ لكُلّ عَمَلٍ مَنْ قَد عَرَفَ أنّ عِندَهُ منَ الرّأيِ والنّجدَةِ[6] والأمانَةِ ما يَحتاجُ إلَيهِ فيهِ؛ وأنّ ما فيهِ منَ العُيوبِ لا يُضرّ بذلكَ. ويتَحَفّظُ مِنْ أنْ يُوَجّهَ أحَداً وَجْهاً لا يُحتاجُ فيهِ إلى مُروءَةٍ، إنْ كانَتْ عندَهُ، ولا يأمَنُ عُيُوبَهُ وما يُكرَهُ منهُ.

---

(١) الطمعة: المأكل.
(٢) الأخدان، جمع خدن: الصاحب.
(٣) يونق: يعجب.
(٤) السلطان: السلطة.
(٥) الغناء: الكفاية.
(٦) النجدة: الشجاعة، والمضي في الأمور العسيرة.
(٧) الجحود: النكران.

ثمّ على المُلوكِ، بَعدَ ذلكَ، تَعَهّدُ عُمّالِهِمْ وتَفَقّدُ أُمورِهِمْ، حتى لا يَخفَى عَلَيهِمْ إحْسانُ مُحسِنٍ ولا إساءَةُ مُسيءٍ.

ثمّ على المُلوكِ، بَعدَ ذلكَ، تَعَهّدُ عُمّالِهِمْ وتَفَقّدُ أُمورِهِمْ، حتى لا يَخفَى عَلَيهِمْ إحْسانُ مُحسِنٍ ولا إساءَةُ مُسيءٍ.

ثمّ علَيهِمْ، بَعدَ ذلكَ، أنْ لا يَترُكوا مُحسِناً بغَيرِ جَزاءٍ، ولا يُقِرّوا مُسيئاً ولا عاجِزاً على الإساءَةِ والعَجزِ؛ فإنّهُمْ إنْ تَرَكُوا ذلكَ تَهاوَنَ المُحسِنُ، واجترأ المُسيءُ، وفَسَدَ الأمرُ، وضاعَ العَمَلُ.

الكذب:

رأسُ الذّنوبِ الكَذِبُ، هوَ يؤسّسُها، وهوَ يَتَفَقّدُها، ويُثَبّتُها. ويَتَلَوّنُ ثَلاثَةَ ألوانٍ: بالأمنيّةِ والجُحودِ[1] والجَدَلِ. يَبدأُ صاحبُهُ بالأمنيّةِ الكاذِبَةِ فيما يُزَيّنُ لهُ مِنَ السّوْءاتِ، فيُشَجّعُهُ علَيها بأنّ[2] ذلكَ سيَخفَى. فإذا ظَهَرَ علَيهِ قابَلَهُ بالجُحودِ والمُكابَرَةِ. فإنْ أعياهُ ذلكَ خَتَمَ بالجَدَلِ فخاصَمَ عَنِ الباطِلِ، ووضَعَ لهُ الحُجَجَ، والتَمَسَ بهِ التّثَبّتَ، وكابَرَ الحَقَّ حتى يَكونَ مُسارِعاً للضّلالَةِ ومُكابِراً بالفَواحِشِ.

الجاهل:

لا يُؤمِنَنّكَ شَرَّ الجاهِلِ قَرابَةٌ ولا جِوارٌ ولا إلفٌ. فإنّ أخوَفَ ما يكونُ لحَريقِ النّارِ أقرَبُ ما يَكونُ منها. وكذلكَ الجاهلُ، إنْ جاوَرَكَ أنصَبَكَ[3]، وإنْ ناسَبَكَ[4] جنى علَيكَ، وإنْ ألِفَكَ حَمَلَ علَيكَ ما لا تُطيقُ، وإنْ عاشَرَكَ آذاكَ وأخافَكَ. معَ أنّهُ عندَ الجوعِ سَبُعٌ ضارٍ، وعِندَ الشّبَعِ مَلِكٌ فَظٌ، وعندَ المُوافَقَةِ في الدّينِ قائِدٌ إلى جَهَنّمَ. فأنتَ بالهَرَبِ منهُ أحَقُّ منكَ بالهَرَبِ مِنْ

---

(١) الجحود: النكران.

(٢) بأن: الباء زائدة وحذفها أولى.

(٣) أنصبك: أعياك.

(٤) ناسبك: تقرب إليك بصلة النسب.

سُمّ الأساوِدِ[١]، والحَريقِ المَخوفِ، والدَّينِ الفادحِ، والدّاءِ العَياءِ[٢].

المـالُ:

ما التَّبَعُ[٣] والأعوانُ والصّديقُ والحَشَمُ[٤] إلاّ للمالِ. ولا يُظهِرُ المُروءَةَ إلاّ المالُ. ولا الرّأيُ والقُوّةُ إلاّ بالمالِ. ومَنْ لا إخوانَ لَهُ فلا أهلَ لَهُ. ومَنْ لا أولادَ لَهُ فلا ذِكْرَ لَهُ. ومَنْ لا عَقلَ لَهُ فلا دُنيا لَهُ ولا آخِرَةَ. ومَنْ لا مالَ لَهُ فلا شيءَ لهُ. والفَقرُ داعيَةٌ إلى صاحبِهِ مَقْتَ[٥] النّاسِ، وهوَ مَسلَبَةٌ للعَقْلِ، ومَذهَبَةٌ للعِلْمِ والأدَبِ، ومَعدِنٌ للتّهمَةِ، ومَجمعةٌ للبَلايا. ومَنْ نَزَلَ بِهِ الفَقرُ والفاقَةُ[٦] لم يَجِدْ بُدّاً مِن تَركِ الحَياءِ. ومَن ذَهَبَ حَياؤهُ ذهَبَ سُرورُهُ، ومَنْ ذَهَبَ سرورُهُ مُقِتَ، ومَن مُقِتَ أُوذيَ، ومَن أُوذيَ حَزِنَ، ومَنْ حَزِنَ ذَهَبَ عَقْلُهُ واستُنكِرَ حِفظُهُ وفَهمُهُ، ومَن أُصيبَ في عَقلِهِ وفَهمِهِ وحِفظِهِ كانَ أكثرُ قَولِهِ وعَمَلِهِ فيما يَكونُ علَيهِ لا لَهُ. فإذا افتَقَرَ الرّجُلُ اتّهَمَهُ مَن كانَ لَهُ مُؤتَمِناً، وأساءَ بِهِ الظّنَّ مَن كانَ يَظُنّ بِهِ حَسَناً. فإن أذنَبَ غَيرُهُ أظَنّوهُ[٧]، وكانَ للتهمَةِ وسُوءِ الظّنّ مَوضِعاً. ولَيسَ خَلّةٌ[٨] هيَ للغنيّ مَدْحٌ إلاّ هيَ للفَقيرِ عَيبٌ: فإنْ كانَ شُجاعاً سُمّيَ أهوَجَ، وإنْ كانَ جَواداً سُمّيَ مُفسِداً، وإنْ كانَ حَليماً سُمّيَ ضَعيفاً، وإنْ كانَ وَقُوراً سُمّيَ بَليداً، وإنْ كانَ لَسِناً سُمّيَ مِهْذاراً[٩]، وإنْ كانَ صَموتاً سُمّيَ عَيِيًّا.

---

(١) الأساود: جمع الأسود وهو الحية العظيمة.

(٢) الداء العياء: أي الذي لا يبرأ منه.

(٣) وردت هذه القطعة في باب الحمامة المطوقة من كتاب كليلة ودمنة مع بعض تغيير.

(٤) التبع: التابع، للواحد والجمع.

(٥) الحشم: خاصة الرجل الذين يغضبون له من أهل وعبيد.

(٦) المقت: الكره.

(٧) الفاقة: الفقر والحاجة.

(٨) أظنوه: اتهموه.

(٩) الخلة: الخصلة.

(١٠) المهذار: كثير الرديء الساقط من الكلام.

أقسام الملك:

إعْلَمْ أنّ المُلْكَ ثَلاثَةٌ: مُلْكُ دِينٍ ومُلْكُ حَزمٍ ومُلْكُ هَوًى. فأمّا مُلْكُ الدّينِ فإنّهُ إذا أُقيمَ لأهلِهِ دينُهُمْ، وكانَ دينُهُمْ هوَ الذي يُعطيهِمْ ما لَهُمْ، ويُلحِقُ بهِمُ الذي علَيهِمْ[1]، أرضاهُمْ ذلكَ، ونزَلَ السّاخِطُ مِنهُمْ مَنزِلَةَ الرّاضي في الإقرارِ والتّسليم. وأمّا مُلْكُ الحَزمِ فإنّهُ يَقومُ بهِ الأمرُ، ولا يَسلَمُ مِنَ الطّعنِ والتّسَخّطِ. ولَنْ يَضُرّ طَعنُ الذّليلِ معَ حَزمِ القَويّ. وأمّا مُلْكُ الهوَى فلِعبُ ساعةٍ ودَمارُ دَهرٍ.

الدولة الجديدة:

إذا كانَ سُلطانُكَ[2] عندَ جِدّةِ[3] دَولَةٍ، فرَأيتَ أمراً استَقامَ بغَيرِ رأيٍ، وأعواناً جَزَوا[4] بغَيرِ نَيلٍ[5] وعَمَلاً أنْجَحَ[6] بغَيرِ حَزمٍ؛ فلا يَغُرّنّكَ ذلكَ، فلا تَستَنِمْ[7] إلَيهِ. فإنّ الأمرَ الجَديدَ ممّا تكونُ لهُ مَهابَةٌ في أنفُسِ أقوامٍ، وحَلاوَةٌ في أنفُسِ آخَرينَ، فيُعينُ قَومٌ بأنفُسِهِمْ، ويُعينُ قَومٌ بما قِبَلَهُمْ[8]. ويَستَتِبّ بذلكَ الأمرُ غَيرَ طَويلٍ. ثمّ تَصيرُ الشّؤونُ إلى حَقائِقها وأُصولِها. فَما كانَ منَ الأمرِ بُنيَ على غيرِ أركانٍ وثيقَةٍ، ولا عِمادٍ[9] مُحكَمٍ، أوشَكَ أنْ يَتَداعَى ويتَصَدّعَ.

---

(١) الذي عليهم: أي ما عليهم أن يؤدوا من المال الملك.

(٢) السلطان: السلطة والولاية.

(٣) الجدة: حالة الشيء الجديد.

(٤) جزوا: كافأوا.

(٥) النيل: العطاء.

(٦) أنجح: نجح.

(٧) استنام: اطمأن.

(٨) قبلهم: أي عندهم.

(٩) العماد: الأبنية الرفيعة، يذكر ويؤنث، مفرده عمادة.

صحبة والي السوء:

إنِ ابتُليتَ بصُحبَةِ والٍ لا يُريدُ صَلاحَ رعيّةٍ، فاعلَمْ أنّكَ قد خُيّرتَ بَينَ خَلّتَينِ[1] لَيسَ بَينَهُما خِيارٌ[2]: إمّا مَيلُكَ معَ الوالي على الرّعيّةِ، وهذا هَلاكُ الدّينِ؛ وإمّا المَيلُ معَ الرّعيّةِ على الوالي، وهذا هَلاكُ الدّنيا؛ ولا حيلَةَ لكَ إلاّ بالمَوتِ أوِ الهَرَبِ. واعلَمْ أنّهُ لا يَنبَغي لكَ، وإنْ كانَ الوالي غَيرَ مَرضيّ السّيرةِ إذا عَلِقتْ حِبالُكَ بحَبلِهِ، إلاّ المُحافظَةُ علَيهِ إلى أنْ تَجِدَ إلى الفِراقِ الجَميلِ سَبيلاً.

مصانعة الملوك:

لا تَكونَنّ صُحبَتُكَ للمُلوكِ إلاّ بَعدَ رِياضَةٍ منكَ لنَفسِكَ على طاعَتِهِم في المَكروهِ عندَكَ، ومُوافَقَتِهِمْ فيما خالَفَكَ، وتَقديرِ الأمورِ على مَيلِهِمْ دونَ مَيْلِكَ؛ وعلى أنْ لا تَكتُمَهُمْ سِرّكَ، ولا تَستَطلِعَ ما كَتَموهُ، وتُخفيَ ما أطلَعوكَ علَيهِ مِنَ النّاسِ كُلّهِم، حتى تَحميَ نَفسَكَ الحَديثَ بهِ؛ وعلى الاجتِهادِ في رِضاهُمْ، والتّلَطّفِ[3] لحاجاتِهِمْ، والتّثبيتِ لحُجّتِهِمْ، والتّصديقِ لمَقالَتِهِمْ، والتّزيينِ لرأيِهِمْ؛ وعلى قِلّةِ الاستِقباحِ لِمَا فَعَلوا، إذا أساؤوا، وتَركِ الاستِحسانِ[4] لِما فعَلوا، إذا أحسَنوا، وكَثرَةِ النّشرِ لمَحاسِنِهِمْ، وحُسنِ السّترِ لمَساوِئِهِمْ، والمُقارَبَةِ لمَن قارَبوا، وإنْ كانَ بَعيداً، والمُباعدَةِ لمَنْ باعَدوا، وإن كانوا أقرِباءَ؛ والاهتِمامِ بأمرِهِم، وإنْ لم يَهتَمّوا بهِ، والحِفظِ لهُ، وإنْ ضَيّعوهُ، والذّكرِ لهُ، وإنْ نَسوهُ؛ والتّخفيفِ عَنهُمْ لمَؤونَتِكَ، والاحتِمالِ لَهم كلَّ مَؤونَةٍ؛ والرّضَى عَنهم بالعَفوِ[5]، وقِلّةِ الرّضَى مِنْ نَفسِكَ لهم

---

(١) خلتين: خصلتين.

(٢) ليس بينهما خيار: أي ليس بينهما اختيار لشيء سواهما.

(٣) التلطف: الترفق.

(٤) وترك الاستحسان: أي وعلى قلة ترك الاستحسان.

(٥) المراد: أن تظهر رضاك لأن عفوهم يشملك.

بالمَجهودِ[1]. فإنْ وَجدتَ عَنهُمْ وعن صُحبَتِهِمْ غِنًى، فأغنِ عن ذلكَ نَفسَكَ، واعتَزِلهُ[2] جُهدَكَ. فإنّ مَن يأخُذُ عَمَلَهم يَحولُ بَينَهُ وبينَ لَذّةِ الدّنيا، وعَمَلِ الآخرَةِ. ومَن لا يأخذُ بحَقّهِ[3] يَحتَمِلُ الفَضيحَةَ في الدّنيا، والوِزرَ[4] في الآخرة. إنّكَ لا تأمَنُ أنفهم[5]، إنْ أعلَمتَهُمْ[6]، ولا عقوبَتَهُمْ، إنْ كَتَمتَهُم. ولا تأمَنُ غَضَبَهم، إنْ صَدَقتَهُمْ. ولا تأمَنُ سَلوَتَهم[7]، إنْ حَدّثتَهُم. إنْ لَزِمتَهُم، لم تأمَنْ تبَرّمَهُمْ[8] بكَ. وإنْ زايَلتَهُمْ[9] لم تأمَنْ عِقابَهُم. إنّكَ إن تَستأمرْهم[10] حَمَلتَ المَؤونَةَ علَيهِم؛ وإن قطَعتَ الأمرَ دونَهُمْ لم تأمَنْ فيهِ مُخالفَتَهم. إنّهمْ إنْ سَخِطوا علَيكَ أهلَكوكَ. وإنْ رَضوا عَنكَ تَكَلّفتَ مِن رِضاهم ما لا تُطيقُ. فإن كنتَ حافِظاً إن بَلَوْكَ[11]، جَلْداً[12] إنْ قَرّبُوكَ، أميناً إنِ ائتَمَنُوكَ، تَشكُرُهمْ ولا تُكَلّفُهُمُ الشّكرَ، بَصيراً بأهوائِهِمْ، مُؤثِراً لمَنافعِهم، ذَليلاً إنْ ظَلَموكَ، راضِياً إنْ أسخَطوك؛ وإلاّ فالبُعدَ منهُم كلَّ البُعدِ، والحَذَرَ كلَّ الحَذَرِ.

معاملة الناس:

أبذُلْ لصَديقِكَ دَمَكَ ومالَكَ، ولمَعرِفَتِكَ[13] رِفدَكَ[14]

---

(1) أي أن لا تظهر الرضى عن نفسك مهما تبذل في خدمتهم من المجهود.
(2) واعتزله: أي اعتزل ذلك.
(3) بحقه: أي بحق عملهم.
(4) الوزر: الإثم.
(5) أنفهم: استكبارهم واستنكافهم.
(6) إن أعلمتهم: أي أعلمتهم الحق في عملهم الذي تتولى أمره.
(7) سلوتهم: نسيانهم إياك وتسليهم بسواك.
(8) تبرمهم: تضجرهم.
(9) زايلتهم: فارقتهم.
(10) تستأمرهم: تشاورهم.
(11) بلوك: جربوك.
(12) جلداً: قوياً شديداً.
(13) معرفتك: أي من تعرفه من الناس.
(14) رفدك: عطاءك.

ومَحضَرَكَ[1]. وللعامّةِ بِشرَكَ وتَحَنُّنَكَ. ولعَدوِّكَ عَدلَكَ. واضنِنْ[2] بدينِكَ وعِرْضِكَ عَن كلِّ أحَدٍ.

انتحال الكلام:

إنْ سَمِعتَ مِنْ صاحبِكَ كَلاماً أو رأياً يُعجِبُكَ، فلا تَنتَحِلْهُ تَزَيُّناً بهِ عندَ النّاسِ؛ واكتَفِ منَ التّزَيّنِ بأن تَجتَني الصّوابَ، إذا سَمِعتَهُ، وَتَنسُبَهُ إلى صاحبِهِ. واعلَمْ أنّ انتِحالَكَ ذاكَ سَخطَةٌ لصاحبكَ، وأنّ فيهِ، معَ ذلكَ، عاراً؛ فإنْ بلَغَ ذلكَ بكَ أنْ تُشيرَ برأيِ الرّجلِ وتتَكَلّمَ بكَلامِهِ، وهوَ يَسمَعُ، جَمَعتَ، معَ الظّلم، قِلّةَ الحَياءِ؛ وهذا من سوءِ الأدَبِ الفاشي بَينَ النّاسِ. ومن تَمامِ حُسنِ الخُلُقِ والأدَبِ أنْ تَسخوَ نَفسُكَ لأخيكَ بما انتَحَلَ مِن كَلامِكَ ورَأيكَ، وتَنسُبَ إلَيهِ رأيَهُ وكلامَه، وتُزَيّنَهُ، معَ ذلكَ، ما استَطَعتَ.

حسن الاستماع:

تَعَلّمْ حُسنَ الاستِماعِ كمَا تَتَعَلّمُ حُسنَ الكَلامِ. ومِن حُسنِ الاستِماعِ إمهالُ المُتَكَلّم حتى يَقضيَ حَديثَهُ، وقِلّةُ التّلَفّتِ إلى الجَوابِ، والإقبالُ بالوَجهِ والنّظَرِ إلى المُتَكَلّمِ، والوَعيُ لِما يَقولُ.

---

(١) محضرك: حضورك.

(٢) واضنن: وابخل.

مختـــارات فلسفيـــة

الفـارابـي

نظام المدينة الفاضلة

والمدينة الفاضلة تشبه البلان التام الذي تتعاون أعضاؤه كلها على تتميم حياة الحيوان، وعلى حفظها عليه. وكما أن البدن: أعضاؤه مختلفة متفاضلة الفطرة والقوى، وفيه عضو واحد رئيس هو القلب، وأعضاؤه تقرب مراتبها من ذلك الرئيس، وكل واحد منها جعلت فيه بالطبع قوة يفعل بها فعله، ابتغاءً لما هو بالطبع غرض ذلك العضو الرئيس، وأعضاء أُخر فيها قوى تفعل أفعالها على حسب أغراض هذه التي ليس بينها وبين الرئيس واسطة... ثم هكذا إلى أن تنتهي إلى أعضاء تخدم ولا ترئس أصلاً، فكذلك المدينة، أجزاؤها مختلفة الفطرة، متفاضلة الهيئات، وفيها إنسان هو رئيس، وأُخر تقرب مراتبها من الرئيس. وفي كل واحد منها هيئة وملكة يفعل بها فعلاً يُقتضى به ما هو مقصود ذلك الرئيس، ودون هؤلاء قوم يفعلون الأفعال على حسب أغراض هؤلاء... ثم هكذا تترتب أجزاء المدينة إلى أن تنتهي إلى أُخر يفعلون أفعالهم على حسب أغراضهم، فيكون هؤلاء هم الذين يَخدِمون ولا يُخدَمون، ويكونون في أدنى المراتب.

ورئيس المدينة الفاضلة ليس يمكن أن يكون أيّ إنسان اتفق، لأن الرئاسة إنما تكون بشيئين: أحدهما أن يكون بالفطرة والطبع معدًّا لها، والثاني بالهيئة والملكة والإرادة... ينبغي أن يكون إنساناً قد استكمل فصار عقلاً ومعقولاً بالفعل، قد استكملت قوته المتخيّلة بالطبع غاية الكمال... وتكون هذه القوة معدّة بالطبع لتقبل، إما في وقت اليقظة أو في وقت النوم،

من العقل الفعال الجزئيات، إما بنفسها وإما بما يحاكيها، ثم المعقولات بما يحاكيها، وأن يكون عقله المنفعل قد استكمل المعقولات كلها وصار عقلاً بالفعل. فأي إنسان استكمل عقله المنفعل بالمعقولات كلها، وصار عقلاً بالفعل ومعقولاً بالفعل حصل له حينئذٍ عقل ما بالفعل، رتبته فوق العقل المنفعل، وأتمُّ وأشدُّ مفارقةً للمادة ومقاربة من العقل الفعّال، ويسمى العقل المستفاد، ويصير متوسطاً بين العقل المنفعل والعقل الفعال، ولا يكون بينه وبين العقل الفعال شيء آخر.

وإذا حصل ذلك في جزئي قوته الناطقة: النظرية والعملية، ثم في قوته المتخيلة، كان هذا الإنسان هو الذي يوحي إليه... يتوسط العقل الفعّال، فيكون ما يفيض من الله، تبارك وتعالى، إلى العقل الفعال، يفيضه العقل الفعال إلى عقله المنفعل بتوسط العقل المستفاد ثم إلى قوته المتخيّلة، فيكون بما يفيض منه إلى عقله المنفعل حكيماً فيلسوفاً ومتعقلاً على التمام، وبما يفيض منه إلى عقله المنفعل حكيماً فيلسوفاً ومتعقلاً على التمام، وبما يفيض منه إلى قوته المتخيلة نبياً منذراً بما سيكون.

فهذا الإنسان هو في أكمل مراتب الإنسانية وفي أعلى درجات السعادة، وتكون نفسه كاملة متحدة بالعقل الفعال. فهذا هو الرئيس الذي لا يرئسه إنسان آخر أصلاً، وهو الإمام، وهو الرئيس الأول للمدينة الفاضلة، وهو رئيس الأمة الفاضلة، ورئيس المعمورة من الأرض كلها. ولا يمكن أن تصير هذه الحال إلا لمن اجتمعت فيه اثنتا عشرة خصلة فطر عليها:

١ ـ أن يكون تام الأعضاء.

٢ ـ أن يكون بالطبع جيّد الفهم والتصور لكل ما يقال له.

٣ ـ أن يكون جيّد الحفظ لما يفهمه، ولما يراه ولما يسمعه.

٤ ـ أن يكون جيّد الفطنة ذكياً.

٥ ـ أن يكون حسن العبارة، يؤاتيه لسانه على إبانة كل ما يضمره إبانة جيدة.

٦ ـ أن يكون محباً للتعليم، والاستفادة منقاداً له.

٧ ـ أن يكون غير شره، متجنباً بالطبع للعب.

٨ ـ أن يكون محباً للصدق وأهله مبغضاً للكذب وأهله.

٩ ـ أن يكون كبير النفس محباً للكرامة.

١٠ ـ أن يكون الدرهم والدينار وسائر أغراض الدنيا هينة عنده.

١١ ـ أن يكون محباً للعدل وأهله، مبغضاً للجور وأهله.

١٢ ـ أن يكون قوي العزيمة على الشيء الذي يرى أنه ينبغي أن يفعل، جسوراً عليه مقداماً.



ابن سينا

النفس

هبطتْ إليكَ من المحلِّ الأرفعِ ... ورقاءُ ذاتُ تعزُّزٍ وتمنُّعِ[1]
محجوبةٌ عن كل مقلة عارفٍ ... وهي التي سفرتْ ولم تتبرْقعِ[2]
وصلت على كُرْهٍ إليكَ، وربما ... كرهتْ فراقكَ وهي ذاتُ تفجُّعِ[3]
تبكي وقد ذكرت عهوداً بالحمى ... بمدامعٍ تَهْمي ولما تُقلعِ
وتظلُّ ساجعةً على الدِمَنِ التي ... درستْ بتكرارِ الرياح الأربعِ[4]
إذ عاقها الشركُ الكثيفُ وصدَّها ... قفصٌ عنِ الأوج الفسيحِ الأرْبُعِ[5]
حتى إذا قرُب المسيرُ من الحِمى ... ودنا الرحيلُ إلى الفضاءِ الأوسعِ[6]
وغدَتْ مخالفةً لكلّ مخلّفٍ ... عنها حَليفِ التربِ غير مُشَيَّعِ

---

(١) الورقاء: الحمامة، شبّه بها النفس الإنسانية، وهو هنا يعالج موضوع النفس على مذهب أفلاطون.

(٢) العارف: صاحب المعرفة الصوفية ـ محجوبة عنه: لا يراها مع أنها سافرة لم تتعمد إخفاء نفسها، أي أنه يحس بوجودها ولا يراها.

(٣) وصلت على كره: أي أنها في الأصل من غير عالم الطبيعة، فهي لم تأته إلا مجبرة بسبب إثمها الذي هو شوقها إلى معرفة النقص والشر في الطبيعة. فهي ألفت الجسد وأسرها حب الدنيا فغدت مولعة بأباطيل الحياة تأبى أن تفارقها.

(٤) أي إذا حان أجلها حزنت على فراق الدنيا، وبكت عليها برغم ما يعتادها من كون وفَساد. والدِمَن هي بقايا الخراب ويقصد بها الدنيا الرياح الأربع: هي العناصر الأربعة التي تتكون منها مخلوقات الدنيا وتنحلّ إليها.

(٥) الشرك: حبّ الدنيا. القفص: الجسد الذي حُبست فيه النفس. الأوج الفسيح الأربع: السماء العالية.

(٦) المسير من الحمى: الرحيل عن الدنيا ـ الفضاء الأوسع: العالم الآخر.

هجعتْ، وقد كشِفَ الغطاءُ، فأبصرت ... ما ليسَ يُدرَكُ بالعيونِ الهُجَّعِ[1]
وغدت تُغرّدُ فوقَ ذِرْوَةِ شاهقٍ ... والعلمُ يرفعُ كلَّ من لم يُرفَعِ[2]
فلأيّ شيءٍ أُهبِطتْ من شاهقٍ ... عالٍ إلى قعرِ الحضيضِ الأوضعِ[3]
إن كان أهبطها الإلهُ لحكمةٍ ... طويتْ على الفذّ اللبيبِ الأَرْوعِ
وهبوطُها إن كان ضربةَ لازبٍ ... لتكون سامعةً بما لم تَسْمَعِ
فتعودَ عالمةً لكلِّ خفيّةٍ ... في العالمين، فخَرْقُها لم يُرْقَعِ[4]
فكأنها برقٌ تألّق بالحِمى ... ثم انطوى فكأنه لم يلْمَعِ[5]

❀ ❀ ❀

(١) هجعت: رقدت، صرفت نظرها عن الدنيا. أي أنها إذا ما استغرقت في التأمّل أبصرت من الحق ما لا تبصر في حال وعيها.
(٢) العلم: علم الحق أو المعرفة الصوفية.
(٣) يتساءل عن الحكمة الإلهية التي أرسلت بالنفس إلى هذا العالم ثم استعادتها منه.
(٤) إن الغاية هي أن تختبر النفس حالات لم تعهدها في وجودها الأكمل.
(٥) يشبّه وجود النفس في عالم الدنيا بحصول البرق الخاطف، إذ تعود إلى عالمها السعيد وكأنها لم تهبط إلى هذا العالم.

الغـــزالـــي

من رسالة أيها الولد

أيها الولد لا تكن من الأعمال مفلساً ولا من الأحوال خالياً، وتيقَنْ أن العلم المجرد لا يأخذُ باليد... لو قرأتَ العلم مئة سنة وجمعت ألف كتاب، لا تكون مستعداً لرحمة الله تعالى إلا بالعمل، «فمن كان يرجو لقاءَ ربه فليعملْ عملاً صالحاً، والإيمان قول باللسان وتصديقٌ بالجنان وعملٌ بالأركان، ودليل الأعمال أكثر من أن يُحصى».

أيها الولد، العلمُ بلا عمل جنون، والعمل بغير علم لا يكون.

أيها الولد، خلاصة العلم أن تعلمَ أن الطاعة والعبادة ما هي، واعلم أن الطاعة والعبادة متابعة الشارع في الأوامر والنواهي بالقول والفعل، يعني: كل ما تقول وتفعل وتترك يكون باقتداء الشرع.

أيها الولد، ينبغي لك أن يكون قولك وفعلك موافقاً للشرع، إذ العلم والعمل بلا اقتداء الشرع ضلالة. واعلم أن اللسان المطلق والقلب المطبق، المملوء بالغفلة والشهوة، علامة الشقوة. فإذا لم تقتل النفس بصدق المجاهدة لن يحيا قلبك بأنوار المعرفة.

أيها الولد، إني أنصحك بأشياء أقبَلها في لئلا يكون عملك خصماً عليك يوم القيامة، تعمل ببعضها وتدع بعضها.

١ ـ ترك المناظرة: لا تناظر أحداً في مسألة ما استطعتو لأن فيها آفات كثيرة، فإثمها أكبر من نفعها، إذ هي منبع كل خُلق ذميم: كالرياء والحسد والكبر والحقد والعداوة والمباهاة وغيرها. ثم لم وقع مسألة بينك وبين

شخص أو قوم، وكانت إرادتك فيها أن يظهر الحق ولا يضيع، جاز البحث، لكن لتلك الإرادة علامتان، إحداهما أن لا تفرّق بين أن ينكشف الحق على لسانك أو على لسان غيرك، والثانية أن يكون البحث في الخلاء أحبَّ إليك من أن يكون في الملاء.

٢ ـ الاتعاظ قبل الوعظ: ينبغي أن تحذر من أن تكون واعظاً ومذكراً، لأن فيه آفات كثيرة، إلا أن تعمل بما تقول أولاً ثم تعظ به الناس.

٣ ـ اعتزال العظما ورفض عطائهم: ينبغي ألا تخالط الأمراء والسلاطين ولا تراهم، لأن في ذلك آفة عظيمة. وإذا ابتليت بها دع عنك مدحهم وثناءهم، لأن الله تعالى يغضب إذا مُدحَ الفاسق والظالم. ولا تقبل من عطائهم وهداياهم لأن الطمع منهم يفسد الدين إذ يتولّد منه المداهنة ومراعاة جانبهم والموافقة على ظلمهم.

٤ ـ عامل كما تودّ أن تعامل: ينبغي أن تجعل معاملتك مع الله تعالى بحيث لو عاملك بها عبدُك ترضى بها منه. والذي لا ترضى لنفسك من عبدك المجازي فلا ترضى أيضاً لله تعالى وهو سيّدك الحقيقي. فكل ما عملت بالناس اجعله كما ترضى لنفسك منهم، لأنه لا يكمل إيمان عبد حتى يُحبَّ لسائر الناس ما يحب لنفسه.

أيها الولد، إني كتبتُ في هذا الفصل ملتمساتك، فينبغي لك أن تعمل بها.



المحتويات